الخالدون من أعلام الفكر

الجزء الشرقى

◆

أحمد الشنوانى

◆

الناشر
دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة



اسم الكتاب : الخالدون من أعلام الفكر
اسم المؤلف : أحمد الشنوانى
المراجعة اللغوية والتدقيق : طه عبدالرؤوف سعد
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠٠٦/٢٤٠٤٩
الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 376 - 261 - 2

تطلب كافة منشوراتنا :
حلب : دار الكتاب العربى - الجميلية أمام مسرح نقابة الفنانين - ت: ٢٢٥٦٨٧٠
دمشق : مكتبة رياض العلبى - خلف البريد - ت : ٢٢٣٦٧٢٨
مكتبة النورى - أمام البريد ت : ٢٢١٠٣١٤
مكتبة عالم المعرفة - جسر فيكتوريا ت : ٢٢٢٨٢٢٢
مكتبه الفتال - فرع أول - ت: ٢٤٥٦٧٨٦
فرع ثانى - ت : ٢٢٢٢٣٧٣

الطبعة الأولى
٢٠٠٧



E-mail:darkitab2003@yahoo.com

سوريا - دمشق - الحجاز - شارع مسلم البارودى هاتف: ٢٢٣٥٤٠١ ص. ب ٣٤٨٢٥ فاكس : ٢٢٤٧٢٩٧
مصر - القاهرة - ٥٢ شارع عبدالخالق ثروت - شقة ١١ تلفاكس : ٣٩١٦١٢٢
لبنان - تلفاكس : ٤٣٤١٨٦ / ٠٥ - تليفون : ٦٥٢٢٤١ / ٠٣ - ص. ب ٣٠٤٣ الشويفات

2

الخالدون من اعلام الفكر

الجزء الشرقى

حافظ ابراهيم

١٨٧١ - ١٩٣٢م

شاعر النيل

الشاعر ولد على ضفاف النيل عند ديروط، وعاش حياته أعزب. منطويا على نفسه فى دار الكتب عشرين عاما بعد أن عاد من السودان، كان خلالها مقيدا بقيود الوظيفة لا يستطيع أن يقول أى شىء.

نشأ فى بيئة شعبية، ومات والده صغيرا، وذاق طعم البؤس واليتم والخصاصة ردحا من حياته.

عاش حافظ حياة الناس واضطرب فى بيئاتهم وخبر آلامهم وأحزانهم وخفق قلبه الرقيق لهم.

وشاء القدر أن يبدأ حافظ إبراهيم مواجهة الأحداث، ومقارعة الخطوب، وهو لم يجاوز العام الرابع من عمره، فقد توفى أبوه فى ديروط، ولم يخلف له مالا ولا جاها، ولم يترك له إلا أليتم والعدم المريرين وهو فى هذه السن الغضة، فاضطرت أمه إلى الانتقال به إلى القاهرة، حيث التجأت إلى أخيها «محمد نيازى» وعاشت هى وولدها اليتيم المسكين فى كنفه. ولا شك فى أن مؤونتهما كانت واجبا أثقله أداؤه، إذ كان هو الآخر موظفا صغيرا، يعمل مهندسا للتنظيم.

وكان على خاله هذا أن يعلمه حين بلغ السن التى تؤهله لبدء الدراسة، فلم يسعه ألا أن ألحقه بمكتب لتعليم القراءة والكتابة وشىء من العربية والحساب كان

فى حى القلعة بالقاهرة حينذاك، ويعرف باسم «المدرسة الخيرية».

ومن هذا المكتب، أو «الكُتاب» الأولى المتواضع البسيط، انتقل حافظ إلى «مدرسة القربية الابتدائية».

ثم انتقل حافظ إلى مدرسة «المبتديان». كما التحق بعدها «بالمدرسة الخديوية». ولكنه لم يلبث فى هذه المدرسة الأخيرة الا فترة قصيرة. ثم تركها وغادر القاهرة كلها إلى مدينة طنطا. ليعيش هناك مع أسرة خاله الذى نُقل إليها فى ذلك الحين.

وفى خلال هذه السنين العشر أو نحوها، التى قضاها حافظ متنقلا بين «الكتاتيب» والمدارس الابتدائية فى القاهرة، تأصلت الشعبية فى نفسه، وامتلأ ذهنه وقلبه بمختلف الصور الصادقة الناطقة عن الحياة القاتمة لطبقات الشعب الكادحة الفقيرة. ولا شك فى أن تجاربه الخاصة فى هذه السن المبكرة كان لها أكبر الأثر فى حياته، وكانت هى المنبع الغزير لما ردده فى شعره من شكوى وعتاب ورثاء لليتامى والمساكين.

كان حافظ فى السادسة عشرة من عمره حين أبت عليه نفسه أن يعيش عالة على خاله، وكان عليه أن يجد لنفسه عملا يعيش منه بكده وجهده، ولما كان لم يحصل على شهادة دراسية تؤهله للالتحاق بعمل حكومى، وكانت مطالعاته الكثيرة ومحفوظاته من جيد الشعر ومختاره، لا تغنى غناء الشهادات فى هذا الشأن، فقد اتجه إلى ميدان الأعمال الحرة، والتحق بمكتب لأحد المحامين فى طنطا وهو الشيخ محمد الشيمى، على أمل أن يصبح محاميا ناجحا مثله، ولا سيما أنه كان يحس فى نفسه انه على حظ عظيم من طلاقة اللسان، والخبرة بفنون الكلام. وكانت المحاماة فى ذلك العهد مهنة مفتحة الأبواب لكل من أراد ممارستها. وقد لقى فيها حافظ أول الامر حظا مبشرا بالنجاح.

وانتقل حافظ بعد ذلك إلى مكتب محام آخر هو المرحوم عبد الكريم فهيم غير أنه سرعان ما ترك العمل فى المحاماة كلها، ثم عاد للقاهرة حيث التحق بالمدرسة الحربية، وواصل الدراسة فى هذه المرة إلى أن تخرج فيها برتبة الملازم سنة ١٨٩١

وهو يومئذ فى حوإلى العشرين من عمره.

وعين حافظ بعد تخرجه فى المدرسة الحربية ضابطا بالجيش، فأمضى فيه نحو ثلاث سنوات، ثم نقل إلى وزارة الداخلية وعين ملاحظا للبوليس فى مركز بنى سويف ثم فى مركز الإبراهيمة.

وإلى هنا، كان حافظ الضابط الشاعر، مازال يداعبه الأمل فى أن يبلغ ما بلغه الضابط الشاعر الذى اتخذه مثلا وقدوة، وهو المرحوم محمود سامى البارودى. وكان حافظ على حق فى هذا الأمل، فهو فى ميدان القلم والشعر كان قد صار شيئا مذكورا فى الأوساط الأدبية، وهو فى ميدان السيف والحرب كان قد بلغ رتبة الملازم الأول!

على أن صرح آماله بدأ ينهار فجأة، إذ أحيل إلى الاستيداع منذ إعادته إلى وزارة الحربية، فعأوده بؤسه القديم منذ ذلك الحين، لأن مرتبه فى الاستيداع لم يكن يزيد على أربعة جنيهات فى الشهر!

ولبث كذلك خمسة أشهر أو نحوها، ثم كللت مساعيه فى سبيل الخروج من أزمته النفسية والمادية بالنجاح، فعين بإدارة التعيينات، واضطر خلال عمله فيها إلى السفر إلى السودان فى الحملة الأخيرة بقيادة لورد كتشنر.

وزاد فى شقائه خلال عمله فى السودان، أنه كان مغضوبا عليه من كتشنر نفسه، ذلك الجبار العنيد كما وصفه هو فى كتاب له.

وفى الوقت نفسه، كان رئيس فرقته حاقداً عليه، لا يفتأ يذكره بالسوء فى تقاريره الرسمية، وذلك لأن حافظ لم يكن يطيق غطرسته، وكثيرا ما نظم فى ذمه أراجيز يُنشدها زملاءه الضباط.

هذا إلى قسوة القيظ فى السودان، وحرمان حافظ هناك من أصحاب سمره ومجالس أنسه فى القاهرة.

وأخيرا عاد حافظ إلى القاهرة، ولكنه عاد محالا مرة أخرى إلى الاستيداع بعد ان حوكم وسبعة عشر ضابطا من زملائه بتهمة العصيان، وهكذا تبخرت آماله

وتبددت فى أن يكون رب السيف والقلم مثل محمود سامى البارودى. وتراءى لعينيه ما ينتظره من عيش ضنك بالجنيهات الشهرية الأربعة التى هى مرتب الاستيداع.

لبث حافظ بعد عودته من السودان يواصل السعى فى سبيل الحصول على عمل ملائم يعيش منه، ولكنه فشل فى سعيه هذا أكثر من عشر سنين، لم يدع خلالها بابا إلا طرقه، ولا وسيلة الا أتخذها. وكان حاله فيها كحاله حين كان صبيا يعانى إليتم والبؤس، وكحاله وهو يقاسى الوحشة والاضطهاد وفراق الاخدان والأخلاء فى السودان، وفيها يقول:

سعيت إلى أن كدت أنتعل الدما

وعدت وما أعقبت الا التندما

لحا الله عهد القاسطين الذى به

تهدم من بنياننا ما تهدما

وقد صقلت هذه الأعوام نفس حافظ ومواهبه الشعرية، بما أتيح له فيها من تجارب ودراسات فى صميم الحياة، وتوفر على صوغ الشعر وتجويده لاتخاذه وسيلة إلى بلوغ الغاية التى يريدها، وكانت غايته أول الأمر أن يحظى بمنصب فى القصر، فأخذ يزجى إلى الخديو عباس الثانى مدحة بعد مدحة فى مختلف المناسبات.

على أنه وقد يئس من نيل متمناه عند الخديو وشاعره، ظل يلقى عند الأستاذ الإمام محمد عبده صدرا رحبا وعطفا كريما وتشجيعاً عظيماً. وقد سجل حافظ ما لهذا المصلح الكبير عليه من مآثر فى كثير من القصائد والرسائل.

وبفضل تشجيع الاستاذ الإمام محمد عبده استطاع حافظ أن يزداد تألقا ولمعانا بين نجوم الشعر فى ذلك الحين، كما استطاع أن يتألق بين نجوم النثر باخراجه «كتاب البؤساء» للشاعر الفرنسى فيكتور هوجو فى حلة عربية فاخرة كانت ولا تزال موضع الإعجاب لدى الأدباء والمتأدبين.

ولم يكن عجيبا أن يكون حافظ أشد أصحاب الأستاذ الإمام وتلاميذه حزنا وفجيعة ولوعة عند موته فى سنة ١٩٠٥ فقد ضاعت بفقده بقية ما كان للشاعر

العصامى البائس من أمل فى الحياة.

ومهما يكن من أمر تلك السنين العجاف فى حياة حافظ المادية، فلا شك فى أنها كانت خيرا وبركة على حياته الأدبية والاجتماعية، ففى خلالها أنشأ كثيرا من غرر قصائده فى السياسة الوطنية والأخلاق والعادات والتقاليد، وأخرج كتابه الثانى «ليالى سطيح». كما اشترك مع صديقه شاعر القطرين خليل مطران فى ترجمة كتاب فى «الاقتصاد». هذا إلى أن اتصالاته من طريق أدبه وشعره بكثيرين من الكبراء داخل الحكم وخارجه، انتهت أخيراً بأن عُين رئيسا للقسم الأدبى فى دار الكتب.

وكأنما شاء القدر ألا يبقى حافظ الشاعر العصامى طول حياته شاعرا بما يشعر به البائسون والمعدمون، لكى يبقى لهم نعم النصير، وليختصهم من شعره الذائع بالشىء الكثير.. ومن هنا عاش حافظ بعد ذلك ما عاش وهو يسخو بما يملك من مال على صديق أو زميل بائس، وفى الوقت نفسه كانت عزة نفسه تأبى عليه أن يذل لغير الله.

ويلتقى حافظ مع مطران الذى كان المجدد الأول فى الشعر العربى الحديث وهو الذى دفع حافظ وشوقى إلى التحول والتطور..

وهو عند طه حسين زعيم الشعر العربى المعاصر، وأستاذ الشعراء العرب المعاصرين لا يستثنى منهم واحدا ولا يفرق بين المقلدين والمجددين، وأنه حمى حافظا من أن يسرف فى المحافظة وشوقيا من أن يسرف فى التجديد.

وقد اتفق لحافظ ومطران أن يترجما الآثار الغربية فترجم حافظ البؤساء وترجم مطران روايات شكسبير.

وهنا يبدو مدى الفارق بين حافظ وشوقى ومطران وقد جمعهم الزمن فى جيل واحد. كل له طابعه وطريقته وحياته الخاصة واتجاهه الشعرى ومعالمه النفسية الواضحة.

إن مطران هو أوضحهما من ناحية الطبيعة النفسية فقد كان حبه واضحا واتصاله بالمرأة بارزاً فى صورة قوية رائعة.

وعاش حافظ بعيدا عن هذا الميدان يطوى أيامه وفى نفسه ذلك البؤس الذى ما أظن أن مصدره إلا خلو حياته من المرأة التى كان يعزف عنها.

الحريرى

١٠٥٤ - ١١٢٢م

أحد أئمة عصره وصاحب المقامات

هو أبو محمد القاسم بن على بن محمد، وُلد فى البصرة، وفيها نشأ وأقام، إلا فترات كان ينتقل فيها إلى بغداد. وكان له من موارد أرضه ما وّفر له حياة رخاء، فانصرف إلى تحصيل العلم والشغل باللغة والنحو خاصّة، شغل الهواة المقلّدين، ينظم وينثر فى موضوعات قديمة، لا ليعبر عن شعور خاصّ ودافع طبيعى بل ليجارى من تقدمه من علماء اللغة والنحو، ومَهَرة الإنشا، وحُذاق السجع والبديع. وهكذا ألف المقامات اقتداء ببديع الزمان، كما يقول فى المقدّمة، وسار على خطّته فى خلق الأشخاص من الرأوى، الحارث بن همام، إلى صاحب النشأة، أبى زيد السروجى. بيد ان الحريرى كان أقلّ ابتكاراً من الهمذانى، وأوفر جلداً على تحسين الصياغة. فأتت مقاماته أضعف حياةً، أو أكثر جموداً، من مقامات الهمذانى، وأبعد عن الرواية؛ وإن كانت تفوقها بحسن المبنى من حيث غنى المفردات وتنوّع طرق التعبير، واستعمال الألفاظ اللغوية فى مكانها الصحيح، والإكثار من أنواع الجناسات والسجعات، والاغراب بالتلاعبات اللفظية سواء. أشعراً كان ذلك أم نثراً. هذا، ومما يجب ذكره ان مقامات الهمذانى، وان كانت أوفر طرافة وأقرب إلى دقة الملاحظة والوصف من مقامات الحريرى، لم تنل شهرة هذه. ولذلك أسباب منها أنه أتى، بعد الحريرى، طور انحطاط انصرف فيه المتأدّبون إلى رونق اللفظ خاصّة، فرأوا مثالهم الأعلى فى الحريرى. وما زال الحكم يتناقل جيلاً فجيلاً؛ والنقّاد، على قلّتهم، غافلون عن تحقيقه، حتى اصبح من الثابت المقرّر. ثم فتح أدباء القرن

التاسع عشر عيونهم، فى فجر النهضة، فرأوا الاعجاب بهذه المقامات شاملاً، وكان اهتمامهم بظواهر الانشاء التقليدية أكثر منه بحقيقة الأدب، فأقرُّوا الحكم للسابق، دون تردّد. اما إليوم فلا يُخطىء مَن يعطى كل ذى حقّ حقَه، قائلاً: إن مقامات الهمذانى أقرب إلى الفنّ، ومقامات الحريرى أقرب إلى الصناعة.

آثاره

للحريرى تآليف حسان منها درة الغواص فى أوهام الخواص، بيّن فيه مغالط الكتّاب فى ما يستعملون من اللفظ بغير معناه. ومنها مُلحة الإعراب، وهى آرجوزة فى النحو. ومنها ديوان شعر ورسائل. ومنها المقامات، وهى أشهر آثاره، فإنها تُرجمت إلى عدة لغات أجنبية، وشرحها غير واحد من العلماء أمثال الشريشى، والعكْبرى، والزَّبيدى وغيرهم، وطبعت عدة مرّات فى بيروت ومصر وأوربا.

سبب وضعه المقامات

ذكر عبد الله بن الحريرى السبب الذى من أجله وضع والده المقامات قال: «كان أبى جالساً بمسجد بنى حرّام. فدخل شيخ ذو طِمرين، عليه أهبة السفر، رث الحال، فصيح اللسان، حسن العبارة. فسأله الحاضرون: «من أين الشيخ؟» فقال: «من سروج.» فاستخبروه عن كنيته، فقال: «أبو زيد.» فعمل أبى المقامة المعروفة بالحرامية، وهى الثامنة والأربعون، وعزاها إلى أبى زيد السروجى المذكور. واشتهرت فبلغ خبرها الوزير شرف الدين أبا نصر أنو شروان بن خالد بن محمد القاشانى، وزير الإمام المسترشد بالله. فلمّا وقف عليها، أعجبته، وأشار على والدى أن يضم إليها غيرها، فأتمها خمسين مقامة.».

وذكر ابن خلكان انه وجد نسخة مقامات بخط مصنفها، وقد كتب بخطه على ظهرها أنه صنفها للوزير جمال الدين عميد الدولة الحسن بن صدقة وزير المسترشد أيضاً. فعلى هذه الرواية يكون عبد الله بن الحريرى قد غلط فى اسم الوزير. ويشير الحريرى إلى الوزير فى خطبة مقاماته بقوله: «فأشار مَن إشارته حُكْم، وطاعته غُنْم، إلى أن أنشىء مقامات أتلو فيها تِلْو البديع، وإن لم يُدرك الظالع شأو الضليع!.» وجعل رأوية مقاماته الحارث بن همّام. وهو رجل خيالى

أخذه من حديث: «كلكم حارث وكلكم همام»

على أن المقامات الخمسين ثابتة للحريرى، ولا وجه للشك فى نسبها إليه. ولا يذكر الحريرى إلا كانت مقاماته أسبق آثاره إلى الأذهان لأن بها قامت ميزته ومنزلته.

منزلته

قال فيه ابن خلكان: «كان أحد أئمة عصره، رُزق الحظوة التامة فى عمل المقامات. واشتملت على شىء كثير من كلام العرب، فى لغاتها وأمثالها، ورموز أسرار كلامها، ومن عرفها حق معرفتها، استدل بها على فضل هذا الرجل، وكثرة اطلاعه، وغزارة مادته.». وقال الزمخشرى:

أُقسِمُ باللّه وَآيَاتِهِ، ومشعر الحَج وَميقاتِهِ

إن الحَريرىَّ حرى بأنْ تُكْتَب بِالتبرِ مَقاماته

مُعجِزة تُعجِزُ كل الوَرَى، وَلو سروا فى ضَوءِ مِشكاتِهِ

ومنزلة الحريرى لم تقم على جمال القصص فى مقاماته، والتفنن فى أغراضها، وإنما قامت على إنشائها المنمّق، وما فيها من رموز لغوية، وأحاجٍ بيانية. فالحريرى لم يحفل بالفن القصصى فيعمد إلى ترقيته، بل قصر همتّه على التصرف فى الألفاظ، وضروب المحسنات والألغاز. فجاءت أقاصيصه متشابهة المواضيع، محدودة الخيال، ولكنها حافلة بكل عجيب من أنواع البيان والبديع، وكل غريب من كلام العرب ومذاهبهم.

وكان التصنع فى الإنشاء هو الطراز الأعلى يومذاك، ففتن بإنشائه أهل زمانه، ومن جاء بعدهم، فاتخذوا مقاماته عنواناً للكمال، لا يلتفتون إلى غير الصناعة اللغوية فيها. وإليها أشار ابن خلكان فى كلامه، والزمخشرى فى شعره.

وكثر بعد الحريرى وضّاع المقامات، وأشهر من اصطنعها فى المتقدمين الزمخشرى والسيوطى، وفى المتأخرين الشيخ ناصيف إليازجى، وكلهم اتخذ الحريرى أستاذاً له يجرى على مثاله.

حسان بن ثابت

٥٦٣ - ٦٧٤م

من طليعة الشعراء السياسيين

لقد كان حسان بن ثابت من الشعراء المعمرين الذين عاصروا الجاهلية شطر حياتهم الطويلة، وعاصروا الإسلام شطرها الأخير، وتأثرت أشعاره بشطرى حياته، فبدت فى صورتين فنيتين مختلفين: إحداهما جاهلية والأخرى إسلامية.

وإذا كان الأدباء قد اختلفت مذاهبهم فى تمييز المخضرم من الشعراء، فإنهم قد اتفقوا جميعاً على أن حسان بن ثابت يعد بحق من طبقة الشعراء المخضرمين الذين أسهموا فى بناء الحياة الأدبية بشعر جاهلى فى أخريات الجاهلية وبشعر إسلامى فى فجر الإسلام. ولا مناص هنا فى صحبتنا لحسان من التعرض بإيجاز لبحوث أدبية، تتصل بحسان وعصره، ولم تزل تشغل النقاد، والأدباء، كالمخضرمين، والشعر والإسلام، والإسلام والهجاء.

ولئن فات حسّان أن يدافع عن نبيه بحسامه، لقد أتيح له أن يناصره بلسانه، وهو سلاحه الوحيد الذى كان يستطيع أن يشهره على الأعداء. فأصبح شاعر الرسول (ﷺ) يمدحه ويرد على من يهجوه من شعراء قريش. وكان النبى يقول له: «اهجهم وروح القدس معك، واستعن بأبى بكر فإنه علاّمة قريش بأنساب العرب.» فكان أبو بكر يدلّه على معايب القوم ومثالبهم. ويقول له: «كف عن فلانة واذكر فلانة، وكف عن فلان واذكر فلاناً.» فكان يفعل والرسول يعطيه ويحسن له الجائزة، وقد وهبه سيرين القبطية أخت مارية أم ولده إبراهيم، فولدت له عبد الرحمن الشاعر. وما زال حسّان يعيش من مال المسلمين حتى مات بعد أن كُفّ بصره فى أواخر أيّامه. وكانت وفاته بالمدينة فى خلافة معأوية، وهو من المُعَمّرين.

آثــاره

لحسان ديوان فيه قصائد كثيرة فى المدح والهجاء والرثاء والغزل والفخر.

ونُسبت إليه أشعار ليست له. قال ابن سلاّم: «وقد حُمِل على حسّان ما لم يُحمَل على أحد، لما تعاضهت[1] قريش وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تليق به.»

شاعر الرسول

ولحسان شعر جميل فى الجاهلية لا يُبَخس حقّه، وقد يكون أجود من شعره فى الإسلام كما يزعم الأصمعى. ولكن شهرة حسّان قامت على أنّه شاعر الرسول، فينبغى لنا أن ننصرف إلى درس هذه الميزة التى خُصّ بها دون غيره لنتبيّن سرّها. فإن لشعر حسّان منزلة ليست لسواه من شعراء الصدر الأوّل، فهو فى نضاله عن النبّى يصور حالة ذلك العصر أصدق تصوير، ويمثل حقيقة تهاجى الأنصار والقرشيين وما فى هذا الهجو من فُحش وإقذاع. فنحن مدينون لشعر حسّان فى درس هذا النوع الجديد الذى دخل على آدابنا العربية، ولو لم يصل إلينا شعره لما تسنّى لنا أن نقف على حقيقة هذا النوع، ونتبين خصائصه بشكل واضح مبين، ولسنا نعجب لوصول شعر حسان على ما فيه من هجاء مقذع، فإنّ الرواة لم يتحرجوا من حفظه وروايته. وكلّه ذود عن بيضة الدين، ولكنّهم تحرّجوا وأنفوا من ذكر شعر هُجى به الرسول. ولعلنا نستطيع أن ندرك مبلغ إهمال أشعار القرشيين والتأثم من روايتها فى حديث لعبد الله بن الزِّبَعْرى بعد إسلامه. وذلك لما قدم المدينة فى صحبة ضرار بن الخطّاب لملاحاة حسّان، فقال ابن الزّبعّرى: «يا أبا الوليد، إن شعرك يُحتمل فى الإسلام ولا يُحتمل شعرنا، وقد أحببنا أن نُسمعك وتُسمعنا.» فإذا كان ابن الزّبعّرى يستنكر رواية شعره بعد أن أسلم، فالرواة أولى بأن يطمسوه ولا يحفظوه.

فنحن إذاً فى درسنا شعر حسّان نطالع صفحة تاريخيّة جليلة، ونطلع على فن جديد آلا وهو فن الشعر السياسى الصحيح، ونقول: الصحيح، لأن العرب فى جاهليتهم عرفوا شيئاً منه فى منافراتهم ومفاخرتهم، ولكنّه كان ضئيلاً ضعيف

(١) تعاضهت: جاءت بالزور والبهتان.

الأثر، لا يستند فى كثرته إلى عقيدة صحيحة، وربما قُصد منه التكسب كما كان يفعل الأعشى والحطيئة.

ومن المعلوم أن المنافرات فى الجاهلية كانت تجرى بين شخصين أو بين قبيلتين، كما وقع لتغلب وبكر فى حضرة عمرو بن هند، ولكن تأثيرها الموضعى لم يكن له من القوّة ما يجعل لها هيكلاً قائماً بنفسه، أو يخلق منها فنّاً مستقلاً عن غيره. وأما شعر حسان فهو حرب عوان بل جهاد عنيف بين أنصار الدين القديم وأنصار الدين الجديد شُحذت له القرائح، وانطبقت الألسنة حداداً، لا للتكسب والاستجداء، بل للدفاع عن سلطتين دينيتين زمنيتين تتنازعان البقاء. فلا غرو أن يترك هذا الجهاد أثراً قوياً فى الأدب، ويكون فاتحة الشعر السياسى الصحيح الذى نراه مزدهراً فى الصدر الثانى للإسلام.

وليست ميزة حسّان فى شعره مقصورة على خصائصه فى المدح والهجاء، بل له خاصة ذات منزلة عالية، وهى خاصة المؤرخ الأمين لحوادث عصره، فإنّه يحدّثنا عن غزوات النبى وأيامها، ويذكر لنا أسماء من قُتل من الصحابة ومن قتل من المشركين، ويرثى من قتِل بعد النبىّ من الخلفاء الراشدين. فكأنّك، وأنت تقرأ شعره، تطالع نبذة من تاريخ الصدر الأول للإسلام.

حسان بين الجاهلية والإسلام

وحسان فى شعره الجاهلى مثله فى شعره الإسلامى، لا يتسع له الخيال فيطول نفَسه، فأكثر قصائده قصيرة، وأطولها لا يزيد على الأربعين بيتاً، على أنه فى قصائده الجاهلية أوسع خيالاً منه فى قصائده الإسلامية، ولعل عنايته بذكر الحوادث التاريخية أثرت فى مخيلته، أو لعل هذا الضعف ناتج عن كبر السن. ولست تجد فى شعره تلك التشابيه التمثيلية الخصبة التى عرفتها فى أشعار غيره من الجاهليين، فهو إذا وصف شيئاً لا يمعن فى وصفه فيتمه، بل ينتقل بسرعة إلى غيره كمن ضاق صدره فطلب التنفس. ولذلك كثر فى مطالعه الاقتضاب والقطع بما يشبه التخلص، فما يكاد يستهل قصيدته بالغزل وذكر الديار حتى ينتقل بعد

بيتين أو ثلاثة إلى غرضه مدحاً كان أو هجاءً، وأكثر ما يكون انتقاله بقوله: «دع هذا، ودع ذكر ذا». وأغلب هذا الانتقال المقتضب فى شعره الإسلامى.

منزلته

قال أبو عبيدة: «فَضَلَ حسانُ الشعراءَ بثلاث: كان شاعر الأنصار فى الجاهلية، وشاعر النبى فى النبوة، وشاعر اليمن كلها فى الإسلام» وقال أيضاً: «اجتمعت العرب على أن حسان أشعر أهل المدر» وقال الأصمعى: «حسان فحل من فحول الجاهلية، فلما جاء الإسلام سقط شعره.» وقال الحطيئة: «أبلغوا الأنصار أن شاعرهم أشعر العرب».

وقال أبو عمرو بن العلاء: «حسان أشعر أهل الحضر». وقال أبو الفرج الأصفهانى: «حسان فحل من فحول الشعراء» وقال الحرث بن عَوْف المُرِّى لمحمد ﷺ: «أجرنى من شعر حسان، فوالله لو مُزج به ماءُ البحر لمزجه.»

وكان محمد ﷺ يقول لحسان: «اهجُهم، فوالله لشعرُك أشد عليهم من نَضْح النبل فى غَلَس الظلام». وقال أيضا: «امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء فى النار، وحسان بن ثابت يقود جموعهم إلى الجنة». وكان حسان كثير الادعاء، يدلع لسانه ويقول: «والله لو وضعته على شَعر لحلقه، وعلى صخر لفلقه».

أما نحن فنرى أن حسانا فى شعره الجاهلى مجيد، ولكنه لم يبلغ شأو فحولة الشعراء. وفى شعره الإسلامى مجيد فى بعضه ولا سيما الهجو والفخر، ضعيف فى أكثره لاسيما مدحه ورثاؤه للرسول، ولكن فيه من الفوائد التاريخية، ومن جديد الأسلوب ما ليس فى شعره الجاهلى. فحسان فى الإسلام شاعر مؤرخ، وشاعر مجدد فى وقت واحد، وهو فى دفاعه عن النبى طليعة الشعراء السياسيين.



الحكيم توفيق

١٨٩٨ - ١٩٨٧م

أبرز الروائيين والكتاب المسرحيين العرب

يوشك أن يكون إنتاج الأستاذ توفيق الحكيم إنتاجا أدبيا متسما بنزعات فنية خاصة، وملتزما بغايات فضلى، ولا غرو فالأستاذ توفيق الحكيم ظاهرة اجتماعية تاريخية، الإنسان المبدع فيها هو بطلها الذى يخوض صراعا دائماً ومتجدداً مع واقعه وعصره، وهذا الصراع يتخذ مواقف متعددة، تتراوح بين الثورة والتمرد والنقد الإصلاحى الموضوعى البناء، وأحيانا المساومة التقنية وغير التقنية، يجسد هذا كله فى صور فنية من أعمال مسرحية وروائية، وانطباعات تترك آثارها وتؤتى ثمارها فى المقالات والأحاديث والخواطر والخلجات والرسائل. «إن أدب توفيق الحكيم هو أدب البرج العاجى، هو أدب فكرى بعيد متأمل، لذلك تجد أفكاره على هيئة حوار عقلى، ولا ترى بين المتحاورين شخصيات مرسومة بوضوح، ولكن عنده موضوعات تتعلق بالحياة الاجتماعية، مثل «يوميات نائب فى الأرياف وعودة الروح».

عالج القصة محلية وعالمية، يكتب بصدق ويرسم برفق، تناول الطباع البشرية وصورها تصويراً بارعاً تنبثق من خلاله القوة وتتدفق الحياة.

تفنن فى تخطيط شخوص المسرحية وبرع فى حوارها الرقيق حتى صار أبا للمسرح وملكاً للحوار حيث تنبع الحوادث من طبيعة المواقف حتى تصل إلى قمة العقدة، ثم تنحدر فى سلاسة إلى لحظة التنوير.

تعرض فى ثنايا مقالاته وأحاديثه للمشاكل الاجتماعية والاقتصادية والوطنية والسياسية، حتى استوى على قمة الحركة الأدبية.

وتوفيق الحكيم ذو طبيعة عربية خاصة، فهو الرجل الذى يفكر دهراً ليكتب سطرا وهو فى تفكيره وكتابته يعيش فى عالم لا يشاركه فيه أحد، ولا يسمح لأحد باقتحام فردوسه سواء كان رجلا أو امرأة.

وهو من مؤسسى مدرسة المجددين فى الأدب العربى، حمل على عاتقه عبئا ثقيلا فى إثراء الفكر، وجلب الجديد النافع من الأدب العالمى، فهو بالنسبة للأدب العربى قمة. وبالنسبة للأدب العالمى قيمة، شق طريقا لم تكن ميسرة، وأوجد رعيلا بعده، ومن ثم كانت أهميته أكبر من أى كاتب فى العالم بالنسبة إلى أدب هذا الكاتب، لأنه امتداد لكتاب آخرين سبقوه، عاش الحكيم حياة ملؤها الثورة الداخلية والصراع بين عالمين، عالم الروح وعالم الطين، عالم المثل والخيالات والأحلام وعالم الحقيقة والواقع والمادة، فحياته تجسيد لهذا الصراع، تنهل من الواقع الذى يعيشه بحكم عمله واحتكاكه بالمادة والطين، وتعب من الخيال الذى يحياه بالأحلام والتحليق مع الآمال، فتارة يجنح إلى سماء المعرفة والنور فيسمو إلى عالم الخلود فإذا هو مع الملائكة والرسل، وأخرى يجذبه الواقع والطين فينزل من برجه العاجى ويهبط، فإذا هو إنسان كسائر الأناسى، ولعل هذه هى التعادلية التى وضع أسسها توفيق الحكيم. رشحته جامعة القاهرة وجمعية الأدباء لجائزة الدولة التقديرية، وجاء فى تقرير لجنة الفحص بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ما يلى: «إن الأستاذ الحكيم فى طليعة أدبائنا الذين عنوا عناية خاصة بالأدب المسرحى، وقد وهب له فنه وإبداعه وأصالته، وهو الرائد الأول للمسرح العربى المعاصر، ويتميز إنتاجه بمعالجة الأفكار الوطنية فى عمل أدبى روائى أو مسرحى، مما كان له أثر بعيد المدى فى إذكاء روح الكفاح وتنمية الوعى القومى، كذلك عالج القضايا الاجتماعية التى تمس حياة الشعب من ظلم وفساد وفوضى وغيرها فى إطار فنى وأصالة حية سواء فى السرد أو الحوار».

«وله ميزة أخرى فى مسرحياته مما يمكن أن يسمى «المسرح الذهنى» الذى

عالج فيه كثيرا من القضايا الإنسانية فى صورة ذهنية، وإلى جانب ذلك فإن إنتاجه غزير ممتد على حقبة طويلة من تاريخنا الحديث، نفذ فيها هذا الإنتاج إلى جميع المستويات الثقافية العالمية».

وعندما قامت الثورة الوطنية ثورة ١٩١٩ حركت مشاعر الحكيم فأذكت الروح الوطنية فى روايته «عوة الروح».

ثم توالت نداءاته الإصلاحية فى «شجرة الحكم» و«يوميات نائب فى الأرياف» و«السلطان الحائر» و«عودة الوعى»، مما وقف به إلى قمة المجد الأدبى.

لقد استطاع الحكيم بعقله وقلبه الكبيرين أن يحمل على عاتقه مسئولية تقديم الأدب الغربى والفكر الأوروبى إلى جماهير الشعب فى مصر والأمة العربية، وسيظل قمة من قمم الثقافة، وظاهرة فى تاريخها ليس من السهل أن تتكرر، تشرئب الأعناق إليها ما دام هناك أدب وفن وفكر ونقد.

* * *

سئل توفيق الحكيم إذا كان قد وصل إلى ما كان يريد فقال: «ربما ظفرت ببعض ما كنت أريد أو بكثير منه، ولكن: هل ما كنت أريد هو ما كان يجب أن أريد؟ إننا نحدد مطالبنا عادة عندما نكون فى مطلع الحياة، أى فى مرحلة الشباب، فمن يضمن لنا أننا فى هذه المرحلة كانت لنا الحكمة الكافية والتجربة الضرورية للإرادة الصحيحة؟»

ويبدو توفيق الحكيم صادقا فى تصوير نفسه بعد أن ارتفعت به السن، وقد بلغ الخامسة والخمسين: «أظن اننى أحب نفسى الآن أكثر مما كنت أحبها أيام الشباب، لأن القلب يصغر كلما كبرنا إلى أن يأتى الوقت الذى لا يتسع فيه لغير أنانيتنا والعياذ بالله».

وعندما تحدث عن الحب قال: «إن الحب كمرض الحصبة يصيب الصغار ويندر أن يصاب به من جأوز الثلاثين ويمكن مد المدة إلى الأربعين».

إن هذا الكائن المنقرض، يخيل إلى أننى رأيته فيما مضى، ولكن لماذا يتخذ

الحب هذه الأهميـة فى حيـاة الناس؟. إنهم يريدون أن يقـرءوا عنه فى الكتب ويسـمعـوه فى الأغـانى ويشـاهدوه فى القـصص، والويل للروائى أو الشـاعـر أو السـينمـائى الذى يهـمله. إنى أحب بقلبى الذى فى رأسى وبعـقلى الذى بين جوانحى..»

هذه ملامح شخصية توفيق الحكيم.. فى الحلقة السادسة من عمره.. بعد أن بلغ من الشهرة مداها وتحول من الفن الخالص إلى الصحافة إلى الأدب الذى يرضى القراء.. إلى أن أصبح هذه الشخصية الجديدة.

حقا ما أبعد الفرق بين الشباب وبين ارتفاع السن.. فى الأفكار والآراء.. إن كل شئ يتحول وينتقل من وضع إلى وضع.

وبعد فما هى حياة توفيق الحكيم فى أدبه؟

وهل المصادفة البحتة هى التى قدمته إلى الناس، عندما طبع أصدقاؤه مائة نسخة من قصة «أهل الكهف» سنة ١٩٣٣ فاستقبلها الدكتور طه حسين استقبالا ضخما، وصفق لمؤلفها ووصفها بأنها أول محاولة لابتداع الحوار فى الأدب العربى؟

إن كل الأسانيد التى أمامنا تدل على غير ذلك، تدل على أن «توفيق الحكيم» ولد كاتبا، وانه بدأ محاولاته مبكراً.. ثم اختفى وذهب إلى باريس وعاد وهو يحمل الآمال العريضة فى الظهور والتبريز.

.. إذن فتوفيق الحكيم إن كان قد لمع فى الجو الأدبى فى ذلك التاريخ وبذلك الكتاب فإنه لم يكن أول محاولاته. وإنما هو رجل عاش فى برجه العاجى هذا الوقت الطويل، يقرأ ويراجع فى أناة وهدوء.

«.. كان مبدأ ظهورى فى الجو الأدبى نشر أهل الكهف عام ١٩٣٣ ولم تكن هذه الرواية بالطبع بدايتى الأولى فى هذا اللون من التأليف بل كانت ثمرة تجارب عشرة أعوام أو تزيد سابقة على الشروع فى وضعها، فلقد كنت قبل ذلك أكتب للمسرح المصرى روايات تتلاءم وجمهور تلك الأيام.

وإنى وإن كنت أوثر نسيان الروايات الأولى، إلا أنى لا يجب أن أنكر فضلها

على تكوينى الفنى الأولى فلقد كانت هى خير محاولاتى على ممارسة الحوار ثم اتسعت آفاقى باتساع نطاق مطالعاتى فى أصول هذا الفن فى الآداب الأجنبية.

وضاقت بى مصر فرحلت إلى فرنسا بعد أن كنت سجلت اسمى فى جدول المحامين ومهدت أمرى لحياة مجدية، ولكن أى شيطان فى أعماق نفسى كان يدفعنى إلى إضاعة حياتى وراء فن لم يكن له بمصر أى احترام.. وهناك فى فرنسا قرأت كثيرا وكتبت بالفرنسية نحو أربع روايات تمثيلية مزقت الواحدة منها تلو الأخرى تمزيقا عقب الفراغ منها فلم أكن قد اهتديت إلى شئ يذكر.

ولبثت فى هذا الجهاد زمنا لا أجد فى آدابنا العربية مرجعا لهذا الفن ولا مصدرا محترما يجعلنى أبدأ منه أو أضيف إليه إنما كان على أن أخلق البداية خلقا وكتبت بعد ذلك عدة روايات من بينها «أهل الكهف».

وقد اشتغلت بالقضاء فأنسانى هذه الخزعبلات ودفنت محفوظاتى فى حقائبى طويلا أنتقل من بلد إلى بلد ومن قرية إلى قرية.

حتى وقعت مخطوطة أهل الكهف فى يد قاض مثقف من زملائى كان يذكر أيامى الماضية فى مسارح القاهرة».

هكذا ظهر توفيق الحكيم فجأة ولكنه كان قد استعد لذلك سنوات، ولذلك سرعان ما قدم للأدب العربى المعاصر عددا ضخما من المؤلفات فى سنوات قلائل.

اتصل «توفيق الحكيم» منذ شبابه ببيئة الفن، ولم يتخلص منها بعد ذلك، حتى فى هذه الفترة التى قضاها فى القضاء والنيابة، كان مرتبطا بالفن بأكثر من سبب.

ومنحته باريس «بيئة الفن» سرها وروحها.. أعطته باريس آيات الفنون والآداب «التى تملك عليه أمره كله فلا يرى غيرها» فإن المعرفة غير المباشرة من كتب ومحاضرات ومتاحف لم تلبث أن طغت فى نفسه على المعرفة المباشرة.

كان يفضل البقاء فى باريس مكبا على القراءة والتحصيل على أن يصاحب إخوانه المصريين إلى شاطئ بحر أو قمة جبل.

ولكنه كان يحس فى باريس بأن أيامه لا مذاق لها «.. فهى كالماء الحراق

أجرعه على غير ظمأ، المستقبل أمامى محاط بالضباب، يخيل إلىَّ أنى هويت قبل الأوان كالثمرة التى تسقط من الفرع قبل النضوج..»

وفى باريس عمد إلى تحصيل الثقافة من منابعها الحقة وبدأ محاولة فى سبيل الخلق الفنى.

«والحوار» هو موهبة توفيق الحكيم الأولى.. فيه تتجلى ملكته الأساسية وأسلوبه المركز، أشبه بالبناء الدقيق.

عدو المرأة

وأدب توفيق الحكيم صورة لنفسه، فما موقفه من المرأة والحب. لقد أطلق عليه لقب «عدو المرأة» فهل تحول عن رأيه فى المرأة كما تحول عن بعض آرائه الأخرى «لقد تغيرت كثيرا وتنازلت عن أغلب أفكارى وآمالى لقد أرغمتنى الحياة على المصانعة فى أمور كثيرة..»».

فإذا تحدث بعد ذلك عن المرأة بدا رأيه مظلما متشائما.. عبوسا «.. لو خيرت، لا أريد جنة أو نارا من صنع المرأة، إنى أحرص كل الحرص على أن أكون سيد نفسى وأن أصنع لنفسى نعيما وجحيما لا تعرفهما المرأة، إن جنتى بالطبع لن تجد فيها حية ولا تفاحا، فهى جنه هادئة متواضعة، جنة الفكر والتأمل والخلق والإبداع، إذا دخلتها المرأة حلت فيها الفوضى وانفرطت عقود درها المنظوم وتحطمت تماثيلها المرمرية، كما أن جحيمى مملوء بعذاب الشك والقلق الفكرى، وعذاب القصور عن إدراك الكمال الفنى، آلام لا تفهمها المرأة كذلك ولا يمكن أن تعترف بها، فأنت ترى أن نفسى «منطقة مقدسة» لا أسمح لامرأة بالدنو منها، ولقد ازددت مع الزمن شدة فى ذلك حتى رأيت أن أقصى المرأة نهائيا عن الشطر الباقى فى حياتى.

انى أعيش مع شبح امرأة دائماً، ولكن أى امرأة، إن تلك التى سمحت لها بدخول جنتى، هى امرأة لا كالنساء، فإنها النور بغير مصباح، وهى قطرات النشوة بغير خمر، هى عروس لها جسم المرأة، وكل شئ جميل فى المرأة متدثر فى رداء من خيإلى ومن كل ما هو جميل من نفسى، فقد أسبغته عليها هى ملكة جنتى التى توحى إلى بخير ما أخرج وأصنع، فالمرأة التى لها شأن فى حياتى هى كما ترى من

صنع يدى وخلق تصـويرى وانى أعـتـقـد ان أغلب من ذكـرت من الكتـاب والفنـانين والرجال العظام ما دفعتهم إلى العمل المنتج إلا نساء من صنع أنفسهم».

ولكن هـل اسـتطاع توفـيق الحكيم أن يقـصى المرأة نهـائيـا عن الشطر البـاقى من حياته.. إنه قد تزوج رغم إصراره على البرج العاجى، ولكنه مـإذا يقول: « .. المرأة عندى هى المرأة دائما وإن كنت إليوم أكثر شفقة بها وأشد حرصا على عدم الإساءة إليها».

يقـول العقـاد إن توفيق الحكيم متـردد. «بين عتبـة الصـومـعـة وعتبـة الحيـاة..» ويصف سـيـد قطب طبيعـة توفيق الحكيم بأنهـا «تشفق من الحل الحـاسم وتنفـر من الوضوح الصريح، إن الشك فى طبيعته والقلق الدفين فى نفسه، وهو معنى بالذهن الإنسـانى المجـرد، يوغل فى تأمـلاته ويسـبـح فى فـروضـه ويثـيـر مـشكلاته ويتـابع ومضاته..»

هل تستطيع من هذه اللمسات أن ترسم صورة توفيق الحكيم؟.

أعتقـد أن هناك خيطا آخـر هو الصـوفيـة، فمـا صلتـهـا بتوفيق، هل كان من المتوقع أن يتجه اتجاها روحيا صوفيا خالصا.. ثم غلب عليه طابع المفكر؟.. يقـول محـمـد مندور: إنه مفكر بعـقله لا بحـواسـه، يعـالج المسـائل عـلاج من لم تمسـه عن قرب. فإلى أى حد يبدو هذا فى إنتاجه؟

إن «توفـيق الحكيم» يضع أمـامنا ضـوءا جـديداً لشـخـصيـتـه «طفولتى مملوءة بالغـرائب منذ ولدت، وحـتـى سـاعـة ولدت قـيل إنى لم أبك مـثل سـائر الأطفـال فحسبونى نزلت ميتا، وكان الوقت ليلا فنبذونى للاعتناء بالأم المريضة، فلما عادوا إلى وجدونى فى أتم صحة، ساكنا صامتا أنظر فى عجب وسرور إلى نور المصباح، أترانى أحببت النور من النظرة الأولى!»

«أعجب مـا فى حياة الإنسان إنها ليست حياة واحدة، إنها سلسلة حيوان تتابع فى حلقات العـمـر الطويل، فـحلقـة الطفولة لها حيـاتهـا المستقلة بجـوهـا السـحـرى واتجـاههـا الملائكى، وحلقـة الصبـا والشبـاب لهـا حيـاتهـا المستقلة بجـوهـا الشـعـرى واتجـاههـا المثـإلى، وحلقـة الرجولة لهـا حيـاتهـا المسـتـقلة بجـوهـا التـأملى واتجـاههـا الواقعى، وحلقة الكهولة والشيخوخة لها حياتها المستقلة باتجاهها الفلسفى، وهذه

الحلقات منفصلة فى أكثر الأحيان إحداها عن الأخرى انفصالا ملحوظا، فإن ما كنت تعيشه فى حلقة لا يصلح لك فى حلقة أخرى، فالجمال الذى كان يفتك فى الشباب لا يؤثر فيك وأنت فى الرجولة والكتاب الذى يثقل عليك فى الصبا قد يسحرك فى الكهولة»[١].

هذا رأى توفيق الحكيم فى أطوار حياته «.. إنه لم يلق كثيرا بشخصيته فى غمرة الناس، ولكنه كان يلقى إليهم دائما بفكره يسعى بينهم ويؤثر فى نفوسهم، كان شأنه شأن ذلك الجالس على الشط يلقى الفتات إلى السمك وينظر إليه يجتمع عليه ويفترق..»[٢]

توفيق الحكيم فنان يؤمن «بأن الفنان خلق ليخلق ومهما تكن الأسباب فإن السبب الاكبر هو أن قبسا حل فيه من صفة الخالق..»

ولكنه يرى أن الأدب قد فشل تماما فى توجيه الناس والأمم والأجيال وأن أثره لم يعد أكثر من أثر السيجارة. فان كانت أفادت احداً فقد أفادته هو. إن الأدب لم يحول الإنسانية عن الشر ولم يدفعها إلى الخير..



(١) عصا الحكيم.

(٢) الرباط المقدس.

حمورابى

١٧٥٠ - ١٦٨٦ ق.م

صاحب أقدم وثيقة قانونية تراعى سيادة العدل

لعل أكثر ما اشتهر به حمورابى هو قوانينه، ولعل أول ما يذكر بصدد هذه القوانين هو الباعث على إصدارها، وقد عبر ملك بابل العظيم عن ذلك الباعث إذ قال:

نشر العدالة هو رائدى

وتحطيم الأشرار والمجرمين هو هدفى

وحماية الضعيف من ظلم القوى هو غايتى.

تلك هى المعانى والقيم السامية التى حدت بحمورابى إلى إصدار قوانينه، التى لا يقل عددها عن ٢٨٢ قانونا قبل نحو ٣٧٥٠ عاما.

وقد تبدو قوانين حمورابى كثيرة العدد، ولا سيما إذا قيست بالشرائع البابلية والسومرية التى سبقتها، ولكنها فى الواقع قليلة وتبدو كذلك بخاصة إذا قورنت بما استهدفته وشملته من نطاق واسع.

فهى تتناول طائفة كبيرة من الجنايات والجنح فتحددها وتنص على العقوبات التى تستوجبها، ثم إنها تتصدى لأمور التجارة والزواج والأسرة والميراث والملكية، وتضع لها جميعا من القواعد والشروط ما يكفل ضبطها وتنظيمها.

وتجدر الإشارة إلى العناية الخاصة بأعمال ذوى الاختصاص كالأطباء والمهندسين، وقد كادت قوانين حمورابى أن تنفرد بها فهى تحدد المسئوليات الملقاة على عاتق هؤلاء وأمثالهم ومثل ذلك يقال فى الأجور والإيجارات بصورة عامة، وفى

أمور الزراعة وما يتصل بها من مشاكل وقضايا، وقد أولتها شريعة حمورابى مزيدا من اهتمامها.

وتحتل الأحكام الخاصة بالأسرة مكانة بارزة بين قوانين حمورابى فهى تعبر عن نظرة التقدير إلى المرأة وحقوقها، والحرص الشديد على حمايتها وحماية الأولاد القصر ولعلنا لا نجد لتلك النظرة وهذا الحرص مثيلا فى شرائع التاريخ القديم كله.

ونذكر فى هذا الصدد أن قوانين حمورابى تبيح الطلاق من حيث المبدأ وتجيز للرجل أن يطلق زوجته إذا هى تصرفت تصرفا مشينا، أما إذا كان سبب الطلاق غير ذلك، كعدم انجاب الأطفال مثلا، فعلى الرجل فى تلك الحالات ان يعطى المرأة من المال بقدر المبلغ الذى استوجبه زواجه منها أصلا، وعليه أيضا أن يعيد إليها «الدوطة» أو المهر الذى دفعته أو جاءت به من بيت أبيها.

وتظهر قوانين حمورابى فيما يتصل بتعدد الزوجات مثلما أظهرت بالنسبة إلى الطلاق، فهى تجيز للرجل ان يتزوج امرأة ثانية بسبب موت زوجته الأولى أما إذا أقدم الرجل على الزواج مرة ثانية بدون سبب الموت الذى ذكرنا فيتوجب عليه فى تلك الحال أن يبقى زوجته الأولى فى بيته ويعولها «ما دامت على قيد الحياة».

أما فى الميراث فتقول تلك القوانين فيما تقول:

«يرث الأولاد عن أبيهم الراحل أمواله وأملاكه، أما أمهم الأرمل فلها حق الانتفاع بتلك الأملاك واستعمالها كما تشاء ويستثنى من ذلك طبعا الأملاك التى كان قد منحها إياها زوجها قبل وفاته. فللأرملة حق التصرف فى أملاكها الخاصة هذه بيعا أو إيجارا حسبما تشاء».

وبقى علينا أن نشير إلى ما اشتهرت به شريعة حمورابى من قسوة العقوبات، وأول ما يحضرنا فى هذا الصدد المادة ٢٢٨ التى تعالج مسئوليات الأطباء والجراحين وهذا نصها: «إذا أجرى الجراح عملية جراحية رئيسية لأحد أفراد طبقة الوجهاء (بالبابلية: أولوم) وتسبب فى موت ذلك الرجل.. عوقب ذلك الجراح بقطع يده».

وتحضرنا المادة (٢٢٩) التى تنص: «إذا بنى أحد المهندسين المعماريين بيتا لأحد الوجهاء وانهار ذلك البيت لضعف فى بنائه وانهدم على رأس صاحب البيت فتسبب فى موته. كان عقاب ذلك المهندس هو الموت» «أما إذا كان ضحية ذلك انهيار عبد من عبيد صاحب البيت، فلا يطالب المهندس المسئول بأكثر من إعطاء صاحب البيت عبدا آخر بدلا من العبد الذى مات».

ويبدو أن حمورابى أدرك ما انطوت عليه قوانينه من قسوة وشدة فأتاح الفرصة للصفح والعفو حينا ولتخفيف العقوبة أحيانا. ونضرب على ذلك مثلا المادة (١٥٩) التى تحدد عقوبة الزنا، فتنص على أن «يربط الزانى بالزانية فيشد وثاقهما إلى بعضهما ثم يلقى بهما فى مياه النهر.. وتمضى المادة تؤكد ان فى إمكانهما تحاشى هذا المصير.. وذلك فيما إذا صفح الزوج عن زوجته الزانية وعفا الملك عن عشيقها وشريكها فى الجريمة».

حمورابى القائد والملك

نقف هنا ونتحول بحديثنا عن الشرائع إلى المشرع الذى سنها لعلنا نلم ببعض معالم حياة حمورابى وبشئ من أفعاله وأمجاده.

وأول ما يتبادر إلى الذهن هو أن المملكة الواسعة التى دانت لحمورابى ابان حكمه الطويل (١٧٢٨ - ١٦٨٦ق.م)، والتى شملت بلاد ما بين النهرين جميعا وامتدت حتى وصلت إلى ديار بكر، لم تكن المملكة التى ورثها عن أبيه، إذ لم تزد مساحة هذه على ٢٠ ميلا بالعرض و٨٠ ميلا بالطول، وقد اقتصرت على الرقعة الصغيرة التى نجدها فى الوقت الحاضر بين الفالوجة والديوانية. أما بقية إمبراطورية بابل الشاسعة فقد ضمها إليه فى المرحلة الأولى من حكمه وكان من نتيجة هذه الفتوحات أيضا أن انهارت الممالك القوية التى كانت تحيط بمملكته الصغيرة وكانت خمس ممالك هى: مملكة لارسا فى الجنوب وآشور ومارى وآكلافوم فى الشمال ومملكة اشتوتا فى الشرق.

ومن طريف ما يذكر هنا أن حمورابى لم يبدأ القيام بفتوحاته تلك لدى اعتلائه العرش مباشرة، بل بعد ذلك بخمس سنوات فقد كان من الدهاء بحيث أمضى تلك

السنوات الأولى فى التعرف إلى أحوال تلك الممالك وإعداد لعدة للحرب، التى نوى منذ اللحظة الأولى خوضها.

أضف إلى ذلك حرصه على الإحاطة بشؤون مملكته ورعيته والعمل على توطيد أركان عرشه.

بيد أن تلك الفتوحات لم تلبث أن انتهى أمرها فى غضون بضع سنوات، فحل السلم محل الحرب وعم استقرار وانتشر الرخاء وازدهرت الحضارة، طيلة الأعوام الثلاثين الأخيرة من حكم حمورابى الذى امتد ٤٣ سنة.

بقى أن نذكر أن حمورابى أعظم ملوك بابل لم يكن بابليا، بل كان ابن أحد شيوخ الأموريين كما دلت على ذلك رسائله التى تم الكشف عنها فى السنوات الأخيرة.

ولعل خير ما نختم به كلامنا عن حمورابى هو ما قاله حمورابى نفسه عن حكمه وأعماله فى أواخر أيامه:

لقد حطمت أعدائى فى الشمال والجنوب.

ووضعت حدا بعد ذلك للحروب.

ونجحت فى نشر الرخاء فى البلاد.

وأوجدت البيوت الصالحة لسكن العباد.

وضربت على يد كل من حاول بث الفساد.

* * *

وشريعة حمورابى كتبت على لوح من الديوريت، ويعلوها نقش يظهر فيه حمورابى وكأنما يتلقى أمر كتابة الشريعة من إله العدالة.... إله الشمس «شمش». وقد نقل اللوح إلى عاصمة العيلاميين القديمة «سوسه».. نقلها إليها أحد الغزاة العيلاميين «شوترك ناهونتى» غنيمة حرب.. وكشف عنها العلماء الفرنسيون فى عام ١٩٠١ - ١٩٠٢.

الخليل بن أحمد

٧١٨ - ٧٩١م

صاحب أول معجم عربى

● ما أكثر ما يضفى الناس - فى عالم الأدب والشعر - من نعوت وصفات!، فهذا واحد دهره ونسيج وحده، وذاك فرد زمانه، وذياك درة عصره.. ثم ينقضى الزمان، ويزول الهيل والهيلمان، فيصبح الجميع فى خبر كان!

وقل من صدق فيه الرأى فى زمانه وبعد زمانه، وهؤلاء الأفذاذ حقا على توالى الحقب وتتابع الأزمان، ومن هؤلاء: الخليل بن أحمد الفراهيدى.

إنه عبقرى العرب وأستاذ سيبويه وعاشق الشعر الذى عكف عليه وجمعه وأرجعه إلى قواعده وتصنيفات أسماها البحور وأدرج كل بحر فى منبعه ومصبه وضبط قواعد الإيقاع وسمى كل ذلك بالعروض. لأنه كان مقيما بالعروض وهى مكة فسماها بركة ويمنا.

ولقد سموه عبقرى العرب لأنه سبق زمانه بألف عام ومائتين وأكثر ولأنه كان أبعد مدى وأرحب فى ميدان الكشف والعلم والعروض والشعر.

والحديث عن شخصية الخليل بن أحمد يطول، فلقد كان ذا شخصية نادرة متعددة الجوانب، فقد كان عالما فذا فى أكثر من فرع من فروع اللغة.. كان إماما فى النحو، مخترعا لعلم العروض، ومبتكرا للمعجم العربى، وفوق هذا كله كان ذا عقلية رياضية رائعة، وذهن يعشق المسائل العقلية المعقدة، وإن هذا ليظهر لنا بجلاء

ووضوح فى وضعه للمعجم العربى فقد اتبع فيه منهجا عقليا معقدا يدل على رقى فكره وتوقد ذهنه ورسوخ قدمه فى علم الأصوات اللغوية، وإن هذا الرجل الذى وصفه عبد الله بن المقفع بأن عقله أكبر من علمه، يطوى جوانحه على صفات سامية، هى بحق أحلى ما يتحلى به العلماء العظام، فقد كان الخليل - متواضعا غاية التواضع، أنوفا إلى أبعد مدى، معتزا بنفسه وبعلمه، ولكن بلا غرور أو تكبر، وإن كتب الأدب والتاريخ لتحوى ذخرا من الروايات التى تتحدث عن صفات الخليل هذه، وعن ترفعه عن ماديات الحياة.

* * *

عاشت البصرة صدر الإسلام مقر العلماء والحفاظ والقراء، وحين أفضت الدولة إلى بنى أمية وانتقلت العاصمة إلى دمشق لم تفقد البصرة مكانتها العلمية والأدبية، لا ينبغ شاعر ولا يظهر أديب ولا يبرز عالم إلا قصد البصرة يجد فيها من يستمع له ويعى عنه ويأخذ منه، وجذبت تلك المكانة غير العرب إليها من العراق وفارس وغيرهما فدخل على الفكر العربى جديد أضيف إليه، وهكذا عاشت البصرة فى العصر الأموى العاصمة العلمية للدولة على حين كانت دمشق العاصمة السياسية.

وإلى جانب البصرة كانت الكوفة، غير أن البصرة ظلت أسبق وعنها كانت تأخذ الكوفة إلى أن قامت الدولة العباسية فأخذ خلفاؤها يؤثرون علماءها على علماء البصرة ويتخذون منهم معلمين لأبنائهم.

وأذكى هذا الإيثار الروح العلمية بين البلدين فكان له أثر أيما أثر فى إنعاش الحياة العلمية وظهور آراء لم يكن يقدر لها الظهور لولا هذه المنافسة.

فى ظل هذه الحياة العلمية المنعشة المتأثرة بحضارات مختلفة كانت نشأة الخليل بن أحمد فى البصرة، وكان مولده فى العام المتمم مائة من الهجرة فى خلافة الخليفة الأموى العادل عمر بن عبد العزيز (٩٩ هـ - ١٠١هـ). على ذلك اجماع المؤرخين. ثم امتدت به الحياة ليشهد نهاية الدولة الأموية وكان عندها قد جأوز الثلاثين بقليل ليستقبل الدولة العباسية ليعيش فى ظلها عمرا طويلا.

ولا نعلم على التحقيق أين كان مولده، وإن كان بعضهم يقول: إنه ولد بمدينة عُمَان «بضم العين».

* * *

والذين يترجمون للخليل يجمعون على أنه كان من الزاهدين المنقطعين إلى الله غير راغب فى متاع الدنيا.

ومما يروى عن زهده وتعففه أنه أقام فى البصرة فى خص لا يقدر على فلسين وتلاميذه يكسبون بعلمه الأموال.

وكان النضر بن شُمَيْل يقول: أكلت الدنيا بعلم الخليل وهو فى خص لا يشعر به. وكان سفيان الثورى يقول: من أحب أن ينظر إلى رجل خلق من الذهب والمسك فلينظر إلى الخليل بن أحمد. وهو يعنى نقاء معدنه وطيب نفسه.

وفى الحق لقد كان الخليل من الراغبين عن الدنيا الراغبين إلى الله يحج سنة بعد سنة وكان يقول: إن لم تكن هذه الطائفة - يعنى العلماء - أولياء الله تعالى فليس لله ولى. وكان يقول: إنى لأغلق علىَّ بابى فما يجأوزه همى.

والخليل بعد هذا كان ذكيا فطنا، ولقد قيل: إنه لم يكن بعد الصحابة أذكى من الخليل ولا أجمع لعلم العرب منه.

ويحكون أن الخليل وابن المقفع اجتمعا ليلة بطولها يتذاكران ثم افترقا، فسئل الخليل عن ابن المقفع فقال: رأيت رجلا علمه أكثر من عقله، وقيل لابن المقفع: كيف رأيت الخليل؟ فقال: رأيت رجلا عقله أكثر من علمه.

ويزيدك إيمانا بحكم ابن المقفع على الخليل مما يرويه الأصمعى عن تقسيمه للعلوم هذا التقسيم الذى سأسوقه إليك والذى يدلك على مبلغ عقل هذا الرجل وتحكمه فيما بين يديه وإنه لم يقف عند الوعى والحفظ. بل عدا هذا وذاك إلى الابداع والخلق. يروى الأصمعى فيقول قال الخليل: العلوم أربعة، فعلم له أصل وفرع، وعلم له أصل ولا فرع له، وعلم له فرع ولا أصل له، وعلم لا أصل له ولا فرع. فأما الذى له أصل وفرع فالحساب، ليس بين أحد من المخلوقين فيه خلاف،

وأما الذى له أصل ولا فرع له فالنجوم ليس لها حقيقة يبلغ تأثيرها فى العالم - يعنى الأحكام والقضايا على الحقيقة. وأما الذى له فرع ولا أصل فهو الطب، والعلم الذى لا أصل له ولا فرع فهو الجدل - يعنى الجدل بالباطل.

ومما ينطق بفطنته ما رووه له من أنه كان عند رجل دواء لظلمة العين ينتفع به الناس، فمات هذا الرجل وافتقر الناس إلى ذاك الدواء. فقال الخليل: أله نسخة معروفة؟ قالوا لا. قال: فهل له آنية كان يعمله فيها؟ قالوا: نعم. قال: جيئونى بها. فجاءوه بها فجعل يشم الإناء ويخرج نوعا نوعا حتى أخرج الأخلاط جميعاً وأخذ يتعرف أقدارها إلى أن اهتدى إلى ذلك. ثم وجدت النسخة فى كتب الرجل. فوجدت الأخلاط كما اهتدى إليها الخليل.

والمؤرخون مجمعون على أنه كان إماما فى العربية كما كان الغاية فى استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه، كما كان أول من استنبط علم العروض.

وما من شك فى أن معرفته بالإيقاع والنظم أعانته على استنباط هذا العلم العروضى الذى لم يأخذه عن أستاذ ولا احتذاه على مثال سابق، ينضم إلى هذا ذكاء خارق. ولقد قالوا عنه فى استنباطه لهذا العروض واختراعه إياه من أن ذلك تأتى له حين كان يمر بالصفارين فسمع مطرقة على طست وكان عندها يردد بيتا من الشعر فإذا هو يوائم بين ما يسمع وبين ما يردد وإذا الفكرة تواتيه فى أن يقطع الشعر تقطيعا ينتهى به إلى وضع البحور، وما تحتها من تفصيلات.

وهذا إن صح يدلك على ما رزق الرجل من بديهه متوثبة وفطنة متأهبة.

والذى لا نشك فيه أن الرجل كان على قدرة على تلوين النظم والتحكم فيه أكسبته إياها معرفته النغم والإيقاع.

انتاجه العلمى

ومات الخليل وما نظنه دوَّن كل ما علم، فقد دوَّن شيئا واحتفظ بشئ آخر جعل وعاءه قلبه يمليه على تلاميذه، وكان منه هذا الذى يتصل بالنحو والذى أخذه عنه تلميذه سيبويه.

وإليك ما وقع لنا مما دونه الخليل من كتب:

١- «كتاب الإيقاع». ذكره ابن النديم وابن خلكان.

٢- «تصريف العمل» ومنه قطعه بمكتبة بودليانا.

٣- «التفاحة، فى النحو». وقد صورته البعثة المصرية لتصوير مخطوطات اليمن.

٤- «جملة آلات العرب». ومنه نسخة بمكتبة أياصوفيا.

٥- «شرح صرف الخليل» ومنه قطعة بمكتبة برلين.

٦- «الشواهد». ذكره ابن النديم وابن خلكان.

٧- «كتاب العروض» ذكره ابن النديم وابن خلكان.

٨- «فائت العين» ذكره ابن النديم.

٩- «فى العوامل» ذكره ابن خلكان.

١٠- «فى معنى الحروف» ومنه نسخة بمكتبة ليدن وأخرى بمكتبة برلين.

١١- «النغم» ذكره ابن النديم وابن خلكان.

١٢- «النقط والشكل» ذكره ابن النديم وابن خلكان.

١٣- وبعد هذا يأتى كتابه الكبير الخالد الذى يعد أهم مؤلفاته وهو: كتاب «العين»، الذى هو أول معجم عربى.



خليل مطران

١٨٧٢ - ١٩٤٩م

شاعر القطرين

عاش بين الشعر والصحافة والترجمة والعمل الاقتصادى. لا يُعرف قدره ولا يذكر إلا قليلا عندما يقال الشعراء الثلاثة: شوقى وحافظ ومطران. فيطلق عليه شاعر القطرين.

رضى الخلق، عالم متواضع، لا يحب الشهرة ولا الظهور. يحرص على البعد عن الأضواء ما استطاع إلى ذلك سبيلا. وبالرغم من أن النقد الأدبى الذى كان يعرف المظاهر والطبول الجوفاء قد ظل يتجاهله فترة طويلة، غير أنه لم يلبث أن اعترف به فى نهاية عمره وكان اعترافه قويا ضخما واضحا جهيراً فاحتفل بتكريمه وشهد أعلام الأدب بفضله على الشعراء القدامى والمحدثين.

وكان خليل مطران فى شعره كله مجدداً، ولعله كان سابقا لعصره لأنه استوعب الثقافة الأوروبية فى الشعر والفن على نحو أكثر قوة من صاحبيه شوقى وحافظ فضلا عن البيئة الأولى التى نشأ فيها فأثرت فى تكوينه ونفسيته، فقد ولد فى «بعلبك» وهى منطقة من أنصع مناطق الشرق جمالا يحوطها الحسن من كل جانب. وتتخللها والحدائق وإلينابيع وصور الجمال فى الأرض الخضراء والسماء الزرقاء. ففى هذه الربوع نشأ وتفتحت نفسه ثم عرف ابراهيم اليازجى وتتلمذ عليه فأمده بروح البلاغة. التى عرف به ترجماته فى الرائعة لقصص شكسبير. ثم سافر إلى

باريس فى شبابه فكان لذلك أثره فى نغمته فى فهم الأدب الأوروبى. وقد لقى خليل مطران ما لقى زملاؤه من رجال الفكر والرأى من اضطهاد فى بلاده التى كانت رازحه تحت الظلم التركى مما وجهه إلى الهجرة إلى مصر ملاذ الأحرار.

يرى كثير من النقاد أن مطران حمل راية التجديد فى الشعر العربى، وأنه برع فى الغزل القصصى وفى الوصف، فكان شاعر معان لا شاعر صناعة وصياغة، وأن عنايته انصرفت إلى معرفة الأدب الغربى يقلده ويحذو حذوه أكثر مما يقلد القدماء من العرب الفحول. فانخفض عن زملائه البارودى وشوقى وحافظ فى السبك والمتانة، ولكنه فتح فتحاً كبيراً فى صوره ولوحاته وتماثيله الشعرية.

ويرى هؤلاء النقاد أن ذلك راجع إلى نشأته وتربيته وثقافته وتقلب حياته، ونحب هنا أن نستعيد الخطوط الكبرى لهذه النشأة والثقافة مما يفيدنا فى عرض غزله ووصفه. فقد ولد الخليل فى «بعلبك» بعد عامين من حرب السبعين، ولبث العالمُ يتحدث عن الحرب الطاحنة، والمدافع الهدامة، والأجساد المتساقطة، وانتصار الألمان واندحار الفرنسيين. وسورية كانت تتصل فى كثير من أجزائها بجانب واحد من ثقافة هؤلاء المحاربين وعقليتهم، فلها أن تهتم بالقوم وأن تتحدث عن نكبتهم وأن ترهف السمع إلى تلك الأحداث، فدارت حول الفتى أحاديث فى سهرات بعلبك وفى بيت «مطران» لا تخلو من أسى وهول، فى بشاعة الإنسانية ومصائب الحروب.

ودرج الفتى فى هذه المدينة الصغيرة.. فلما زُحزح عن «بيروت» وكليتها ويمم باريس لقى الجمال كذلك فى كل زاوية وتنشق العطر عند كل شجرة، وتعلق وهو فى الثامنة عشرة بمنابع الأدب الغربى، يعب من الرومانسية السائرة، فيعشق «فينى» «وموسه» ويحفظ من شعرهما، ويسهر مع مسرحيات باريس فى قصص جميل.

وعلى هذا كله أصاب الفتى مرض العصر فى لبنان وهو الهجرة والرحلة، فوقف بين «شيلى» و«مصر»، ولكن مصر تغلبت أخيراً، فعاد إليها ليقضى فيها قرابة خمسين سنة، وفى برديه كآبة الماضى، ورحلة التاريخ، ونقوش الجمال ورومانسية الشعر. فقام فى نفسه أن يحدث حدثاً فى الأرض المضيفة، وعزم على أن ينقل الشعر الغربى والمسرح الغربى إلى مصر، ففكر فى أن يجعل الشعر العربى

الذى ينظمه على غرار ما حفظ وما سمع، وراح يعمل له فى فهم جديد وروح جديدة على جناحين من تصوير بارع وقصص فى الحب، فكان منه ديوانه الأول، الذى أصدره سنة ١٩٠٨ وعمره ست وثلاثون سنة، هو الذى يمثل شعره أصدق تمثيل.

ودرجت السنون وإزميل الفتى ينحتُ من قصص الحب معهودة ومروية، كأنه ترجمان القلوب وبستان الأحبة، يسيل دمعه حيناً فى فرح، وحيناً فى أسى، فهو يبثُّ شكوى المحبين، ويفضح أقاصيص المغرمين، ليخفى وراءها هواه وآلامه.

وعلى متن هذه القصائد الغرامية التى نسجها «مطران» ركب إلى ساح الشعر الغربى، فانتقل من ميدان المقطعة الغزلة أو مطالع النسيب التقليدية إلى قصائد جعلها برّمتها لهذا الغرض، وصف فيها الهوى فأصبح الشعر على يديه طامحاً إلى أن يجارى أدب القرن التاسع عشر فى فرنسا. وبذلك رسم مطران قصص الهوى فى نفوس غيره.

وقد وصفه عبد العزيز البشرى بأنه خفيف الظل عذب الروح حلو الحديث حاضر البديهة رائع النكتة. إذا كتب لك يوما أن تشهد مجلسه أخذك عن نفسك حتى ليخيل إليك انك فى بستان تقطعت جدأوله، وهتفت على أغصانه بلابله.

وقد وصف نفسه بقوله «هناك عوامل تجعلنى اجيد الشعر وهى أن أكون فى حالة من الشجن تجأوز الحزن أو أكون متعجلا مضطرا، أو أكون فى أَرَقٍ، أما الصفا والأنس والفرح والسير فى الرياض وعند الماء والشجر فيحدث فى نفسى حالات لا تواتينى على النظم، فأنا لا أجيد القصائد فى التهانى نفسها إلا وأنا حزين، وإنى أؤمن بأن لكل شاعر شيطانا لأنى أكاد أسمعه يهمس فى أذنى المعنى وأحيانا ينصرف فيغلق على، وأنا اقيد همساته، بيت اكتبه فى القهوة وآخر أكتبه وانا بالقطار وآخر وأنا أحادث الاصحاب وأكبر عوامل الإفساد للشعر أن يطلب منا الشعر».

الخنساء
تماضر بنت عمرو بن الحارث

٥٧٥ - ٦٦٤م

أشهر شاعرات العرب

هى تُماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد من بنى سُلَيْم، ينتهى نسبها إلى مُضَر، وتُكنى أم عمرو، وتلقب بالخنساء، ولقبها غلب على كنيتها.

فالشريد لقب لجدها.

وكلمة تماضر معناها البياض

أما كلمة الخنساء فصفة فى أنفها هى تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل فى الأرنبة وهى صفة مستحبة أكثر ما تكون فى الظباء وبقر الوحش.

خطبتها:

خطبها من أبيها دريد بن الصمة من قبيلة هوازن وسيد بنى جشم فردته قائلة لأبيها: (يا أبت أترانى تاركة بنى عمى مثل عوالى الرماح وناكحة شيخ بنى جشم).

والمرجع أنها تزوجت ابن عمها رواحة بن عبد العزى السلمى ولكنها اكتشفت حبه للمقامرة وكم شكت لأخيها صخر منه، فما كان منه إلا أنه شطر ماله شطرين وأعطاها خيارهما.

وهذا هو سر حزنها الدائم على صخر يرعاها ويفضلها على نفسه.

فأفردت له ديوانا من الشعر الحزين لم يشركه فيه أحد اللهم الا بضع قصائد فى معاوية أخيها.

وزوجها الثانى هو مرداس بن أبى عامر السلمى وكان يلقب بالفيض لسخائه.

ولدت منه ثلاثة أبناء (وقيل أربعة) وهم يزيد ومعأوية وعمر وبنت تسمى عمرة وقد اشترك هؤلاء الأولاد فى معركة القادسية.

وقد رثت زوجها مرداس بقصيدة طويلة مطلعها:

ولما رأيت البـــدر أظلم كـــاســـفـــا

ارن شـــــــواذ بـطـنـه وســـــــوائـلـه

رنينا ومـــــا يغنى الرنين وقـــــد أتى

بموتك من نحـــو القـــرية حـــامله

هذه القصيدة لا تدل على لوعة وحزن كقصائدها فى صخر فهى مجرد فخر به وتعداد لصفاته ولكن ليس مصدرها اللوعة والحزن.

ومن المرجح أن معأوية توفى قبل صخر ورثته رثاء مرا، ولكنها قد جأوزت الحد فى رثاء صخر لأنه كان الأمل الباقى لها بعد موت زوجها وأخيها صخر ضاعت بموته كل سعادة لها فى الحياة.

وصخر - وإن يكن أخاها غير الشقيق - هو الذى أكرمها بعد موت زوجها، ومن العجيب أنها رثت صخرا بما لم ترث به أولادها الذين استشهدوا جميعا فى الحرب وربما يرجع السبب ان المرأة العربية كانت تعتبر الاستشهاد فى الحرب من مفاخر قبيلتها فإن حزنت تكتم الحزن وتظهر التجلد.

فربما يكون شعور الخنساء بعد الإسلام أن أولادها استشهدوا ومن استشهد فله الجنة وهذا يعتبر عزاء لها.

فلقد كتبت الخنساء ٧٠ قصيدة فى رثاء أخويها وهو شئ لم يتوافر لشاعر أو شاعرة، والشاعر عادة يعبر عن حزنه على ميت فى قصيدة أو اثنتين ولكن الخنساء قضت حياتها راثية بكاءة.

ومع هذا التظاهر فى الحزن كما يقولون فللخنساء بعض الحق فى الاستغراق

فى حزنها على أخيها. وتسجيلها هذا الحزن شعرا وفنا.

فما الشاعر؟ أليس هو الإنسان الذى يصور شعوره ويسجل عواطفه بصدق وإخلاص فى لغة سليمة.

والخنساء كانت صادقة عندما ترجمت حياتها الحزينة المكلومة على أخوين كانا لها كل شئ فى حياتها، وخاصة صخر الذى وقف بجانبها فلم تشعر بجواره مرارة الأرملة التى مات عنها زوجها، وحتى فى حياة أزواجها حين تعرضت للحرمان المادى وهم ينفقون مالهم فى المقامرة.

الخنساء والرسول عليه الصلاة و السلام

يقال إنه لما بزغ فجر الإسلام وانتشر جاءت الخنساء مع قومها بنى سُلَيْم لتبايع الرسول فى السنة الثامنة للهجرة فطلب منها الرسول ان تنشده من شعرها فأنشدته وهو يستزيدها قائلا (هيه ياخناس) ويومئ بيده.

والرسول الكريم لم يوجه إليها لوما لاستغراقها فى الحزن برغم أن الإسلام يوصى بالصبر.

ولما قابلت السيدة عائشة رضى الله عنها الخنساء حزنت لما رأت الخنساء حليقة الشعر مرتدية الصدار من الشعر تدب على عصاة قالت لها.

يا خنساء (بصوت حان رقيق فيه جلال وعطف) أتلبسين الصدار وقد نهى عنه الإسلام، فأطرقت وأجمة قائلة. (لم أعلم بنهيه).

وظلت تحدثها وترد عليها الخنساء إلى أن قالت لها باكية مكلومة، قصتها مع أخيها وكيف كان بارا بها.

وتحسست الخنساء الحزينة صدارها ورفعت وجهها إلى أم المؤمنين قائلة:

والله لا أخلف ظنه أبداً ولا أكذب قوله ماحييت.

فإذا كان الإسلام قد نهى عن مثل هذا فرحمة الله واسعة.

وقد ظلت الخنساء حزينة لا ينتهى حزنها ولا تجف دموعها إلى أن شكاها

القـوم إلى أميـر المؤمنين عـمـر بن الخطاب وكانت قـد خـرجت إلى المدينة حـاجـة. وراحت تطوف فى صدارها الفاجع وزيها الجاهلى مقرحة الجفنين حليقة الشعر لا تكف عن نوح وبكاء فـأراد أمير المؤمنين أن يأخذها بالصبـر ويردها عمـا هى فيه ويقـول (إن الذى تصنعـين ليس من الإسـلام وأن الذين تبكين هلكوا فـى الجـاهليـة وهم حشو جهنم).

قالت ذلك أدعى لحزنى عليهم، ثم أنشدته بعض شعرها فى أخويها فتأثر وقال (دعوها فإنها لا تزال حزينة أبدا).

وكان النابغة يعجب بشعر الخنساء فيقول لها اذهبى فـأنت أشعـر من كل ذات ثديين، ولولا أن هذا الأعمى ويعنى الأعشى أنشدنى قبلك لفضلتك على شعراء هذا الموسم فأنت أشعر الإنس والجن.

شـاعرية الخنسـاء:

لا شك فى أن الخنساء شاعرة وشاعرة مجيدة. أجل هى لم تكتب غالبا إلا فى لون واحد وهو الرثاء الا أنها إجادته إجادة تامة، وماذا كان ينتظر من الخنساء أن تكتب وهى تترجم حياة حزينة باكية، إن الخنساء شاعرة صادقة والصدق يبدو فى مطولاتها فى الرثاء فى أخوين كانا لها كل شئ فى حياتها.



الخوارزمى

٧٨٠ - ٨٥٠م

واضع علم الجبر

من بخارى ما وراء النهر جاء الإمام البخارى، ومن سمرقند جاء العديد من العلماء، ومن واحة خوارزم جاء الخوارزمى أعظم علماء الرياضيات فى العصور الوسطى قاطبة.

والخوارزمى هو أبو عبد الله محمد بن موسى، من المرجح أنه ولد فى واحة خوارزم (خيوه) جنوب بحيرتها (أرال) لا ندرى عن حياته المبكرة شيئاً، ولا نوع التربية التى نالها، ولا هوية البيئة التى نشأ فيها، وكل ما نملكه أنه قدم إلى بغداد، إنما متى؟ لا نعرف، والتحق بخدمة الخليفة المأمون وانقطع إلى العمل فى «خزانة الحكمة»، فصار قيماً على محتوياتها.

وقد عهد إليه المأمون بعدة مهام عملية، منها جمع الكتب اليونانية وترجمتها، فبرع فى عمله، ونال شهرة كبيرة، فاستحق لقب استاذ، وهذا يعنى أنه أتقن اللغة الإغريقية، كما كلفه المأمون بمهمة علمية ذهب بها إلى سجستان (أفغانستان وحدود الهند) للبحث والتنقيب وأنه جاء بمحصلات كبيرة.

واهتم الخوارزمى بالعمل فى ميدان علوم الهيئة (الفلك) فحقق منجزات كبيرة ويتحدث عن هذا النديم فى فهرسه بقوله: «وهو من أصحاب علوم الهيئة، وكان الناس قبل الرصد وبعده يعولون على زيجيه الأول والثانى، ويعرف بالسِّنْد هِنْد، وله

من الكتب كتاب الزيج نسختين أولى وثانية، كتاب الرخامة، كتاب العمل بالاسطرلاب، كتاب عمل الاسطرلاب، كتاب التاريخ».

على أنه مهما علا شأن الخوارزمى فى ميدان علوم الهيئة، فإن دوره فى ميدان الرياضيات أكبر وأهم، ذلك أنه يعد مؤسس علم الجبر، بجعله مستقلاً عن علوم الحساب، ووضع مبادئه ومعادلاته حتى الدرجة الثانية، كما أنه هو الذى أوجد مصطلح «الجبر» وأطلقه على العلم الذى أسسه، وعنه أخذت معظم الحضارات العالمية ولغاتها هذا التعريف.

وتمكن الخوارزمى من حل معادلات الجبر بطرق هندسية، واتخذ الأحرف للدلالة على المعلوم والمجهول بدلاً عن الأرقام، كما استخرج الحل المستحيل لاستخراج المجهول، وأطلق على هذا النوع من المسائل، «المسائل المستحيلة».

وكفاه فخراً أنه ألف كتاباً فى الجبر - فى علم يُعَدُّ من أعظم أوضاع العقل البشرى، لما يتطلبه من دقة وإحكام فى القياس - ولهذا الكتاب قيمة تاريخية علمية، فعليه اعتمد علماء العرب فى دراساتهم عن الجبر، ومنه عرف الغربيون هذا العلم.

كان لهذا الكتاب شأن عظيم فى عالم الفكر والارتقاء الرياضى، ولا عجب، فهو الأساس الذى شيد عليه تقدم الجبر، ولا يخفى ما لهذا الفرع الجليل من أثر فى الحضارة، من ناحية الاختراع والاكتشاف اللذين يعتمدان على المعادلات والنظريات الرياضية.

كان «الخوارزمى» أول من ألَّف فى الجبر، وقد ورد فى «مقدمة ابن خلدون» ما يؤيد هذا، فقال عند الكلام عن الجبر والمقابلة: «.. وأول من كتب فى هذا الفن «أبو عبد الله الخوارزمى»، وبعده «أبو كامل شجاع بن أسلم» وجاء الناس على أثره فيه، وكتابه فى مسائله الست من أحسن الكتب الموضوعة فيه، وشرَحَهُ كثير من أهل الأندلس..»

وورد أيضاً فى مقدمة «كتاب الوصايا بالجبر والمقابلة لأبى كامل شجاع بن أسلم»، ما يشير إلى أن «الخوارزمى» أول من ألَّف فى طرق علم الجبر، وأن

«الخوارزمى» سبقه إلى ذلك، وورد أيضاً ما نصه: « .. فألفت كتاباً فى الجبر والمقابلة رسمت فيه بعض ما ذكره «محمد بن موسى الخوارزمى» فى كتابه، وبينت شرحه وأوضحت ما ترك إيضاحه وشرحه..».

وقد قدم «الخوارزمى» كتابه بتبيان الغاية التى من أجلها يضع العلماء كتبهم ومؤلفاتهم « .. ولم تزل العلماء فى الأزمنة الخالية والأمم الماضية يكتبون الكتب، مما يصنفون من صنوف العلم ووجوه الحكمة، نظراً لمن بعدهم واحتساباً للأجر بقدر الطاقة، ورجاء أن يلحقهم، من أجر ذلك وذخره، ويبقى لهم من لسان الصدق ما يصغر فى جنبه كثير مما كانوا يتكلفونه من المؤونة، ويحملونه على أنفسهم من المشقة فى كشف أسرار العلم وغامضه، إما رَجل سبق إلى ما لم يكن مستخرجاً قبلهُ فورثهُ من بعده، وإما رجل شرح مما أبقى الأولون ما كان مستغلقاً، فأوضح طريقه وسهل مسلكه وقرَّب مأخذه، وإما رجل وجد فى بعض الكتب خللاً فلمَّ شعثه وأقام أوده وأحسن الظنَّ بصاحبه، غير راد عليه ولا مفتخر بذلك من فعل نفسه..».

ولاهتمام الخوارزمى بعلوم الهيئة ونشاطه فى ميادينها، ينسب إليه ايجاد أول جدول «لوغارتم» لاستخراج ظل الدائرة وسواها، كما أدخل نظام ترتيب الأعداد، وتصنيفها إلى آحاد، عشرات، مئات.. وعنه أخذ العالم هذا النظام، ومن المرجح أن الخوارزمى قد اقتبس الأرقام عن الهنود أو الفرس، وعم هذا الاقتباس بعد تطويره فى العالم أجمع، وما زال قيد الاستخدام حتى الآن.

وللخوارزمى كتاب عن الحساب، قيل بأنه هو أول كتاب عربى ترجم إلى اللغة اللاتينية ودخل إلى أوروبا، ولكتابه الخالد «الجبر والمقابلة» شأن ليس فوقه شأن، وصدى واسع وتأثير علمى عريض وعميق، فجميع الذين جاؤوا من بعده وعملوا فى ميادين الرياضيات كانوا عيالاً على الخوارزمى وعلى كتابه هذا، مما أكسب الخوارزمى شهرة ذات ديمومة واتساع لا مثيل له.

وقد ترجم كتاب «الجبر والمقابلة» إلى اللاتينية فى منتصف القرن الثانى عشر ميلادى، ودرست ترجمته فى جامعات ومعاهد أوربا للعصور الوسطى، وحديثاً لقى نفس العناية بأن ترجم إلى الانجليزية ودرس بها.

طبق الخوارزمى علم الجبر فى عدد من المجالات، منها فرضيات ترتبط بقضايا المواريث، هذا وصنف الخوارزمى فى الرياضيات كتاباً آخر هو «الجمع والتفريق لحساب الهند» وشرح فى هذا الكتاب النظام العشرى، معتمداً على الأرقام الهندوسية، وتم التعرف إلى هذا عن طريق بقاء ترجمة للكتاب باللاتينية.

وكما سلفت الإشارة. فالخوارزمى عالم مبرز فى مجالات الفلك، قام بترجمة كتاب «المجسطى» لبطليموس كما عمل فى كتاب «السندهند» ومعناه «الدهر الداهر» وهو كتاب فى الفلك الهندى، ترجم فى عصر المأمون وحظى بمكانة جليلة فى المكتبة العربية، ومع هذا الإسهام صنع الجدأول الفلكية وصنف كتاب الرخامة فى الفلك، وكتاب حول العمل فى الإسطرلاب.

وفى عصر المأمون شارك الخوارزمى فى قياس محيط الأرض، كما أجرى تعديلات وتحسينات كبيرة على جغرافية بطليموس، وشارك تسعة وثلاثين عالماً آخرين من معاصريه فى وضع موسوعة جغرافية للخليفة المأمون كما وضع كتاب «صورة الأرض من المدن والجبال» وكتاب «وصف أفريقية» ولعله قطعة من كتاب «رسم المعمور من البلاد» له.

وذكر النديم للخوارزمى كتاباً فى التاريخ، نقل عنه حمزه الأصفهانى فى كتابه «تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء عليهم السلام»، وللمكانة التى حظى بها الخوارزمى ولدوره المؤثر والفعال أطلق سارتون مؤرخ العلم على النصف الأول من القرن التاسع اسم عصر الخوارزمى، ولا عجب فى هذا فالعلماء هم الذين يطبعون الدهر بطابعهم، وهم ورثة الأنبياء جعلهم الله جل وعلا فى المرتبة الثالثة فى المعرفة والشهادة حين قال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ **(آل عمران: ١٨).**

الرافعى، عبد الرحمن

١٨٨٩ - ١٩٦٦م

مؤرخ الحركة الوطنية المصرية

المؤرخ الجرىء. الذى غلب عليه الحياء فلم يذهب به مذهب الإعلان عن نفسه سنوات وسنوات فظل يعمل صامتاً أكثر من ثلاثين عاما قدم خلالها تاريخاً كاملا لمصر فى أكثر من ٢٠ مجلداً لا يمكن لكاتب أن يعرض لمسألة من مسائل هذا التاريخ دون أن يجد فيه مرجعه.

وقد بذل الرافعى فى سبيل تحرير هذا التاريخ من الجهد والوقت زهرة شبابه فعد بحق «جبرتى» القرن العشرين. وفى سبيل كتابة هذا التاريخ ضحى الرافعى بكل شىء فلم يطمع فى معونة أحد. أو يتطلع إلى أية غاية. واستطاع بفضل الجرأة النفسية أن يكتب تاريخ إسماعيل فى عهد فؤاد. وتاريخ فؤاد فى أيام فاروق وأن يواجه أخطاءهما مواجهة صريحة ولعله المؤرخ الأول الذى كشف عن حقيقة دور سعد زغلول بعد أن كان فى نظر الكثيرين قديسا وبطلا كبيراً. كما صور بطولة عرابى فى وقت ما كان أحدا يجرؤ على وصفة بالبطولة ولم ينس فى نفس الوقت أن يحصى عليه أخطاءه وهو فى عرضه للشخصيات والأحداث فى خلال هذه الفترة الطويلة من تاريخ مصر كان غاية الإنصاف والسداد على نحو قومى مجرد من أى نزعة تهدف إلى إنصاف الحزب الوطنى الذى هو عضو فيه.

نشأ فى بيئة الدين. فلما شب اتصل ببيئة مصطفى كامل وبدأ يجرب خطواته فى التحرير والكتابة وشارك فى الحركة الوطنية واعتقل. ودعا إلى التعاون وساهم فى إنشاء النقابات.

ثم اشترك فى الحياة النيابية. فكان معارضا نزيها وكسب سمعة طيبة جعلت مكتب المحاماه زاخراً مما كان له أحسن الأثر فى تفرغه لكتابة تاريخ مصر القومى ثم اختير وزيرا لفترة قصيرة. وفى سنوات ما بعد ثورة ١٩٥٢ اختير نقيبا للمحامين.

وفى بيئة كلية الحقوق بعد أن رفض رغبة والده فى إدخاله الأزهر - تتلمذ على مصطفى كامل. وأحب «اللواء» واعتبره المدرسة التى تلقى عليها مبادئ الوطنية. والتقى عبد الرحمن الرافعى بمصطفى كامل لأول مرة فى فبراير ١٩٠٦ وشعر بتأثيره الروحى ينفذ إلى أعماق قلبه. «وصار بمثابة الابن الروحى» ثم اتصل بمحمد فريد وعمل «تحت لوائه سنين عديدة» ولم يلبث أن بدأ يجرب خطواته الأولى فى عالم الصحافة فنشر أول مقالة له فى الصحف عام ١٩٠٨ بعنوان «تبدد الشعور الوطنى وتجمعه» وفى الوقت الذى تخرج فيه ليعمل محاميا كان يعمل بالصحافة محرراً باللواء مع محمد فريد.

كما كتب عن «آمالنا فى الدستور» ورد على تقرير السير الدون غورست المعتمد البريطانى. ثم رأى أن يشتغل بالمحاماة على أن يكتب فى الصحف ما يشاء دون أن ينقطع لها. وقال إنه أدرك مع الزمن أن هذا الاتجاه أسدى له أعظم خدمة.

ثم سافر مع فريد إلى أوروبا سنة ١٩١١ وكان لمصاحبته أثر كبير فى نفسه مما زاد الصلة الروحية بينهما. وقد كتب ملاحظاته وخواطره فى السفر.

وكتب عن التعأون عام ١٩١٤ وساهم فى تأليف بعض النقابات الزراعية وعندما اندلعت ثورة ١٩١٩ كان محاميا فى المنصورة وقد اشترك فيها مما أدى إلى اعتقاله (١٩١٥ - ١٩١٦).

وبعد الثورة اشترك فى الحياة النيابية. وكانت له فيها مواقف قوية واضحة فقد كان أول نائب واجه سعد زغلول بالنقد الشريف. وقد قاد المعارضة دائما واحتمل فى سبيل ذلك متاعب كثيرة.

وقد صور الرافعى اتجاهه إلى كتابة التاريخ القومى فقال:

فكرت منذ عدة سنين سبقت عام ١٩٢٦ أن أضع تاريخا للزعيم مصطفى كامل باعتباره أنه باعث الحركة الوطنية الحديثة. ولكنى رأيت أن تاريخ مصطفى كامل يستتبع

الكلام فى ظهور الحركة القومية والتطورات التى تعاقبت عليها فأخذت أدرس الأدوار التى تقدمت عصر مصطفى كامل لأقف عند حد يصح اعتباره مبدأ الحركة القومية..».

وانتهى إلى أن أول دور من أدوار هذه الحركة هو عصر المقاومة الأهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر. وكان قد بدأ عام ١٩١٤ يدون مذكرات عن حوادث مصر المعاصرة تكون مادة لى عندما أؤرخ الحركة القومية. وقد اقتضى منه هذا العمل التفرغ له تفرغا شاملا نظراً لأن تاريخ هذه الحركة يكتنفه كثير من الغموض.

واعترف الرافعى بأن كتبه لم تقابل فى السنين الأولى مقابلة حسنة - لولا ما وهبه الله من الصبر والاحتمال. وبالرغم من الجهد فإن هذه الكتب لم تلق الإقبال ولا أقول الرواج الذى كان ينتظره.

ولم يبدأ الإقبال على كتبه إلا عام ١٩٤٣ أى بعد سبعة عشر عاما ولا يستطيع كاتب تناول الحركة الوطنية فى مصر منذ ثلاثين عاما أن ينكر فضل كتب عبد الرحمن الرافعى.

وقد تحدث عبد الرحمن الرافعى عن حياته وشخصيته فقال «إن عدم خبرتى قد اقترن به عيب ركب فى طبعى ولم أستطع علاجه أو التغلب عليه وهو «الحياء» وأنا أعرف جيدا أن الحياء ضعف فى الإنسان وعقبة كبيرة فى سبيل تكوين الثروة. ولكنى أعترف بأنى لم أوفق فى علاج هذا الضعف لدرجة أننى اقتنعت بأنه من العناصر الأصيلة فى تكوينى.

وقد سعيت فى ألا ينقلب الحياء عندى إلى ضعف فى الإرادة وهذا ما نجحت فيه. وقد اقتضى منى هذا السعى مجهوداً باطنياً كبيراً حتى اطمأننت إلى عدم طغيان الحياء على الإرادة..»

ويقول: «من أخطائى فى الحياة أننى أحسن الظن بالناس أكثر مما يجب وأن راحة النفس هدف جوهرى فى الحياة. وحسن الظن بالحوادث مرادف للتفاؤل..».

وبعد فالرافعى رجل فيه إيمان وعناد وصمود لما يعلم أنه الحق ولقد أداه إيمانه هذا أن يقف فى المحيط السياسى المضطرب خلال الحياة الحزبية الماضية معارضا لا يلين. لا يغريه العطاء ولا يخيفه الوعيد وقد كتب له التاريخ صفحة الشرف..

الرافعى، مصطفى صادق

١٨٨٠ - ١٩٣٧م

الكاتب العربى ذو البيان الناصع

إذا كان لشخصية كل كاتب مفتاح، ولكل أديب عقدة تتمثل فيها حياته الفكرية فى ذروتها وقوتها. فإن ذروة أدب الرافعى ومفتاح شخصيته وعقدة حياته الفكرية والأدبية. شىء واحد هو «الحب».

فكرة واحدة، أو حب واحد قام فى حياته فلونها كلها وأحالها إلى دنيا كاملة ممتدة فى أدبه وكتاباته وفنونه.

وأصدق ما يقال عن «الرافعى» أن نفسه ممثلة فى أدبه، وان ملامحه الروحية واضحة فى آثاره وأن حياته مرسومة فى فنه، ببساطتها وتعقيدها ومرونتها والتوائها، فهو يعيش فى أفكاره وأحلامه ورؤياه، ويبدو من وراء معانيه قاتما، يعرف حين يغضب وحين يرضى.

وليس الدفاع عن الدين واللغة فى ذاته إلا جزءا من كيان هذه الشخصية وجانبا من التعبير عن النفس فيها.

ليس للرافعى تاريخ إلا قصة حبه، فقد بدأ حياته شاعرا ثم تحول إلى النثر وكاد أن يقصره على «فلسفة الحب والجمال» يصور به عواطفه ويرسم مشاعره، بل إننا لنذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إنه فى سبيل الحب، أقام خصوماته الأدبية، ولأجله أنشأ المعركة بين القديم والحديث فحمل لواءها وكان بطلها، وكان عنيدا فى صراعه وفى خصومته.

ويبدو هذا الصراع قويا حين يتصل بشخصين، هما طه حسين والعقاد ثم يتبلور الرافعى فى صورته النهائية القوية، حين يتصل بالرسالة ويكتب فصوله «وحى القلم».

وللرافعى أسلوب يدل عليه ولو اختفى اسمه، وهو ما لم يتوافر لكثيرين، ويتميز هذا الأسلوب بالعمق والغموض.

وقد تأتى له هذا الأسلوب البليغ العميق الغامض، من بيئة العلم والفقه والدين التى نشأ فيها حين تفتحت حياته على كتب الأدب القديم، إذ أتاحت له آفته أن يعتكف، فقرأ فنون البلاغة واللغة والفقه.. فانقادت له حتى استطاع ان يصأول أقطابها، وإذا به يرى مدافعا عن القديم، وهو الذى تعلم فى مدارس الفرير، على حين وقف بعض الأزهريين فى صفوف المجددين.

كان الرافعى يحس بالنقص الطبيعى فى سمعه فكان يعوض ذلك بالتبريز فى ميدان الحياة بالحب وفى ميدان الأدب بالصراع.

وللرافعى فلسفة فى الحياة، تحمل طابع التشاؤم كأنما ينظر صاحبها إلى الحياة بمنظار أسود.

«ما أتينا إلى هذه الدنيا إلا ليمثل كل منا فصلا من معانى الشقاء فى تلك الثياب التى هى ملك لصاحب المسرح لا نخلعها ونلبسها، بل يخلعها بعضنا ليلبسها بعضنا الآخر والرواية موضوعة تامة قبل تمثيلها، وضعها ذلك القلم الأعلى.

والمشكلة الإنسانية الكبرى أن كل إنسان يريد أن يكون بطل الرواية وممثلها البكر. والقوم والقدر والموت كالشىء الواحد».

هذه الفلسفة منبعثة من إحساس بالحرمان من الحب، ومن ألم صادع مصدره ذلك الشقاء الذى ظل الرافعى يحمله فى أعماقه طوال حياته.

وأنشأ الرافعى «رسائل الأحزان» فى وقدة الحب وغمرته. ثم أنشأ «أوراق الورد» بعد أن تحول الحب إلى حزن مقيم فى أعماق النفس، وكان حسبه من هذه الكتب أن تقرأها صاحبته. ولعل من آثار هذا الحب، هذه المعركة الضخمة التى اندلعت بينه وبين العقاد، وامتدت آثارها إلى المدرسة الحديثة.

عاش الرافعى حياته للحب، كانت «مى» هى المنار القوى السامق الذى يبدو له من كل مكان، وهو بين عواصف البحر ولججه.. ورأى فى وجهها من النور والصفاء ما جعلها بين عينيه وبين تلك المعانى السامية كمرآة المرصد السمأوى فكل ما فى

رسائله من البيان والإشراق هو نفسها.. وكل ما فيها من ظلمات الحزن هو نفسه.

والرافعى إلى هذا رجل مستقيم الفكر يفرق بين الفن والدين، فهو إذا تحدث عن الأدب أو الفكر قال إنه يكون رجلا قد طغت فيه الحياة طغيانها الشديد المجتاح، ثم يكون الفن طاغيا فيه طغيانه الخيالى العنيف المتمرد، وهذا لا يصلح زوجا ولا تصلح الزوجة له، فإنه إنما يريد المرأة المغلة كأنها ضيعة من الفن الحى، تغل عليه من ثمراتها، وقد أبى الشيطان لعنه الله إلا أن تكون المرأة المغلة فى الفن امرأة محرمة.. ومتى كان الشيطان فى الأمر استطاع أن يجعل لكل امرأة فنا على حدة.. ومن هنا فسوق الكتاب والكثرة من العباقرة. وهذا سر تعزيهم وانصرافهم عن الزواج أو انصراف الأزواج عنهم وهؤلاء بركة على الفن ولكنهم بلاء على الدين وعلى الفضيلة. ومن سخرية الحياة فيهم أن يكون العبقرى فيهم هو من ناحية أخرى الحيوان العظيم.

فإذا أردنا أن نرسم شخصية الرافعى على ضوء هذه الصورة وغيرها من صور حياته وجدناه مثلا لعزة النفس وكبريائها.. وقد عاش طوال حياته فى حدود دخله الضيق، ولم يفد من الإنتاج الأدبى فائدة تذكر. فقد كان أدبه من ذلك النوع الذى لا يؤدى إلى الثراء.

بل لعل إنشاء هذا الأدب الجديد الذى كتبه فى الرسالة إنما جاء نتيجة للاضطرار حين أراد أن ينفق على ابنه فى بعثته فى الخارج.

ولم يسافر الرافعى إلى خارج مصر، وانما عرف بحبه للانتقال بين المدن المصرية وكان يجد فى الانتقال لذة، يغذى به عاطفته ويمد أدبه.

وهو يؤمن برسالته الأدبية «.. القبلة التى اتجه إليها فى الأدب إنما هى النفس الشرقية فى دينها وفضائلها، فلا أكتب إلا ما يبعثها حبه ويزيد من حياتها وسمو غايتها ويمكن لفضائلها وخصائصها فى الحياة، ولذا لا أمس من الآداب إلا نواحيها العليا ثم انه يخيل إلى دائما: أنى رسول لغوى للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه».

وليس من شك أن الرافعى كان مخلصا لأمانته وفنه، فقد كان يسكب روحه على الورق، ويصدر عن نفس مؤمنة، عميقة الإيمان والاقتناع.

وغاية القول فى «الرافعى» أنه كان على رأس مدرسة جديدة لاشك فى جدتها وقوتها. فى إنشاء هذا اللون الوجدانى، وجديدة فى صراحتها وجرأتها فى النقد.

رامى، أحمد

١٨٩٢ - ١٩٨١م

شاعر الشباب

الرجل النحيل الرقيق. الحلو العبارة. النقى النفس. الشفاف الذى تحس من شعره وعباراته وحديثه أنه لحن من الصفاء والرواء. قال الشعر خالصا للفن. ثم تحول به إلى الغناء. وتأثر بعمر بن الخيام. وصنع به الحزن والحرمان ما صنع. فخلق لنفسه ذلك الطابع الفريد الخالد. تفتحت عيناه على صور الجمال فى طاشبور بإليونان حيث ولد هناك وشب بين البحر والشاطىء ومروج النرجس. فشارك هوميروس وفرجيل فى أرض المولد ثم عاد إلى القاهرة صبيا وقد تعلم التركية والرومية.

وفى مصر عاش عمرا فى حى الحنفى. فى بيت يطل على المسجد. ويسمع منه فى السحر أذان الفجر. ويختلط بالمتصوفة يردد أورادهم.

أضف لهذه العوامل أن أول كتاب قرأه هو مسامرة الحبيب فى الغزل والنسيب وقد وصفه بأنه كان بعيد الأثر فى تحديد اتجاهه.

وقد اتصل فى بدء حياته الأدبية عام ١٩١٠ بشعراء جيله: شوقى وحافظ ونسيم كما عرف لطفى جمعة وإمام العبد وأعجب صادق عنبر بالشاعر الصغير.

وبعد أن أصدر ديوانه الأول عام ١٩١٨ سافر إلى باريس فى بعثة لدراسة اللغات الشرقية وفن المكتبات عام ١٩٢٣ حيث تلقى فى السربون اللغة الفارسية

وأصدر ديوانه الثانى والثالث عام ١٩٢٥.

وفيما بين جزيرة طاشبور ومسجد الحنفى وباريس تكونت شخصية أحمد رامى الشاعر الفنان.

وعندما عاد إلى مصر بدأ حياته الأدبية: عرف أم كلثوم فتحول من الشعر المنظوم إلى الشعر الغنائى. وترجم من مسرحيات شكسبير للمسرح «هملت ويوليوس قيصر والعاصفة» وأمضى زهرة شبابه فى دار الكتب. أمضى ثلاثين عاما موظفا و١٩ عاما فى الدرجة الخامسة!!.

وتعد أم كلثوم حدث الأحداث فى حياة رامى. حولت طريقه. فقد استمع إليها فى إليوم الثالث لعودته من باريس وكانت تغنى قصيدة له هى «الصب تفضحه عيونه» وكان ذلك عام ١٩٢٥ ويرجع إليها الأثر فى قهر شعر الوجدان والعاطفة ليكون شعراً غنائيا.

وقد تأثر فى مطلع حياته بآثار أعطت فنه ذلك الروح الحزين المحروم المتلهف الملىء بالأنين والدموع. حرم عطف أبيه حيا. إذ كان مسافراً دائماً. وغائبا أبداً. فقد كان أبوه طبيبا بالسودان وأمه تعيش مع والده أما هو فقد كان يعيش مع جده وعمه.

ثم كان موت شقيقه عاملا من عوامل حزنه فقد دفعته إلى حب شعر عمر الخيام وترجمته.. إذ كان الخيام يعطيه منحة العزاء والسلوى.. ولعل هذه الأحداث قد أفاقت فى نفسه روح التصوف التى امتزجت بالعاطفة فتفاعلا تفاعلا صنع منه هذا الفن الشعرى الذى عرف به.

وقد صاحب الخيام رامى خلال إقامته فى باريس. كما اندفع إلى قراءات أخرى حببت إليه الإيغال فى الخَيَّام والأسطورة منها ألف ليلة. وجلستان والسعدى وشاهنامة الفردوسى. وتاريخ سلاطين خوارزم..

وقد أحب رامى من شعراء الغرب بيرون وشيلى وكيتس وشكسبير وقد أطلق عليه شاعر الشباب.

وهو يرى أن ألذ لحظات الحب هى الحرمان.. ويعزو سر احتفاظه بالشباب إلى الشعر والحب... وهو يكتب شعره أحيانا وهو يبكى ومن أبرز هواياته

القراءة والموسيقى.

ويصف الحب بأنه: «يرقق العاطفة. ويرهف الحساسية ويعلم التضحية ونكران الذات ويسمو بالأرواح. وإنما أعنى الحب الشريف العفيف».

ورأيه فى الشعر أنه صفاء الروح والوجدان. وهو يتساءل «أين شعر الغزل الذى ينبع من الحرمان بعد أن انتهى عصر الحب البرىء الصادق الذى يوحى ويلهم فقد كنا فيما مضى نحب للحب حيث يرى الشاعر فتاة من النافذة ويظل يحبها سنوات طوالا وينظم فيها الشعر دون أن يعرف اسمها أو يسعى للقائها».

ويرى «أن الشاعر الحق هو الذى ينقل إحساسه إلى الناس وتكون له شخصيته المستقلة التى ينفرد بها دون غيره من الشعراء».

وقد عاش أحمد رامى يعمل من أجل الشعر الغنائى مما دفع به إلى الارتقاء عما كان عليه أثناء الحرب العالمية الأولى كما بعث فن الأوبريت بنظم رواية «غرام الشعراء» وكتب فى الوصف والغزل، ودرس اللغة الفارسية خصيصا ليترجم «رباعيات الخيام» ويقول: «إنه عاش أربعين عاما فى درس ومطالعة لعيون الشعر العالمى دون أن أسطو على معنى واحد أو أنقل بيتا من غيرى..».

وقد وصفت أم كلثوم رامى بقولها «رامى يدين فى حياته بالجمال. ومن أخص صفاته الوداعة والابتسام على الدوام والوفاء لذات الوفاء. ثم هو محدث ظريف لا يخلو مجلسه من نكته طريفة..».



رشيد رضا

١٨٦٥ - ١٩٣٥م

رجل الإصلاح وصاحب «المنار»

يعد السيد رشيد رضا واحداً من كتاب الموسوعات الدورية الأربع التى عرفتها الصحافة العربية فى أوائل هذا القرن: وهم الدكتور يعقوب صروف (المقتطف) جرجى زيدان (الهلال) الأب لويس شيخو إليسوعى (المشرق) السيد رشيد رضا «المنار» وقد قامت هذه الموسوعات الدورية بالجهد الفردى سنوات طويلة وصمدت فى وجه الزمن واستطاعت أن تحقق نجاحاً كبيراً وأن تترك أثراً ضخماً فى مجال الفكر العربى كله.

ومن عجب أن ثلاثاً من هذه الموسوعات صدرت فى مصر وأن أصحابها الأربعة كانوا من كتاب الشام وأصحاب الأقلام فيه الذين هاجروا إلى مصر وكان لهم فى تطور الصحافة العربية فى مصر أثر كبير، وقد تميز السيد رشيد رضا ومناره بالعمل فى الحقل الإسلامى والإصلاح الدينى ومعالجة قضايا العروبة وتحرير الأوطان العربية والإسلامية من النفوذ الاستعمارى. واستطاع أن يرتبط بتيار ضخم له وجوده وتفاعله منذ قدم جمال الدين الأفغانى إلى مصر ١٨٧١ فأقام بها ثمانى سنوات وترك فيها مدرسة فكرية تعمل فى مجالين متكاملين: تحرير العقيدة الإسلامية من الشوائب، وتحرير الأوطان الإسلامية من النفوذ الاستعمارى. وقد ترك جمال الدين فى مصر الشيخ محمد عبده، امتداداً له، ثم أتيح لهما بعد انتهاء الثورة العرابية أن يلتقيا فى باريس فيصدرا صحيفة «العروة الوثقى» عام ١٨٨٤، ثم

يفترقا مرة أخرى حيث يذهب الأفغانى إلى استانبول ويعود محمد عبده إلى مصر بعد أن يطوف بالشام، وفى ظلال هذه الأحداث كان رشيد رضا المولود فى القلمون من طرابلس الشام عام ١٨٦٥ يتأهب ليستقبل دوره ليكون ثالث حبات هذا العقد، واليًا للأفغانى، ولساناً للشيخ محمد عبده. ومنشئاً لمدرسة «المنار» التى امتدت بعده ثلاثين عاماً.

كان مفهوم اليقظة هو أن تتطلع الأمة العربية آنذاك إلى مجدها، وأن تنظر إلى الإسلام نظرة مجددة، متحررة، متخلصة من ركام الأهواء والبدع والقشور التى غطت مفهومة، وأبعدته عن الاستجابة للحياة والحضارة والتطور ولذلك فإن الدعوة إلى «التوحيد» التى انبعثت إذ ذاك إنما كانت تهدف إعطاء العقيدة الإسلامية مفهومها الأصيل، وكانت فى الوقت نفسه دعوة إلى تحرير النفس العربية من نفوذ أى سلطان أو سيطرة سياسية، وقد تبلورت هذه المعانى فى كلمات جمال الدين الأفغانى، ومسامراته ومحأوراته المفتوحة، فى قهوة متاتيا بالقاهرة كل مساء مع صفوة من شباب مصر والعرب.

كما تبلورت هذه الأفكار فى جريدة «العروة الوثقى» «باريس - ١٨٨٤» هذه الصحيفة التى حاربها النفوذ البريطانى وحال دون دخولها الهند ومصر كما حيل دون دخولها الشام، لذلك توقفت بعد أن أصدرت ثمانية عشر عدداً.

كانت جريدة العروة الوثقى صيحة إسلامية عربية، سياسية اجتماعية دينية يتمثل فيها مفهوم الدعوة الإسلامية على النحو الأصيل: مفهوم الشمول والتكامل فى مختلف مجالات الفكر والحياة، وكانت أشبه بالقانون أو الميثاق، الذى حفظه رشيد رضا عن ظهر قلب بعد أن جمعه ودرسه وراجعه، حتى ليمكن القول، بأن «المنار» فى خلال «٣٦ مجلداً» صدرت منذ ١٨٩٨، إلى ١٩٣٥، تكاد تكون هى التفسير والتطبيق لنصوص ميثاق العروة الوثقى.

وعن عجب أن تعطى الدعوات والحركات الإصلاحية رجالا فى مثل قوة وإدارة رشيد رضا وسلامة أعصابه واتصال عمره وجهده، بالإضافة إلى براعة أسلوبه وسلامة بيانه وقدرته الخارقة على التحرير والكتابة والمراجعة والتصحيح، حتى كان

ينشئ عدد المنار كله بقلمه وحده وقلما استعان في خلال هذه السنوات للتحرير معه إلا بقلة قليلة.

فإذا أضفنا إلى هذا أنه كان منوع الإنتاج فى السياسة والاجتماع والدين، وأنه كان يكتب فى الصحف إليومية «الأهرام، والمقطم» فى مختلف القضايا الفكرية والعربية التى تثار وأنه وإلى ذلك كله، لم يتوقف، عجبنا فعلا لشخصية رشيد رضا.

ولعل أبرز ما يتسم به الشيخ رشيد رضا ويختلف به عن كثير من العلماء المصريين هو:

أولا: «النظرة الكلية» والقدرة على الارتفاع فوق تفاصيل الأحداث والأمور إليومية والمسائل العابرة والتطلع إلى أفق أكثر اتساعاً، وأنه كان يلتمس مثل مكانة جمال الدين، ومحمد عبده، وكان لهذا الطموح لا يجعل للأمور المادية حظا فى نظره، ولا للمتاعب حسابا فى حياته.

ثانيا: أنه درس على نفسه وعلى أساتذة اختارهم ورضى عنهم وفى مقدمتهم علامة عصره: الشيخ حسين الجسر، وعبد الغنى الرافعى، وهى تجربة كانت بعيدة الأثر فى تكوين «رشيد رضا» حتى أنه كان يختلف اختلافا كبيراً وواضحاً من حيث الاتجاه والنوعية عن علماء الأزهر فى ذلك الوقت.

ويقول: ان من أعظم ما استفدته من شيخنا الجسر هو حاجة علماء الدين إلى معرفة علوم العصر وعدم إمكان الدفاع عن عقائد الإسلام وشريعته بدون ذلك.

ومن هنا استطاع رشيد رضا أن يتصور مفهوم «العلم الصحيح: «بأنه ما كان صفة للنفس، والعلم النافع ما كان باعثا على العمل الصالح والعمل الصالح هو ما أصلحت به نفس العامل، وكانت قدوة حسنة لكل من عرفها».

وقد نبتت عنده نتيجة لذلك كله، القدرة على «نقد النص»، وتوثيقه، وتقييمه، قبل الاعتقاد به.

ومن هنا فهو يدعو إلى نبذ «التقليد» والأخذ بالاجتهاد.

وهكذا تبدو مفاهيم «رشيد رضا» فى أوائل القرن الماضى غاية فى السلامة

والتجدد والحيوية المستمدة من مفهومه للإسلام نفسه. وقد صور أستاذه حسين الجسر بأنه صاحب «أسلوب خاص فى التعليم غير أسلوب الأزهر يتحرى فيه السهولة فى البيان ويتجنب المناقشات اللفظية واستطرادات الحواشى، فلم يكن يذكر منها إلا ما لا يتم تحرير المسألة العلمية بدونه».

ثالثاً: تفتح نفسه للحياة والحضارة، فهو قارئ ومستفيد بكل الثقافات الغربية، متصل بكل أصحاب الآراء والأفكار على نحو من التسامح والتطلع ومعرفة الجوانب المتعددة للحياة، وهو طلعة طموح، لم يترك فى عصره من أهل العلم قوما دون أن يتصل بهم، فقد قصد قبل أن يرد القاهرة بيروت وجال بها جولة واسعة. ثم هو لا يكف عن الرحلة، فيسافر إلى أوروبا، ويسافر إلى الحجاز، ويسافر إلى الهند ثم يسافر إلى سوريا مرات، وهو فى كل رحلاته يقرأ ويكتب ويسجل مشاعره.

وهو يذكر فضل تعلم اللغات الأجنبية ويقول: «إن الإنسان لا يعرف قدر معرفة اللغات الأجنبية كما يجب إلا إذا سافر إلى بلاد لا يعرف لغات أهلها، فإن معرفته بذلك فى بلاده بين قومه لا تعدو النظريات الفكرية وشهوة التكمل والتوسع فى العلم، فإذا سافر وصار بين قوم لا يعرف لغتهم شعر بنقص الجهل بتلك اللغة».

رابعاً: «مفهومه للإسلام» كان مفهومه للإسلام بسيطا سمحا يصوره فى عبارات دقيقة حيث يقول:

«على المسلمين أن يعلموا أن قيمة الدين ليست فى أسراره الروحية أو قواه الخافية، ولكنها تكمن فى الحقيقة التى يعلمها للإنسانية، وهى أن سعادة المرء فى هذه الحياة والحياة الأخرى تتوقف على معرفة سنن الله التى تضبط رقى البشر، أفراداً وجماعات، ويجب على المسلمين أن يدرسوا هذه السنن، وأن يسيروا عليها فى يقين وإيمان، وأن يعلموا أن الله لا يمنع خيرات العالم عن أولئك الذين يطلبونها بالطرق الصحيحة سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين».

وقد طلع نتيجة لقراءاته واتصالاته بأعلام هذا العصر: جمال الدين، وحسين الجسر، ومحمد عبده، برأى هو: أن علة العلل فى حياة المسلمين ان الإسلام قد ابتعد عن بساطته الأولى، وأن العلاج هو تحرير العقيدة والعودة إلى الوحدة

الفكرية والاجتماعية.

وقد صور رشيد رضا النتائج التى وصل إليها فى مفاهيمه للإسلام بعد أن استوعب «العروة الوثقى» يقول: «أكبر أثرها عندى أنها هى التى وجهت نفسى للسعى فى الإصلاح الإسلامى العام فقد هدتنى العروة الوثقى إلى مناشئ وعلل الفساد الذى فعل فى العقائد والأخلاق ما فعل والذى دفع المسلمين إلى مزالق الزلل».

وقال إن العروة الوثقى نقلته إلى «طريق جديد فى فهم الإسلام»: وهو أنه - أى الإسلام - ليس روحانياً أخرويا فقط، بل هو دين روحانى جسمانى. أخروى دنيوى، من مقاصده هداية الإنسان إلى السيادة فى الأرض بالحق، ليكون خليفة الله فى تقرير المحبة والعدل، وأحدث لى هذا الفهم الجديد فى الإسلام رأيا فوق الذى كنت أراه فى إرشاد المسلمين، فقد كان همى قبل ذلك محصورا فى تصحيح عقائد المسلمين ونهيهم عن المحرمات وحثهم على الطاعات وتزهيدهم فى الدنيا، فتعلقت نفسى بعد ذلك بوجوب إرشاد المسلمين عامة إلى المدنية والمحافظة على ملكهم ومباراة الأمم العزيزة فى العلوم والفنون والصناعات وجميع مقومات الحياة».



زارادشت

٦٢٨ - ٥٥١ ق.م

نبى الفرس الذى جاءهم بالحكمة

للفرس أدب دينى عماده «زرادشت» وديانته. وبيان ذلك أن الفرس القدماء كانوا يعبدون الأوثان حتى ظهر فيهم من اعتبروه نبيهم «زرادشت» فجاءهم بالدين والحكمة ولسنا ندرى على وجه الدقة أين زرادشت من عصور التاريخ. فالمؤرخون يختلفون فى وضعه بين القرن العاشر قبل الميلاد والقرن الخامس.

واسم «زارادشت» هو الترجمة الاغريقية لـ «زاراثوسترا» وقد ولد «زارادشت» فى بلاد فارس ومن العسير تماما أن نستوضح من «النصوص البهلوية» التفاصيل الصحيحة لمولده، نظرا لأن الحديث عادة ما يسير على شاكلة نوع من الحديث المقدس. إننا نستخلص أن بعض الأحداث التى أعقبت ميلاد «زارادشت» تعد شيئا، بالقياس إلى المحن والمغامرات التى أحدقت طفولته: لقد حأولت الشياطين والأرواح الشريرة بكافة الوسائل أن تحطمه. لقد حأولت أن تخنقه بأن لجأت إلى مربية. لتتولى هذه المهمة نيابة عنهم بأن ترميه تحت خيول راكضة أو تحرقه حتى الموت بأن تضعه على كوم من حطب محترق أو بأن تتركه للذئاب لتمسك به وتلتهمه. وفى كل حال كان ينقذ دون أن يصاب بأذى وفى الحالة الأخيرة كان مرد إنقاذه إلى حقيقة أن «فوهيومانو» و«سروش» الورعين جاءا بشاة كثيف وبرها وممتلئ ضرعها باللبن، جاءا بها إلى الحظيرة فدرت لبنا لـ «زاراثوسترا» فى جرعات سهل هضمها حتى بزغ ضوء النهار.

وعندما كان طفلا صغيرا جدا قيل عنه بالمثل انه كان «يطيل التطلع وهو ينظر إلى أعلى وإلى أسفل وفى مختلف الجوانب حوله» ولما كان يُسأل عما كان يفعل، كان يجيب بأنه كان يرى رؤى المباركين يصعدون إلى السماء والأشرار وهم يهبطون إلى الجحيم، وقد تنبأ فى الوقت نفسه بانتشار إنجيل جديد فى بقاع الأرض.

الرسالة المقدسة:

بدأ «زارادشت» رسالته فى سن الثلاثين تقريبا. لقد استهلت هذه الرسالة بنوع من الفحص الروحى، قامت به الروح الطيبة «فوهيومانو». ولما تحدى الناس «زارادشت» يوما ما متسائلين: «ما أول شئ يثير همه وعن أى شئ كان أول سعى له؟ وماذا كان اتجاه رغبته؟» أجاب الشاب: «إننى أعتبر أكبر همى الصلاح وأول مسعاى الصلاح وما تتجه إليه رغبتى الصلاح». ولما سمح له فى الوقت المناسب بمصاحبة الأرواح كان فى استطاعة «زارادشت» أن يوجه أسئلة إلى «أهورا مازدا» نفسه، فلقد تساءل: «فى عالم التجسيد ما هو الشئ الأول فى الكمال وأيها الثانى وأيها الثالث؟» فرد عليه أهورامازدا قائلا: «إن أول كمال هو الأفكار السديدة وثانيها الكلمات الطيبة وثالثها الأعمال الصالحة».

فى بدء رسالته يبدو أن «زارادشت» قد عاش حياة الناسك وعلى شاكلة «يوحنا المعمدانى» نزح إلى البرية وعاش على لا شىء، اللهم إلا على الجبن والجذور، ثم جاء الإغراء فقامت الشيطانة «سيندارماد» بالتغرير بـ «زارادشت» ولم يتم اللقاء فى البرية، بل بين أشخاص عاديين قرر «زارادشت» أن يدرس عاداتهم: «لقد اتجه «زاراثوسترا» إلى العالم الذى يعيش فيه عالم الصداقة، مستهدفا أن يراقب تماما ذلك الطريق المعبد للوجود التجسيدى، ثم تقدمت الشيطانة: امرأة ذات جسد ذهبى ناهدة الصدر لقد طلبت صحبته كما طلبت أن يخاطبها وأن يعأونها ولما كان على علم أن مفاتنه خداعة تماما، طالبها بأن تدير ظهرها ولكنها ردت عليه قائلة: «يازاراثوسترا الاسبتماسى» حيثما تكن تكن النساء منا جميلات من الأمام قبيحات بصورة مخيفة من الخلف فلا تطالبنى بأن أدير ظهرى، ولكنه أصر وبعد أن عارضت للمرة الثالثة وافقت على أن تدير ظهرها عندئذ خرجت منها سلالة كريهة

من الثعابين والضفادع البرية والسحالى وأمهات الأربعين والضفادع البحرية، على أن المحنة الحقيقية جاءت فيما بعد فى صورة هجمات شيطانية عليه ومن بينها كان إيلاج رصاص مصهور فى معدته، ولكن لم يفلح شىء فى زعزعة إيمانه فى عدالة الإله الذى تمتع بصحبته أعنى «أهورا مازدا» وأخيرا، كمكافأة له على تعبده الرواقى، أهداه «أهورا مازدا» شخصيا بكتاب الحكمة السمأوية، الذى سمى فيما بعد باسم «أفيستا» وكان هذا هو الإنجيل الذى كان يحلم به وهو صبى وبذا صار للمبعوث الآن إنجيله.

وبرغم أن تبشيره قد لقى فى بادئ الأمر أذنا صماء - لأن الفرس كان لديهم بالفعل آلهتهم وطقوسهم الطبيعية - إلا أن «زارادشت» قد بدأ بالتدريج فى اجتذاب مهتدين. وعندما قرر من النهاية أمير فارسى يدعى «فيشتاسبا» أو «هيستاسبس» أن يعتنق العقيدة الجديدة، بدأت حركة تحول دينية قوية؛ لأن هذا الأمير أعلن على الفور عن نيته فى نشر العقيدة الزارادشتية فى أرجاء مملكته، ولكن خليفته قمبيز المغتصب، وكان يعتقد فى آلهة الماجيين القدامى، سعى لاستئصال شأفة الديانة الزارادشتية. ولكن باعتلاء داريوس الأول العرش فى سنة٥٢١ ق.م أعلنت العقيدة الزارادشتية ديانة رسمية للفرس. ويعتقد بعض المؤرخين أن الأمير «هيستاسبس» الذى كان أول من صادق «زارادشت» لم يكن إلا والد داريوس وإذا صح هذا القول، فان هذا ينهض دليلا على أن «زارادشت» قد ولد فى أقدم تاريخ عُزِى إليه.

وطبقا لهذه الرؤية، تمت وفاة «زارادشت» التى كان من المفروض أن تحدث فى الثامنة والسبعين من عمره بصورة مسرحية، مثلما تمت ولادته وان كانت قد تمت بصورة أسرع.

أما عن شخصية زارادشت فنحن لا نعلم عنها شيئا وهى بلا شك: شخصية أكثر غموضا من غموض شخصية كافة الزعماء الروحانيين، أما عن المعجزات المعزوة إليه أو كانت لها صلات بمختلف وجوه حياته فكثيرا ما تكون أقرب إلى الغرابة والسخرية وأيا كان تأثيرها على أناس عصره وعلى من عبدوه فيما بعد، فهى تستهدف كثيرا تعظيم شأنه فى عيوننا، بقدر ما تباعد بينه وبين المركز الأمامى الذى يحتله الرجال ذوو الرؤيا التى تفوق قدرة البشر.

مضمون العقيدة:

آمن زرادشت فى كتابه «الأفستا» بإله واحد عظيم، ثم أخذ يفصل لقومه كيف ينبغى أن يعيشوا وفق قانون الطبيعة فلكى يكون الإنسان جزءا سليما فى هيكل الكون، يجب أن يعيش صحيحا معافًى وألا يكون ضعيفا خائر القوى. ومن ثم أخذ يدعو إلى أن يحيا الإنسان حياة نقية نظيفة؛ ليجنب نفسه العلل والأمراض ولقد طبع الله فى الإنسان بصيرة يميز بها بين الطاهر والدنس أو بعبارة أخرى بين الحق والباطل وذلك هو الضمير الذى يهدى صاحبه سواء السبيل فمن يعش وفق ضميره، تكن حياته متسقة مع إرادة الله.

ومن أهم اللفتات الفلسفية فى تعاليم زارادشت وجود مبدأين فى الطبيعة، يعملان متضادين وهما «الروح الخالقة» و«الروح المبيدة» أو الكون والفساد. ومنذ تم الخلق وبين هذين الروحين كفاح وصراع وتنافس.

ولذا. ذهب بعض الباحثين إلى أن رب الكون واحد عند زارادشت لا شريك له وان يكن فى الكون خير وشر يتنافسان فنزعة الشر بادية فى برد الشتاء يجمد الماء ويثلج الأرض ويعوق الشجر عن النمو والإثمار، وفى الخواطر الشريرة تطوف بالرءوس، بوادر الشك والإلحاد، وفى الفقر والكسل، وفى الأوثان وعبادتها، وفى الحياة، وفى الخيانة والكذب والظلام وكريه الروائح والأمراض وضروب الوباء، وفى الحيوان المفترس والزواحف السامة والحشرات.. تلك وما إليها صنائع «روح الشر» التى أخذت على نفسها أن تهدم وتهلك وتبيد. ودعا زاردشت فى تعاليمه إلى أن يكون الإنسان خيرا فى قوله وفى تفكيره وفى عمله.

أراد زارادشت أن يجتث روح الشر من جذورها، ويفنى روح التدمير ولا يبقى على وجه الأرض إلا البناء والتعمير، ففضل القواعد الصحية ونظم الحياة التى من شأنها أن تصون الفرد والمجتمع.

ويتلو ذلك فى أوامر الكتاب وجوب فلاحة الأرض لتنتج الحب والشجر. فالله يأمر الإنسان أن يروى إليابس الجاف وأن يجفف المستنقعات وان يسكن الأرض ناسا وماشية وكل ذى نفع وخير.

ويستطرد «زرادشت» فى بسط قواعد الأخلاق فيقول: «إن الإنسان قد ولد وفى فطرته عقلان: عقل خير وعقل شرير، وكل من العقلين يحاول أن تكون له السيطرة على تنقية الإنسان فى أفكاره وألفاظه وأعماله. وقد لخص زارادشت الحياة الخلقية فى ثلاثة أركان أساسية: أفكار خيرة وألفاظ خيرة وأعمال خيرة فهذه الجوانب الثلاثة طرق ثلاث تؤدى إلى الجنة، ومن يسعى لتحقيقها انما يسعى لتأييد الخير وإعلاء كلمة الله: «فلا تنحرف عن أفضل الأشياء وهى ثلاثة: تفكير خير وقول خير وفعل خير».

والمقصود «بالتفكير الخير» أن يحصر الإنسان عقله فى الله الخالق، وأن يعيش مع الناس فى سلام وانسجام فإن أحب الإنسان الإنسان، عمل على وقايته من الخطر وعأونه وقت الضيق وعلمه إن كان جاهلا وهداه إلى خير طريق يزيد بها غلته وثماره.

والمقصود «بالأقوال الخيرة» أن يكون الإنسان حافظا للعهد منجزا للوعود موفيا للدين، لا ينطق بما يؤذى وبأن يقول ما من شأنه أن يوثق عرى الحب بين عباد الله.

و«الأفعال الخيرة» تقتضى من الإنسان أن يخفف عن الفقير وأن يزرع الأرض وأن يستنبط الماء العذب وأن يشجع على إقامة الحياة الزوجية وأن ينفق ما زاد على حاجته فى وجوب خير الإنسان.

ودعا زارادشت الإنسان ان يتزوج لينشئ الأسرة فكما تصلح الأرض بالإخصاب تصلح الإنسانية باتخاذ الأزواج، ويشير كتاب الأفستا إلى أن (ما يرضى الله من عبده ان ينشئ لنفسه دارا ويختار لنفسه زوجة وينسل الأطفال وأن يحتفظ فى بيته بشعلة موقدة وأن يكون له قطيع من الماشية).

ثم يعرج زارادشت بتعإليمه على الحيوان ووجوب الرحمة به: (فلنذبح منه ما نحن بحاجة إليه أما أن نلهو بقتله فى الصيد بسائر ضروب العبث، فجناية كبرى عند الله خالق الإنسان والحيوان على السواء).

وبعد أن ينتهى تفصيل زرادشت فى الأفستا عن شروط الحياة الخيرة

الصالحة، ينتقل بعدئذ إلى ما يكون فى الحياة الآخرة فيبدأ بتقرير خلود الروح وبأن الروح الصالحة تصعد إلى الجنة فى انتظار جسدها يوم البعث، وأما الروح الشريرة فتلقى العذاب ألوانا حتى يوم الدين.

إن زارادشت يؤمن بحياة الجسد والروح معا فلا هو ينصرف إلى الحياة المادية وحدها حتى ينسى حياة الروح فى إليوم الآخر، ولا هو يحصر تفكيره فى الروح بحيث يهمل الجسد . الحياة بجانبيها هى محور الديانة الزاراداشتية. فللجسد من عناية بالصحة والطعام وما إلى ذلك، وللروح ما طبعة الله فى الإنسان من ضمير يهديه سواء السبيل وقد رمز زارادشت للحياة بجانبيها المادى والروحى بالنار فلا حياة بغير سعى ونشاط وفى النار هذا النشاط الدائب ولا حياة بغير طهر ونقاء والنار أول عوامل التنقية والتطهير، فلا عجب أن يبقى سدنة الفرس على شعلة النار ملتهبة على سبيل الرمز على أن تكون هى موضع التقديس والعبادة ثم خلف خلف من بعده لم يفهموا رمزه فى النار فعبدوها!!.



الشافعى

٧٦٧ - ٨١٩م

سيد الفقهاء

كتاب «الرسالة» (فى أصول الفقه) علامة بارزة على طريق تطور العقل العربى الإسلامى، فمؤلفة، وهو الامام الشافعى، محمد بن إدريس، شخصية وسعت عصرها كله، وعبرت عنه اسمى تعبير، وقد شهد عصر الشافعى انطلاقة هائلة نحو الازدهار الثقافى والحضارى، بعد أن كان قد مضى قرن ونصف القرن على بزوغ فجر الاسلام، وانتصار فتوحاته.

كانت العبقريات تتفجر فى كل مجال، ولاسيما فى الجوانب العقلية، وكان أهم ما يشغل العقل العربى الإسلامى هو فهم القرآن شكلا ومضمونا، فمن حيث الشكل: عكف العلماء على دراسة لغة القرآن، أصواتا وألفاظا وتراكيب، فكان إمام هؤلاء العلماء هو الخليل بن أحمد ثم تلميذه سيبويه وظفرت العربية على يدى سيبويه بمؤلفه الخالد «الكتاب» الذى صار فيما بعد مصدرا لجهود التقعيد النحوى، ومرجعا لأصول اللغة الفصحى، إلى جانب جهود علمية كثيرة لغيره من الأئمة العلماء. ومن حيث المضمون: اجتهد الأئمة من رجال التفسير والحديث والفقه والكلام، فكان من صدورهم الإمام الشافعى رضي الله عنه، وقد ظفرت الأمة على يديه بالكثير من الآثار العلمية ولاسيما هذه «الرسالة» التى كان يطلق عليها أيضا: «الكتاب».

نشأة الشافعى ونبوغه

هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف. وبهذا النسب الشريف يكون ابن عم رسول الله، ويجتمع معه فى عبد مناف.

اجتمع عليه فى طفولته الغربة وإليتم والفقر، فقد ولد سنة ١٥٠ هـ بفلسطين بمدينة غزة على الأصح أو عسقلان. وقيل باليمن، كما جاء فى بعض الروايات، ومهما يكن فقد ولد فى بلد غريب بعيد عن مواطن قومه بمكة وغيرها من بلاد الحجاز.

ومات أبوه قبل أن ينعم محمد هذا بمعرفته، وتركه إلى أمه، وكانت امرأة من الأزد، ولكن الله رعاه وأنبته نباتا حسنا، وكان له من آثار نسبه الرفيع ما أبعده عن مواطن الريبة، وحاطه من كل سوء، وما جعله يطمح إلى معإلى الأمور، ويصل بجده وعقله الألمعى إلى أن يكون إماما وعلما خالدا على الزمان.

ورأت الأم أن تنتقل بولدها محمد إلى مكة، ليعيش بين أهله ولا يضيع نسبه بين الجاهلين به. وفيها أخذت مواهبه تتفتح ويشرع فى طلب العلم وأسبابه، وذلك على رقة حاله، حتى أنه كان لا يجد ثمن القراطيس التى يكتب فيها سماعاته.

وفى البلد الحرام حفظ القرآن الكريم وهو حدث، ثم أخذ يطلب اللغة والشعر والأدب حتى برع فى ذلك كله ثم انصرفت همته لطلب الحديث والفقه من شيوخهما، مثل مسلم بن خالد الزنجى وغيره، وأضاف إلى ذلك ان حفظ موطأ الإمام مالك. وكل هذا وهو يعانى من الفاقة وضيق ذات إليد.

وكان من الطبيعى وقدحفظ «الموطأ» أن يسعى للقاء صاحبه إمام دار الهجرة، فذهب إليه وقرأ كتابه من حفظه. فأعجب الإمام به وبقراءته، لأنه كان من الفصحاء المعدودين. ولما فرغ منه قال له: «يا بن أخى تفقه تَعْلُ» كما قال «يا محمد، اتق الله فسيكون لك شأن» وقد صدقت فيه فراسة الإمام.

ويذكر الربيع بن سليمان الراوى المصرى: أنه سمع الشافعى يقول عن لقائه بالإمام: «وقدمت على مالك وقد حفظت الموطأ، فقلت: إنى أريد أن أسمع الموطأ منك، فقال: اطلب من يقرأ لك، قلت: لا عليك أن تسمع قراءتى، فإن سهل عليك

قرأت لنفسى، قال: اطلب من يقرأ لك، وكررت عليه فقال: اقرأ فلما سمع قراءتى، قال: اقرأ، فقرأت عليه حتى فرغت منه).

لزم الشافعى الامام مالك بن أنس بالمدينة حتى مات سنة ١٧٩، وظهر نبوغه فى الفقه وفى سائر ما عنى به من العلوم، وكانت نزعته فى الفقه نزعة أهل الحديث، وذلك لعلمه التام بالقرآن ومعانيه وشدة طلب الحديث الصحيح، ليكون من أسانيده فى الأحكام الفقهية وإفتائه بها.

وبلغ من ذلك أنه كان - كما يذكر ابن حجر - إذا ذكر التفسير، كأنه شهد التنزيل، وكما يقول أبو حسان الرنادى عنه: ما رأيت أحداً أقدر على انتزاع المعانى من القرآن، والاستشهاد على ذلك من اللغة، من الشافعى. ويذكر دأود بن على إمام أهل الظاهر عن إسحاق بن راهويه انه قال:

«ذهبت انا وأحمد بن حنبل إلى الشافعى بمكة. فسألته عن أشياء فوجدته فصيحا حسن الأدب، فلما فارقناه أعلمنى جماعة من أهل الفهم بالقرآن أنه كان أعلم الناس فى زمانه بمعانى القرآن، وأنه أوتى فيه فهما، فلو كنت عرفته للزمته. قال دأود: رأيته يتأسف على ما فاته منه».

ولهذا لا عجب أن رأينا شيخه الأول مفتى مكة وهو مسلم بن خالد الزنجى يأذن له بالإفتاء وهو دون العشرين من عمره، ويقول له: «أفت يا أبا عبد الله، فقد آن لك أن تفتى»، كما ينقل الرازى. وكما يذكر صاحب شذرات الذهب أيضا.

وقد بلغ من نبوغه وعلو شأنه فى الفقه وأدواته أن نال بحق تقدير أقرانه ومن أتوا بعده، وثناءهم عليه، وإشادتهم به، كما يذكر جمهرة مؤرخيه. هذا ابن حنبل يقول عنه:

«ما رأيت أحدا أفقه فى كتاب الله من هذا الفتى ويذكر مما برع فيه هذه العلوم الأربعة: اللغة، واختلاف الناس، والمعانى (أى معانى القرآن)، والفقه.

رحلات الشافعى وأثرها

من أدب العلماء الأفذاذ الرحلة فى طلب العلم والسماع من شيوخه، لا يبالون

فى هذا السبيل بما يصيبهم من تعب ونصب، وقد كان الشافعى من هذا الطراز النادر من العلماء، ولذلك رأيناه يرحل من مكة إلى المدينة، فيلقى امام دار الهجرة ويأخذ عنه. ونراه بعد هذا فى العراق أكثر من مرة ثم فى مصر أخيرا حيث استقر به المقام، ولقى ربه بعد أن ملأ طباق الأرض علما.

وقد كانت رحلته الأولى إلى بغداد، كبيرة الأثر بالنسبة إلى الشافعى وإلى الفقه نفسه، وذلك أن أصحابه من المالكية كانوا يطلبون إليه أن يرد على الأحناف أهل الرأى، ولكنه كان يرى أن يعرف ما كتبوه قبل أن يتولى الرد عليهم، وكان هذا طبيعيا.

ولهذا نراه لما وصل إلى العراق يختلف إلى محمد بن الحسن الشيبانى صاحب الإمام أبى حنيفة ويلزمه ويكتب كتبه، وبذلك عرف آراء فقهاء العراق.

هكذا كانت بداية معرفة الشافعى بمحمد بن الحسن وبكتبه وبأقأويل الأحناف بصفة عامة، وكان من الطبيعى - إذا راعينا اختلاف منهج أهل الحديث عن منهج أهل الرأى اختلافا كبيراً فى استنباط الأحكام الفقهية - أن تكون مناظرات ومساجلات بين الطرفين.

هذا، وكان أثر اتصال الشافعى بأهل الحديث أولا وأخذ عنهم ثم بأهل الرأى ومعرفته بأقأويلهم وآرائهم ومناظراته لهم ثانيا، كان ذلك الأثر كبيرا جدا من ناحيتين: ناحية بحثه عن السُّنة وما يؤخذ منها وبيان الصحيح وحكم أخبار الآحاد فى العمل أو عدم العمل بها، ثم بوجوب الاحتجاج بالسُّنة بجانب القرآن بصفة عامة.

وبذلك إلى جانب بحوثه فى القرآن وبيان ناسخه من منسوخه، وهل يجوز نسخ حكم من أحكامه بالسُّنة أو لا يجوز، إلى غير هذا كله من مباحث كتاب الله وسنة رسوله، بذلك كله كان الشافعى بحق هو واضع علم أصول الفقه.

والناحية الثانية هى أنه وصل بعد الدرس والتمحيص وتمييز الصحيح من الآراء والمناهج من غير الصحيح إلى أن يكون لنفسه مذهبا خاصا، هو وسط الطرفين، طرف أهل الحديث وعلى رأسهم مالك وأصحابه بالمدينة ومصر، الذين يجعلون عمادهم السنن والآثار، ولا يجنحون إلى الرأى إلا بالقدر الذى يرونه ضروريا.

وطرف أهل القياس والرأى (بالعراق وما والاه من الأمصار) الذين يعتمدون، بعد القرآن المحكم والسُّنة الصحيحة التى لا ريب فيها، على إعمال العقل ودقة النظر وقوة الجدل والأخذ بالقياس.

وكان النزاع شديدا بين هذين الطرفين المتعارضين فجاء الشافعى وسطا يوفق بينهما ويأخذ من كل منهما بقدر، فهو مثلا ينصر السُّنة نصرا شديدا، ولكنه مع هذا يأخذ بالقياس فى غير إسراف، إذ يشترط أن يكون له أصل وسند من الكتاب والسُّنة.

وقد أعانه على سلوك هذا المسلك الحسن، وإن أغضب به كثيرا من أهل الرأى وكثيرا من أهل الحديث والآثار أيضا، إنه كان طالب حق لا جدل فى دراساته ومناظراته، حتى لقد أثرت عنه هذه الكلمة: «ما ناظرت أحدا قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان، وتكون عليه رعاية من الله وحفظه، وما ناظرت أحداً إلا ولم أبال بين الله الحق على لسانى أو لسانه».

وأخيرا عاد الشافعى إلى مصر سنة ٩١٩هـ، أو أوائل سنة ٢٠٠ هـ واستقر حتى توفاه الله إليه - سنة ٢٠٤ هـ- وفيها لقى قبولا حسنا بوصفه تلميذا للإمام مالك، إلى ان ظهر منه ما خالفه فيها، وفى الحق أنه كان كبير الإجلال لمالك وكان يذكره بأنه أستاذ له. ولكنه مع هذا كان أكثر حبا للحق وتعصبا له متى هدى إليه، وحينئذ يأخذ به وان خالف فقهاء العراق جميعا.

مؤلفات الشافعى

ألف الشافعى رحمه الله كتبا كثيرة فى المراحل التى مر بها وارتحل فى أثنائها بين بلاد عديدة، وقد جمع بعض المؤرخين هذه الكتب وذكر بعضهم بعضا منها، وأسماها كل واحد منهم بمسميات مختلفة.

وقد عدد النووى كتب الشافعى. وأدخل فيها كتب تلاميذه التى اختصروها من علمه فقال: «ومصنفات الشافعى فى الأصول والفروع لم يسبق إليها كثرة وحسنا، فإن مصنفاته كثيرة ومشهورة كالأم فى نحو عشرين مجلدا، وجامع المزنى الكبير والصغير، وكتاب حرملة، وكتاب الحُجة وهو القديم والرسالة القديمة والرسالة

الجديدة والأمإلى والإملاء، وغير ذلك مما هو معلوم من كتبه وقد جمعها البيهقى فى المناقب، قال القاضى الإمام أبو محمد الحسين بن محمد المروزى فى خطبه تعليقه: «قيل إن الشافعى رحمه الله صنف مائة وثلاثة عشر كتابا فى التفسير والفقه والأدب وغير ذلك، وأما حسنها فأمر يدرك بمطالعتها فلا يتمارى فى حسنها موافق ولا مخالف».

هذا.. وقد كان الشافعى يطلب الحق بكل سبيل، كما كان عريق التفكير قبل أن يكتب، كما كان كثير التدبير فيما كتبه، حتى إنه ليعدل عن كثير منه ويعيد كتابته ثانيا، كما فعل بالرسالة وغيرها، ولذلك عرف بأن له مذهبين: مذهب قديم بالعراق، والمذهب الجديد الذى أثبته فى كتبه التى أثرت عنه بمصر.



شكيب أرسلان

١٨٦٩ - ١٩٤٦م

أمير البيان العربى

إذا قلنا إن قلمه أشبه بالبحر، فى طرافة خبر وجمال عبارة وحسن فهم وعمق توجيه لما تجأوزنا الحق. أريد هنا «شكيب أرسلان» الكاتب البليغ الذى وصف بأنه أمير البيان والذى عاش قلمه سيفا بتاراً فى وجه المستعمر وسلاحا صارما فى سبيل حماية العربية والإسلام وأمجادها.

المغترب الذى قضى زهرة عمره منفيا عن وطنه مخرجا من الشرق، مع ذلك فقد زاده الاغتراب قوة وإيمانا وإصراراً على حقه وحق وطنه فى الحرية.

كان فى سويسرا كالمنار الضخم، ما من شرقى أو عربى يذهب إلى هناك إلا يلقاه ويرعاه وهو بين العمل المتعدد النواحى فى خدمة القضايا العربية والإسلامية والسفر والترحال يجد الوقت ليكتب هذه التعليقات الضخمة على كتاب حاضر العالم الإسلامى الذى ترجمه حجاج نويهض ويكتب عن أمجاد الإسلام فى البحر الأبيض وأوروبا والأندلس ويكتب عن شوقى ورشيد رضا.

قال عنه المنفلوطى: لو لم يكن أكتب كاتب لكان أشعر شاعر، ولكن أرسلان يرى غير هذا: «لست أنا ممن يسوقه الغرور إلى أن يظن فى نفسه أنه أشعر شاعر وأكتب كاتب وما حفلت بشىء فى حياتى من هذه الألقاب ولا احلو لى فى صدرى ما يحملنى الناس إياه منها كأمير البيان وما إليه، والكاتب سمته بيانه» قدم إلى مصر للمرة الأولى عام ١٨٩٠ وكان فى سن العشرين فقابل محمد عبده وسعد زغلول وعلى الليثى وعبد الكريم سلمان وإبراهيم اللقانى وحفنى ناصف وعلى

يوسف وأحمد زكى (باشا).

وكان ينشر مقالاته فى الأهرام بتوقيع (أحد أفاضل السياسيين) وهو الذى دفع شوقى إلى إطلاق اسم (الشوقيات) على ديوانه. وقد ظل حياته يدافع عنه ويقول كنت: «جلاداً لأعداء شوقى» وكانت بينهما دعابات. ولقد طوف شكيب أرسلان بالشرق والغرب فزار مصر وفلسطين والحجاز وأقام فى سويسرا وذهب إلى نيويورك. وسافر إلى الأستانة وفرنسا وانجلترا وأسبانيا واشترك عام ١٩١١ فى حملة الأتراك على الإيطاليين فى طرابلس الغرب. وعادى الاتحاديين فى تركيا. ولم يعد إلى الشرق بعد الحرب الكبرى وأقام فى سويسرا وإنما عاد بعد أن تم الاتفاق السورى الفرنسى، حيث عمل فى المجمع العلمى ١٩٣٧ - ١٩٣٩ ثم عاد إلى سويسرا كرة أخرى بعد أن تغير الموقف مرة ثانية فظل بالمنفى حتى عام ١٩٤٦ حيث عاد إلى وطنه «الشويفات» بلبنان مشوقا إلى «أمه» التى كان يحبها حبا عظيما والتى ما لبثت أن انتقلت إلى الدار الأخرى بعد عودته ببضعة أسابيع بعد فرقة أربعين عاما.

ما أشبه شكيب أرسلان بالزعيم المصرى محمد فريد الذى نفاه الظلم من وطنه فعاش فى برلين مدافعاً عن وطنه. كان شكيب ركنا من أركان الحركات السرية التى قام بها العرب ضد طغيان جمال باشا السفاح وقد اشترك مع العرب فى الدفاع عن القضية فى مؤتمر باريس وحمل على اتفاق سيكس - بيكو وكان فى مقدمة الثوار ضد الاستعمار الغربى. فلما نفى ظل يطوف كمحمد فريد أنحاء أوروبا معلنا سخط العرب على الاستعمار منددا بفظائعه فى سوريا والعراق وفلسطين ومصر وتونس والجزائر.

ولكنه زاد على ذلك بأن أخذ يبحث عن مخلفات العرب العلمية وعمل على إخراجها فى كتب وقد رد فيها على ما وجهه المبشرون والمستشرقون من أكاذيب وادعاءات.

وقد عرف بسلاسة أسلوبه وبلاغته. وهو الذى عرف بالسهل الممتنع.

وقد كان شكيب أرسلان أول من دعا إلى اتحاد العرب فى هيئة عاملة وأول من

طاف أوروبا باحثا منقبا عن مخطوطات العرب المحفوظة فى مكاتبها.

وتناولت رسائله التى كان يبعث بها إلى أصدقائه فى مصر موضوعات علمية كثيرة ومن هؤلاء الذين احتفظوا برسائله السيد محب الدين الخطيب والأستاذ حبيب جاماتى وقد أضاع ثروته الطائلة فى الجهاد لمجد العروبة وكان رسول سلام فى كل خلاف وداعية وئام وصفاء.

يكاد شباب «شكيب ارسلان» يمهد لحياته كلها. أصدر ديوانه «الباكورة» فى السابعة عشرة من عمرة عام ١٨٨٧. وعرف محمد عبده وهو منفى فى بيروت، وذهب إلى طرابلس مجاهدا عام ١٩١١ ثم برح برقة عام ١٩١٢ إلى الأستانة حيث نشبت حرب البلقان وكلف بالإشراف على الهلال الأحمر وكتب فى المنار من عام ١٩٢١ إلى نهاية عمر المنار. وقد أتاحت له إقامته فى أوروبا فرصة للبحث والدرس والكتابة.

وقد عاش «شكيب أرسلان» فى أوروبا مغتربا نتيجة لإيمانه برأيه وأصراره على أفكاره.

وقد ظل شكيب أرسلان يتردد على الشرق فيمنع حينا من دخول مصر ومرة أخرى من دخول سوريا أو لبنان.

ووصف أسلوبه بأنه قريب من أسلوب ابن خلدون واشتهر بالمناظرة والخطابة والكتابة السياسية والاجتماعية.

وفى مؤلفاته كتابه «شوقى أو صداقة أربعين سنة» صور فيها علاقته بشوقى ورأيه فى شعره وذكرياته، وهو لون من الكتابة التاريخية عرف به يحوى الدراسة والنقد والعرض والإخوانيات والذكريات. وشبيه به كتابه «رشيد رضا أو أخاء أربعين سنة» سجل فيه ما كان يتبادله مع رشيد رضا من رسائل وذكريات وأحاديث.

وقد عرض فى كلا الكتابين لما قام بينه وبين شوقى ورشيد رضا من خلاف أو جدل فى مسائل علمية أو دينية أو فلسفية.

طاغور

١٨٦١ - ١٩٤١م

صاحب الأشعار التى خُلدت على مر العصور

ان طاغور ليس مجرد شاعر أو حكيم أو فيلسوف.. إنه فكرة لن يموت صاحبها فهذا الرجل عبر فى عام ١٨٨٩ عما يكنه من الاحتقار الشديد للحروب.. ومفاسد الأجانب الدخلاء حينما يتولون حكم بلد يحتلونه..!! عبر عن كل ذلك منذ أكثر من ١٠٠ عام وكانت بلاده ترزح تحت نير الاستعمار البريطانى بكل قسوته.. وإذا كان كلام طاغور فى مسرحيته «الملك والملكة» قد كتب فى عام ١٨٨٩ إلا أن ما يحدث الآن فى كثير من البلاد إنما يذكر بهذا الفيلسوف الذى عاشت فلسفته وستعيش قرونا عديدة نبراسا لمن يريد أن يهتدى ويتعلم..

ولد طاغور فى مدينة «كلكتا» فى عام ١٨٦١ وهو أصغر إخوة سبعة من أبيه «مارشاشى رابندرانات» وكان أبوه أميرا كبيرا فانحدر بذلك طاغور من سلالة الأمراء وكانت مدينة كلكتا - مسقط رأسه - عاصمة الهند فى ذلك الوقت.

وكان طاغور من بين أسرة برهمية. وبرهما اسم الله فى اللغة السنسيكريتية الهندية وهو عند البراهمة الإله الموجود بذاته لا تدركه الحواس ويدركه العقل، وهو مصدر الكائنات كلها لا حد له وهو الأصل الأزلى المستقبل الذى يستمد العالم وجوده منه. وكانت كلمة برهما فى الأزمنة القديمة تعنى الصلاة التى تصحب القربان ولا يظهر أنها كانت تعنى شيئا آخر.

وقد نشأ طاغور على الديانة البرهمية ولكنه أصبح صاحب نزعة فلسفية خاصة.

وقد أصيب طاغور فى صباه بحمى شديدة فصحبه أبوه إلى مكان هادئ على شاطئ البحر فكان لهذه الفترة أثر كبير فى رهافة حسه ورقة ذوقه وعمق إحساسه بالجمال.

وعندما سافر طاغور إلى البنغال نظم مقطعات عذبة من الشعر وطفق يناجى بلاده العزيزة من أعماق القلب وأغوار الفؤاد نجوات عذبة.

وفى عام ١٨٧٧ سافر طاغور إلى إنجلترا ليواصل دراسة القانون وكان محافظا على ردائه الشعبى وقد حاول أن يحصل على شهادة الميترو كليشن ولكنه لم يكن متفانيا فى الدرس لأن أباه كان دائما فى ترحال.

وقد صدر لطاغور ديوانه الشعرى الأول عام ١٨٧٧ وهو فى الخامسة عشرة وكتب فى ذلك الوقت طائفة من المقالات التى أشار فيها إلى ضرورة امتزاج الحضارة الأوروبية بحضارة الشرق.

وأول إنتاجه المشهور جمع فى مجلد باسم «جيتانجإلى» أو قربان الأغانى واتجه الشاعر بعد شعره الليريكى أو الغنائى إلى المذهب الرمزى فى التأليف من عام ١٩٠٥ إلى عام ١٩١٩.

و«جيتانجإلى» مختارات من أشعاره الأولى المتفرقة فى عدة كتب. وعن أعماله الأدبية إلى سن الستين - وفى مقدمتها هذا الديوان الضخم الذى ترجمه هو إلى الإنجليزية - استحق الشاعر جائزة «نوبل» فى الأدب عام ١٩١٣.

وفى عام ١٩١٩ أعلن رفضه لقب «سير» الفخرى من ملك انجلترا عندما منحه هذا اللقب احتجاجا على سياسة إنجلترا الظالمة فى الهند.

وجدير بالذكر أن طاغور طاف بكثير من بلاد العالم فزار الولايات المتحدة وانجلترا وألمانيا إيطاليا والنمسا وتشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا والسويد والدانمارك والصين واليونان وإيران وكان يقابل فى هذه البلاد كلها بترحاب شديد وحفاوة بالغة وقد ألقى فى أثناء زيارته لإنجلترا عدة محاضرات فى جامعة «أكسفورد» فى علم الفلسفة المقارن وكان موضوع محاضراته «ديانات الإنسان» وعندما زار روسيا ألف كتابه المشهور «رسائل من روسيا».

وعندما صدر لطاغور كتاب «البستانى» نشرت الديلى نيوز مقالات قرظت فيه الكتاب.

واستطاع طاغور فى كتاب «السادهانا» ان يلم بأهم قضايا الفكر البشرى إلماما يدل على عمق دراسته وطول باعه.

وقد امتزج طاغور فى فلسفته بالكون حتى صار جزءا منه وفى ذلك يقول: «لقد قلبت هذه الدنيا بعينى وأعضائى لقد طويتها فى قلبى طيات لا عد لها لقد غمرت نهارها ولياليها بالأفكار حتى صارت حياتى والعالم جزءا واحدا وأنا أحب حياتى لأنى أحب ضوء السماء المنسوج فىّ».

وديوان طاغور «قطف الثمار» من أروع ما كتب هذا الشاعر العظيم لما يضمه هذا الديوان من معان صوفية رائعة ومن خيال محلق جميل ومن صلوات خاشعة إلى الله تعالى.

أما تصوف طاغور فلم يكن زهدا أوتشاؤما أو انصرافا عن الحياة وعما فيها من متع وجمال.. إنما كان فناء فى مجإلى الكون. وفى ذلك يقول: «لن أكون ناسكا يا رفيقى، ولتذهب بك الظنون.. لن أكون ناسكا إذا هى لم تشاركنى هذا النسك راضية، لن أكون ناسكا إذا لم أوفق إلى ركن ورفيق يشاركنى نسكى.. هذا ما انتهيت إليه أخيرا فلن أهجر دارى ولن أترك مرقدى لأمضى إلى عزلة الغابة ووحدتها ما لم تملأ الغابة ضحكات الأمل السعيدة وليهفهف رداؤها الاقحوانى فوق عزلتى وليحضرنى همسها فى نسكى لتزداد الغابة سكونا وصمتا!».

فالتصرف فى شعر طاغور عمل روحى وجهد نفسى، هو معرفة الله وإدراك الحق وشمول الروح واتساعها لمعانى الحياة كلها. وتصوفه تدبر ونظر فى مذاهب الهند الصوفية المتطرفة وهو فى الواقع تصوف فى مطالب الروح ورغباتها وانعكاس من النفس لمعالجة مشكلاتها الروحية والاجتماعية من طريق اللين وإليسر وإدراك الحقيقة.

وساهم طاغور إلى جانب جهوده فى ميدان التصوف والأدب بجهود أخرى فى ميدان العلم فألف كتابا عن «العالم الواسع» باللغة البنغالية نقلته إلى الإنجليزية

السيدة «أندودت» ويبهرنا طاغور فى هذا الكتاب بمعرفته العلمية الواسعة.

والكتاب يضم إلى جانب الحقائق العلمية الطريفة حقائق أخرى تزيد من إعجابنا بهذا الشاعر المتصوف الذى أخذ من كل شئ بطرف ولو أن عالما متخصصا قال هذا لما وجدنا فيه شيئا من العجب ولكن أن يقوله شاعر تبلغ تمثيلياته الشعرية فى لغته الأصيلة نحو ١٥٠ ألف بيت وتبلغ مقالاته الفلسفية ورواياته وقصصه القصيرة ومقالاته فى النقد والتراجم الذاتية قدرا كبيراً وتبلغ أغانيه التى أعدت للغناء ويستمع إليها الآن أكثر من ١٥٠٠ أغنية فهذا هو العجب العجاب!

وقد منحته جامعة أكسفورد الدكتوراه الفخرية فى الأدب عام ١٩٤٠ وفى عام ١٩٤١ انتابه المرض وقامت الهند كلها تصلى وتدعو له بالشفاء ولكن وطأة المرض ازدادت عليه ولم يلبث أن فاضت روحه إلى بارئها.

طاغور المربى

قَلَّ من الأفذاذ من يتسع نبوغه إلى مثل الآفاق التى تغلغل فيها طاغور فهو فيلسوف متعمق. وفنان خلاق. أنارت آراؤه الطريق للملايين فى الهند حتى وصفه غاندى بأنه حارس الهند العظيم ونفذ فكره الثاقب فى كثير من نواحى الحياة ومجد الطبيعة والإنسان والإنسانية حتى استحق عن دراساته ومؤلفاته جائزة نوبل سنة ١٩١٣ وتُرجم كثير من كتبه وأشعاره إلى عدد كبير من لغات العالم وترنم بأغانيه وموسيقاه الكثير من الناس وشهدت صوره وفنه البلاد المختلفة حيث أقيمت فيها المعارض لهذا الفن الرفيع.

ولم يقصر نشاط طاغور على هذه الميادين بل تعداه إلى ميدان التربية الذى اتجه إليه هذا العقل اللامع بعد سن الأربعين. ورسم طاغور مذهبه فى التربية والتعليم واضحا بسيطا بل طبق مذهبه عمليا فى الحياة فأنشأ مدرسة سانتينيكتان التى تطورت إلى الجامعة العالمية بعد ذلك وهى تعد الآن من أعظم جامعات الهند وتضم طلبة وطالبات من أنحاء العالم ويقوم على تربيتهم وتعليمهم وتوجيههم أساتذة من جنسيات مختلفة ويعيش الجميع معا فى جو من التفاهم والتعاطف

والتقدير المتبادل كما أراد ذلك طاغور.

ولقد كان وراء آراء طاغور فى التربية والتعليم عوامل مختلفة وخبرات من حياته المليئة انصهرت جميعا لتصنع تلك الآراء وتحفزه على إنشاء مدرسته.

ولم تقتصر دراسة طاغور على الناحية الفكرية من التربية بل إنها امتدت إلى الناحية الوجدانية أيضا التى هى بحاجة إلى أن تعكس عليها الأضواء كما عكست أضواء الفكر على الحياة العقلية حتى تلمع وتزدهر كما لمعت الحياة الفكرية وازدهرت.

لقد خلد طاغور اسمه بين عباقرة الفلاسفة والأدباء والشعراء والفنانين على مر العصور، كذلك أصبح اسمه خالدا بين علماء التربية بما نشر من مبادئ سامية وتعاليم قوية عمل على تطبيقها فى مدرسته التى أنشأها منذ اكثر من مائة عام ونمت وازدهرت حتى أصبحت جامعة عالمية يحج إليها الدارسون والعلماء من جميع أنحاء العالم.



الطبـرى

٨٣٩ - ٩٢٣م

صاحب المكانة العالية بين المؤرخين

تميزت الحركة الفكرية فى القرن الثالث للهجرة بأمرين كان من أهم نتائجهما التعجيل بازدهار الفكر العربى الإسلامى وفتح الباب واسعا أمام جدأول الثقافات العالمية لتصب فى النهر الكبير، نهر الثقافة العربية الإسلامية.

وأول هذين الأمرين هو اقتراب العلوم الإسلامية من النضج والكمال سيما وأن العمليات الأولية وتدوين الروايات فى الحقول المختلفة كانت قد انتهت وبدأ المشتغلون فى العلم يصنفون المطولات فى مختلف العلوم والفنون.

وثانى هذين الأمرين هو انكسار الطوق الذى كان يحصر مراكز الفكر فى العراق بمدنه الثلاث: الكوفة والبصرة وبغداد وسريان نور الثقافة إلى مراكز جديدة خارج العراق كالشام ومصر والمغرب وفارس وخراسان وما وراء النهر والرى وغيرها، أصبحت هذه المراكز الجديدة تزخر بحلقات الدرس والتحصيل وتوفر لها من العلماء والفقهاء والمحدثين وأهل اللغة والخبر ما جعلها محط أنظار الدارسين وطلاب العلم بقصدونها للاستماع إلى شيوخها والأخذ عنهم وتلقى العلم على أيديهم.

فى هذه الفترة من تاريخنا الفكرى ولد وعاش المؤرخ الفقيه أبو جعفر محمد ابن جرير الطبرى.

ولد بآمل عاصمة إقليم طبرستان وأكبر مدينة فى سهله وهى مدينة خرَّجت كثيرا من العلماء ينسبون إلى طبرستان فيقال لكل منهم الطبرى.

لم يكد أبو جعفر يبلغ السن التى تؤهله للتعليم حتى يعهد به والده إلى علماء (آمل) وسرعان ما يتفتح عقله وتبدو عليه مخايل النبوغ وهو حدث فقد قال: «إنى حفظت القرآن ولى سبع سنين وصليت بالناس وأنا ابن ثمانى سنين وكتبت الحديث وأنا فى التاسعة».

وكان هذا النبوغ المبكر حافزا لأبيه على الجد فى إكمال تعليمه وبخاصة أنه رأى حلما تفاءل من تأويله قال الطبرى: «رأى لى أبى فى النوم أننى بين يدى رسول الله ﷺ ومعى مخلاة مملوءة بالأحجار وأنا أرمى بين يديه.

وقص رؤياه على المعبر فقال له: إن ابنك إن كبر نصح فى دينه، وذب عن شريعته فحرص أبى على معونتى على طلب العلم وأنا حينئذ صبى صغير».

ها هو ذا يقضى سنوات فى «آمل» تزيده إلى المعرفة ظمأ فيتنقل بين مدن طبرستان وغيرها من بلاد الفرس يستقى من ينابيعها ما يبرد غلته فيبدأ بالسفر إلى الرى وما جاورها ليأخذ الحديث عن محمد بن حميد الرازى والمثنى بن إبراهيم الأبلى.

وفى هذه المنطقة يدرس التاريخ على محمد بن أحمد بن حماد الدولابى مع حرص شديد على مجالس ابن حميد قال: «كنا نمضى إلى أحمد ابن حماد الدولابى وكان فى قرية من قرى الرى ثم نعدو كالمجانين حتى نعود إلى ابن حميد فنحلق مجلسه». ويقال إنه كتب عنه أكثر من مائة ألف حديث.

على أنه درس عليه التفسير أيضا وأخذ فقه أهل العراق عن أبى مقاتل بالرى، فإذا ما ارتوى من هذه إلينابيع أحس بظمأ جديد إلى مناهل أخرى.

فالى أين يقصد؟

يشخص إلى بغداد ليسمع من عالمها أحمد بن حنبل ويمنى نفسه وهو فى طريقه بأنه سيتلقى من الأمام المحدث الفقيه، لكن الأقدار لم تحقق له ما كان

يأمله اذ توفى ابن حنبل قبل أن يصل أبو جعفر إلى بغداد ويعلم بوفاته وهو على مقربة منها فينصرف عنها ولا يفكر فى أن يعود إلى بلده فيتجه إلى البصرة ويسمع من علمائها.

ثم ينتقل إلى واسط فيسمع من بعض شيوخها.

ويحدوه الكلف بالمعرفة إلى أن يرحل إلى الكوفة فيكتب الحديث عن علمائها.

ويتبين زملاؤه فى الكوفة أنه أقدرهم وأحفظهم.

وسرعان ما يندفع إلى بغداد فيدرس القراءات على أحمد بن يوسف التغلبى، ويتلقى فقه الشافعى عن الحسن بن محمد الصباح الزعفرانى وعن أبى سعيد الإصطخرى.

فهل آن لهذا الظمآن أن يرتوى فلا يرتحل إلى ينابيع أخرى؟

إن هذا بعيد لأن العطاش إلى المعارف لا يرتوون مهما ينهلوا ولعلهم كلما نهلوا استطابوا العلم فازدادوا إليه ظمأ واحتملوا فى سبيله نصبا.

إنه يعتزم رحلة طويلة إلى بلد بعيد تهفو إليه نفسه، فليتجه إلى مصر ليستقى من مناهلها التى طالما سمع بها.

لكن شوقه إلى المعرفة يعرج به إلى الشام فيقيم فى بيروت مدة يلقى فيها العباس بن الوليد البيروتى المقرئ ويقرأ عليه القرآن كله برواية الشاميين.

فإذا ما قضى من الشام حاجته اندفع إلى مصر فوصل إليها فى عهد أحمد ابن طولون.

ولقد كانت مصر حينئذ ثرية بعلمائها الذين استسقاهم الطبرى.

وظهرت شهرة الطبرى بمصر وبان فضله وعلمه بالقرآن واللغة والحديث والفقه والنحو والشعر .

تطور المنهج التاريخى عند الطبرى

كان التاريخ قبيل الطبرى وفى عصر الطبرى قد خطا خطوتين واسعتين فى ميدان تطوره. أولاهما هى استقلاله وانفصاله من الحديث فى القرن الثانى منذ تخصص كثير من المؤرخين فى موضوعات معينة اشتهروا بمعرفتها وجمعها وتدوينها.

وكان من أثر هذا الاستقلال أن ازدهر التاريخ الإقليمى وإن كثرت كتب التراجم والطبقات.

على أن التأليف فى التاريخ العام لم يتوقف عن مسايرة هذه الاتجاهات. وهناك آخرون دونوا تاريخ العالم منذ الخليقة، وتعرضوا لتاريخ الشعوب وبخاصة الفرس والروم.

وأما الخطوة الأخرى فقد كانت تمثل المكانة العالية للتاريخ والمؤرخين إذ تعددت مصادره الموثوق بها فى القرن الثالث فصار لا يعتمد على الأساطير والأخبار التى لا ضابط لها بل يعتمد على كتب مدونة فى السيرة وتاريخ الأقاليم والتاريخ العام وعلى وثائق وسجلات وعلى كتب مترجمة من اللغات الأجنبية إلى جانب اعتماده على المشافهة والمشاهدة والرحلات.

ولم يعد المؤرخ يسمى إخباريا، كما كان يسمى من قبل، واقتصر مدلول الإخبارى على رأوى القصص والنوادر والحكايات.

وبهذا صار التاريخ علما لا يستنكف العلماء والفقهاء من التوفر على دراسته ولا يخجلون بالتأليف فيه وأصبح المؤرخون ذوى مكانة عالية بين العلماء..



طه حسين

١٨٨٩ - ١٩٧٣م

قاهر الظلام

«عميد الأدب» لقب ارتضى العربى فى كل مكان أن يطلق فى عصرنا الحاضر على واحد دون غيره من الأدباء والأعلام. هو الدكتور طه حسين، تسليما بأنه الحرى بأن ينفرد به.. لأنه ليس بين الأدباء أبناء عصره ولداته، من اجتمعت له فى طويل السنين مقوماته وصفاته.. فقد اجتمعت للدكتور طه حسين ثقافات عديدة لم يأخذها من الكتب وحدها، ولكنه عاشها!..

ولد فى قرية من قرى مصر العليا عام ١٨٨٩ من عائلة فقيرة لكنها لم تكن معدمة وفقد بصره وهو فى سن مبكرة. فقد أصيب بالرمد وهو فى السادسة من عمره، فحملته أمة إلى حلاق القرية ليفقد على يديه بصره. وكانت هذه الحادثة من أكبر الأحداث فى حياته شأناً. حادثة أخذته بألوان من الشدة، حملته على حب الاستماع إلى أخبار «الهلاليين» و«الزناتيين»، وقصص «المعلم جرس»، وأغانى القرية، وحفظ القرآن الكريم الذى حمله إلى الأزهر فى قلب القاهرة.

كان يجد فى الأزهر كما يقول فى «الأيام» راحة وأمناً وطمأنينة واستقراراً كأن هذا النسيم الذى يترقرق فى صحن الأزهر يتلقى وجهه بالتحية فيملأ قلبه أمناً وأملاً.

وتمضى الأيام طويلة حافلة، وتتراكم الأحداث على الجرح حتى تغطيه، أو تنسيه فإذا بشيخ من شيوخ الأزهر.. يغضب إذ يجادله طه حسين فى العلم فيقول

للفتى فى حدة ساخرة: «اسكت يا أعمى ما أنت وذاك». ويرد عليه بقوله: « إن طول اللسان لم يثبت قط حقّاً ولم يصحح باطلاً».

عشق طه الأدب وأحب العلم واستولت على نفسه طموحات كثيرة وأخذ يحلم بأن يكمل دراسته فى الخارج، وماذا يمنعه من ذلك؟ وبدأ يتعلم اللغة الفرنسية حتى يطل منها على أدب فرنسا ويقرأ للأسماء اللامعة التى طالما داعبت خياله وفكره..

وفى ذات يوم قرأ صاحبنا إعلانا فى الصحف من الجامعة عن وجود بعثتين للدراسة فى فرنسا فى موضوعين هما: التاريخ والجغرافيا.. وشعر أن الفرصة جاءته وأنه لابد أن يكون واحدا من الاثنين، وكتب إلى رئيس الجامعة المصرية خطابا يعبر فيه عن حرصه وأمنيته أن يسافر إلى فرنسا لدراسة التاريخ، وعلى الرغم من الصعوبات التى قابلته إلا أنه فاز بالبعثة وحقق أمنيته فى السفر إلى أوروبا وبخاصة فرنسا بلاد النور والمعرفة فى ١٩١٤.

لم تكن الحياة فى فرنسا بعامة والدراسة بخاصة أمرا سهلا ميسورا فإن صاحبنا طه عانى فى البداية من صعوبات كثيرة، أهمها عدم إتقانه للغة الفرنسية، وضعف إمكانياته المادية، وشعوره بأنه كالطائر الحبيس. وكان يفضل السماع على القراءة عن طريق أصابعه وهى المعروفة بطريقة (برايل) ولذلك احتاج لمن يقرأ له ويوفر عليه الوقت، وهيأ له قدرة السعيد فتاة تقرأ له ما يريد، وعندما سمعها تقرأ عليه شيئا من شعر راسين، أحس كأنه خلق خلقا جديدا، ومنذ تلك الساعة التى سمع فيها ذلك الصوت العذب لم يعرف إليأس إلى نفسه سبيلا.

فى فرنسا تخلص من جلبابه المعتاد، وبدأ يرتدى الملابس الأوروبية، تغيرت حياته تماما. وبعد أن أتقن اللغة الفرنسية، تعلم اللاتينية وأقبل على الحياة فى فرنسا وكأنه فرنسى الجنسية وصادق المفكرين والأدباء.. دور كايم مؤسس علم الاجتماع الحديث.. أندريه جيد.. جان بول سارتر.. ماسينيون..

فى عام ١٩١٧ استطاع طه الحصول على درجة الليسانس فى الآداب من السوربون، وفى العام التالى ١٩١٨ نوقشت رسالة الدكتوراه التى تقدم بها عن فلسفة ابن خلدون وقد كتبها باللغة الفرنسية مما يدل على مدى تمكنه منها

والتعمق فى الفكر والثقافة الفرنسية، وفى عام ١٩١٩ عاد الدكتور طه حسين إلى مصر - ولم يعد وحده بل عاد مع زوجته سوزان.. عاد ومعه درجة الدكتوراه من السوربون التى كانت مطمح آماله.. وأهم من ذلك أنه عاد إلى وطنه مؤمنا بالثورة على الجهل والفساد والظلم وعرف أن دوره مع العلماء والمثقفين هو تزعم وقيادة هذه الثورة.. ألم يعش فى باريس بلاد النور ويعايش التقدم والحضارة.

وبعد عودته إلى مصر عام ١٩١٩ عين أستاذاً للتاريخ القديم فى الجامعة، ثم أستاذاً لتاريخ الأدب العربى فى كلية الآداب. وهى المرحلة التى أصدر فيها كتابه «فى الشعر الجاهلى» الذى أحدث ضجة أذاعت اسمه فى العالم العربى والإسلامى.

لم تتوقف معركته هنا، إذ عندما عين عميداً لكلية الآداب (١٩٢٨) أثار هذا التعيين أزمة سياسية، وحاربه وزير المعارف وطالبه بالاستقالة، ولكنه أبى أن يستجيب حتى يعين أولاً، فكان له ما أراد، وعين يوما واحداً، وقع فى نهاره بعض الأوراق، وقدم فى مسائه استقالته. وأتى من جديد ميشو الفرنسى عميداً. ثم عين عميداً عام ١٩٣٠، وبعد يومين طلب إليه أن يستقيل ويعمل رئيسا لتحرير جريدة «الشعب» فرفض هذه المرة، طلبوا منه أن يمنح الدكتوراه الفخرية من الجامعة لبعض السياسيين. وهم: على ماهر، إبراهيم يحيى، عبد العزيز فهمى، توفيق رفعت..

فقاومهم وقال: «اسمحوا لى بالدكتوراه أن ترتخص وتمنح الهوى» وكان الثمن إحالته على التقاعد، فذهب إلى جريدة «السياسة» ليكتب فيها مجاناً، وكان يتولى رئاسة تحريرها فى غياب رئيس التحرير الأصلى الدكتور محمد حسين هيكل وقد حملته الصحافة من جديد إلى عمادة الآداب، إلا أنه سرعان ما أجبر على الاستقالة. وقد أفادته الاستقالة الثالثة حيث عين وزيراً للمعارف فى وزارة نجيب الهلالى (١٩٤٣)، لكن سرعان ما أبعد وأحيل على التقاعد، إلى أن جاء عام (١٩٥٠) وعين مرة ثانية وزيراً للمعارف حيث نفذ انقلابه هذه المرة، وأعلن مجانية التعليم الثانوى والفنى والجامعى الأمر الذى أغضب الملك فاروق، لكنه قال: «إنى كنت سعيداً حين تعلمت على حساب الدولة ومن الحق علىّ أن أتيح بعض هذه السعادة لأكبر عدد ممكن من شباب مصر، ولو استطعت لأتيحها لهم جميعاً». ثم

خرج طه حسين من الحياة السياسية وهو وزير فى عام ١٩٥٢.

وفى شهر أكتوبر عام ١٩٧٣ ودعت مصر، ومعها العالم العربى، عَلَماً من أعلام نهضتها الأدبية، ورائداً من كبار رجالات الفكر فيا. ودعت «طه حسين» إلى مثواه الأخير..

والحقيقة أن أمثال «طه حسين» لا يودعون إلى مثوى من تراب، لأن ما تركوه لقومهم هو النور الذى لا يستطيع أن يحده مكان ضاق أو اتسع، ولا يستطيع أن يحول بينه وبين الانتشار ظلام مهما بلغت رقته أو كثافته.

لقد ترك الرجل آثاره فكراً متحرراً يستشرف آفاق المستقبل لبلاده وأمته، ونضالاً لا يعرف الكلل أو المهادنة فى سبيل ما يؤمن به من مبادئ، وما يقتنع به عقله الذكى من أفكار، وما يمليه عليه ضميره اليقظ من مواقف.



الطهطاوى، رفاعة رافع

١٨٠١ - ١٨٧٣م

من أبرز رواد النهضة الفكرية العربية

تُقيَّم حياة العظيم بقدر ما تحفل به من عطاء، ومن غنى وخصوبة فى الفكر والتأمل والإنتاج، ومن آثار يخلفها العظيم تنعكس على حياة الناس وعلى عصره، وفى هذه الدراسة المركزة نستجلى لمحات من حياة عظيم اتسمت سيرته بالجد والمثابرة والعزم والإصرار والعصامية الرائعة، فقد ذهب إلى باريس إماما وفقيها، فتحول دارسا يتعلم ويبحث ويتأمل.

فعرف طريقه وحدد غايته، وواءم بين فكره وتقاليد عصره، ونزعته إلى التجديد وجمود قومه، وميله إلى الحرية واستبداد حكامه، وشغفه بالديمقراطية والحكم الدستورى، وكان الحكم المطلق الجائر فى أيامه.. إنه المعلم، الكاتب، الشاعر الثائر، الصحفى، الأديب، المؤرخ.. رفاعة الطهطاوى.

كان رفاعة رافع الطهطاوى أول مفكر قومى عربى حديث حاول القيام بعملية انفتاح فكرى للثقافة العربية على الفكر الغربى. فلم تكن مهمته مجرد اقتباس من الفكر الغربى بل قام بتحليل الاتجاهات التى لمسها بنفسه فى الثقافة الفرنسية من خلال المفاهيم العربية التى تحتوى على المعانى والقيم ذاتها أو ما يشبهها، حتى تكون قريبة ومحببة للقارئ والمثقف العربى. ولذلك جمع الطهطاوى فكره بين الأصالة والمعاصرة، فلم يغلق ذهنه المتفتح فى مواجهة اجتهادات إنسانية تنتمى إلى حضارات أخرى، وفى الوقت نفسه لم يلهث وراء هذه الاجتهادات والاتجاهات

حرصا منه على هويته الأصيلة والخاصة به. وكانت اجتهاداته. بطبيعة الحال. تستتبع القيام بعملية انتقاء واختيار واعيين، وكان من الوعى العميق بحيث لم يشوه الفكر العربى أو الفكر الفرنسى، بل أوجد بينهما قنطرة موضوعية تحمل فوقها اجتهادات الأخذ والعطاء. لذلك استطاع أن يحول إعجابه بالثقافة والسياسة الفرنسية إلى مادة شائقة لمواطنية من خلال بلورة جوهرها المنسجم مع الجوهر الفكرى للحضارة العربية.

من هنا كان كتابه «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز» عام ١٨٣٤ كتابا رائدا بكل ما تحمله الريادة الفكرية من معان. وإذا كان هذا الكتاب يحمل كل ملامح المعاصرة الحضارية، فإن الطهطأوى أصدر فى عام ١٨٦٨ كتابا يلقى الأضواء على الأصالة الحضارية فى تاريخ المنطقة العربية، وهو كتاب «أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل». الذى كان أول كتاب علمى حديث يؤلف باللغة العربية فى التاريخ القديم اعتمد فيه الطهطاوى على نتائج البحوث الأثرية والتاريخية حتى عصره.

وكان إحساس الطهطاوى باللغة العربية كقاعدة حضارية وفكرية للقومية العربية إحساسا قويا وعمليا فى الوقت نفسه. ففى عام ١٨٦٩ أصدر كتابه «التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية» الذى كان أول عرض عربى حديث للنحو، لم يؤلف بأسلوب المتن والشروح، كما فعل معاصرو رفاعة بل هو كتاب تعليمى سهل العرض به جداول ايضاحية كثيرة على نمط الكتب الأوروبية فى النحو الفرنسى والنحو العربى. فلم يقتصر حماس الطهطاوى للغة العربية على الإشادة بعبقريتها ثم إضافة تعقيدات جديدة إليها كما أغرم بذلك الكثير من النحاة والشراح، بل أراد ان يجعلها فى متناول الجميع. لأن الإنسان العربى لابد أن يجيد اللغة العربية عن حب وحماس.

لم يقتصر النشاط الفكرى للطهطاوى على تحديث الدراسات اللغوية بل توغل فى مجال التثقيف السياسى والاقتصادى والاجتماعى عندما أصدر فى عام ١٨٧٠ كتاب «مناهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية» الذى كان كتابا رائداً فى مجاله ايضا.

كما يرى الطهطأوى أن بناء الإنسان العربى لا يتأتى إلا بتربية عقله وتهذيب نفسه. لذلك أصدر فى عام ١٨٧٢ كتاب «المرشد الأمين للبنات والبنين» وكان أول كتاب عربى حديث فى التربية بصفة عامة وتعليم البنات بصفة خاصة، اعتمد فيه الطهطاوى على الدراسات الأوروبية فى مناهج التربية المعاصرة له، وضمنه اقتباسات كثيرة من المؤلفات العربية فى الدين والأدب، وركز فيه أيضا على جوانب مختلفة من التربية السياسية والتربية الدينية.

وبالإضافة إلى جهوده العملية فى حقل التربية والتعليم، فقد كان الطهطأوى من رواد الصحافة العربية المعاصرة حين أشرف على القسم العربى بجريدة «الوقائع المصرية» التى كانت تصدر بالتركية والعربية فى آن واحد. كما أنشأ فى ١٨٧٠ مجلة «روضة المدارس» التى كانت تصدر نصف شهرية باشرافه، ونشر بها مقالات ثقافية كثيرة وفصولا جمعت بعد ذلك فى كتب مثل كتاب «القول السديد فى الاجتهاد والتقليد»، و«رسالة البدع المتقررة فى الشيع المتبربرة».

وريادة الطهطاوى فى ميدان الترجمة والانفتاح على حضارة العصر ليست فى حاجة إلى تأكيد. يكفى أن نذكر قيامه بإنشاء مدرسة المترجمين (مدرسه الألسن) فى عام ١٨٣٥. بل وباشر الترجمة ومارسها بنفسه على أوسع نطاق ممكن، ففى عام ١٨٣٨ قام بمراجعة ترجمة ونشر كتاب: «بداية القدماء وهداية الحكماء» وكان أول كتاب حديث ينشر باللغة العربية فى التاريخ القديم. وفى عام ١٨٤٣ قام بترجمة ونشر كتاب «مبادىء الهندسة» وألحق به معجما للمصطلحات الهندسية. وفى عام ١٨٤٩ راجع ترجمة كتاب: «الروض الأزهر فى تاريخ بطرس الأكبر». وفى عام ١٨٦٨ قام بترجمة وطبع قانون التجارة الفرنسى.

كانت مهمة الطهطاوى شاقة ومرهقة لأنه يجب ألا يغرب عن بالنا أنه ما أن أزف القرن التاسع عشر حتى كانت المسافة التى تفصل الغرب عن الشرق شاسعة جدا- لطول ما غفا الشرق - بحيث أصبح سد الهوة بين الجانبين، من المهمات الضخمة الهائلة. فلم تكن تيارات الفكر الغربى الحديث قد مسته بعد، وكان إلى جانب هذا قد انقطعت صلته الحية بتقاليده الخاصة العريقة. لذلك كان من

الطبيعى أن تعمد طليعة الرواد والوسطاء بينه وبين الغرب، إلى التحرك ببطء وحذر، لئلا يفزع مواطنوها فيعمدوا إما إلى النفور العنيف من الغرب والانغلاق فى مواجهته، أو إلى الانفتاح الأهوج الانتحارى الذى لا تقل نتائجه خطورة عن الانغلاق.

هكذا جعل الطهطاوى من مصر أول منطلق تسرب منه الفكر الغربى إلى أنحاء العالم العربى.

وتتجلى ريادة رفاعة الطهطاوى كأوضح ما يكون فى عينه الناقدة التحليلية التى تنأول بها الملامح السياسية السائدة فى فرنسا فى عصره. فلم يترجم الوثائق السياسية كالميثاق الذى أعلن به الملك لويس الثامن عشر عودته إلى الحكم، بل وضع تحليلا نقديا للنظام السياسى الفرنسى برمته، فى ضوء تقاليده العربية الخاصة.

إن ريادة الطهطاوى الفكرية تحتم على الباحثين فى مجال القومية العربية أن يتجنبوا الوقوع فى الخطأ الذى يؤدى بهم إلى دراسة الفكر العربى السياسى - ابتداء من القرن التاسع عشر وحتى الآن - باعتباره نظاما مغلقا، مستقلا عن التأثير الغربى. فلا شك أن المفاهيم الغربية أصبحت تشكل جزءا لا يتجزأ من التقاليد العربية سواء على المستوى الفكرى السياسى المجرد أو على المستوى التطبيقى من خلال المؤسسات السياسية المنتشرة فى شتى أرجاء العالم العربى.

ولعل أروع ما فى ريادة الطهطأوى الفكرية وغيره من الآخذين بالمدنية الغربية الأوائل، أنهم لم يكونوا فى موقف دفاع، ولا تبرير ولا دعاية ولا انبهار. إذ أنهم كانوا من الرواد الأوائل أيضا فى إدراك الأطماع الخفية التى جاء الاستعمار الغربى ليحققها تحت ستار خادع من الحضارة الحديثة. وكانت الصلات الفكرية والثقافية والحضارية التى بدأت فى مثل ذلك الجو من الود والتفاهم المثمر قد تحولت بعد ذلك إلى توترات وصراعات ناتجة عن السياسة الاستعمارية التى اتبعتها دول الحضارة الغربية فى القرن التاسع عشر. وانتقلت علاقة الفكر والحضارة بين العرب ودول الغرب من مرحلة المبادئ الإنسانية والمثل القومية إلى مرحلة

الصـراعـات والمدافع والأسـاطيل، أى إلى المناخ الذى لابد ان يصـمـت فـيـه صـوت الفكر.

وكان الطهطاوى رائداً ايضـا فـى موقفـه من مفـهـوم القـومـيـة. فـقـد كـان الوعـى السـيـاسـى فى العـالم الإسـلامـى حتى عـصـر الطهطاوى نـابعـا مـن تقسـيم الأفـراد المقـيـمـين فى الـدولة الإسـلامـيـة وفق دياناتهم ومـذاهبـهم الدينيـة، لكن الطهطاوى أدرك بحسـه وثقـافـتـه وفكره أن الوعـى السـيـاسـى الحـديث يتخـذ مـعـيـار الانتـمـاء القـومـى أسـاسـا لتحـديد مـوقف المواطنين من الدولة. وكـانت ريادة الطهطاوى فى التأكيد على فكرة الانتماء القومى الذى يجعل ابناء الوطن الواحد إخوة فى القومية بصرف النظر عن اختلافهم فى الدين.

ورفـاعـة الطهطاوى بعـد هذا كله هو المـمـهـد للحـركـة القـومـيـة والدسـتـورية التى دعـا إليـهـا وفلسـفـهـا لطفى السـيـد، كـمـا أن حـركـة مـحـمـد طلعت حـرب للنهـوض بالاقتصاد القومى وتمصيره ترجع إلى أفكار الطهطاوى وتوجيهه، فقد خاض كثيرا فى هذا الموضوع ولمسه من نواح عدة سابقا عصره بأفكاره المتقدمة، وهكذا نجد الطهطاوى رائد بعث، وإمام نهضة، امتدت مع الزمن إلى كافة جوانب الحياة والفكر فى مصر، وكان دوره فيها دور المعلم الذى يرشد ويوجه ويبصر.



عائشة عبد الرحمن

بنت الشاطئ

١٩١٣ - ١٩٩٨م

«إليك فى غسق الدجى. والأطياف سارية. والأرواح هائمة. إليك فى جوف الليل والكون هاجع والدنيا نائمة. إليك فى رهبة الصمت. وقد سكنت الأصوات. وثقلت الأجفان وهمدت الأجساد. إليك فى روعة التجلى. وقد أخليت لى الآفاق، وفتحت أبواب السماء.. إليك إليك أرفع نجواى».

هذه مناجاه للدكتورة «عائشة عبد الرحمن» تصور نفسية هادئة ناعمة فيها روحانية خالصة تبدو واضحة فى كل آثارها وإنتاجها. وهى أصيلة فى روحانيتها فإن البيئة الدينية التى استهلت حياتها بها أمدت روحها بذلك الفيض من الإيمان.

وعلى لسانها تقول: «كان والدى شيخا بالمعهد الدينى بدمياط، ووالدتى ربة بيت وثقافتها كانت كثقافة سيدات عصرها وغير حاصلة على مؤهل علمى. عدد الإخوة والأخوات ست بنات وثلاثة ذكور.. وكان تعليم البنات فى المنزل على المنهج الدينى ومنهج الازهر الشريف، ومنهج القرآن الكريم، على منهج المدرسة الإسلامية، على يد والدى وزملائه ولم تستطع واحدة من أخواتى أن تتبع الطريق الصعب لأن الخروج للحياة والتعليم فى جيلى كان غير مسموح به لبنات العلماء ولذلك تعلمنا فى البيت لكنى تعلقت باستكمال التعلم وأخذت الصعب وسرت فيه.

أما ترتيبى الميلادى، فلقد بكرت أمى بأنثى ثم أنا الثانية ولقد وهبنى والدى قبل مولدى للعلوم الدينية العربية الإسلامية، فالوراثة العلمية فى البيت، فلقد كان

جد أمى لأمها شيخ الأزهر وهو الشيخ إبراهيم الدمهوجى، أما إخوتى الذكور فتعلموا فى المعاهد الدينية ثم استكمل أحدهم فى دار العلوم حتى حصل على الدكتوراه ويعمل أستاذا بتربية عين شمس ومعار لمكة المكرمة...

ولهذه التنشئة الدينية فى بيتنا آثار علىّ فإننى شديدة المحافظة والأصالة وأنا اعتبر ذلك إيجابيا فجذورى راسخة فى بيئتى الإسلامية، ربما أكون معقدة بعقدة الأصالة لا بعقدة الفرنجة فتشكيل شخصيتى إلى الآن تم فى المدرسة الإسلامية منذ نشأتى ومن قبل أن أولد وإلى أن أموت...

تمكنت من التغلب على النواحى السلبية إذا اعتبرت أنه فى جيلى كان غير مسموح لبنات العلماء أن يخرجن للتعليم وغير مسموح للظهور فى الحياة العامة وتغلبت على هذه الناحية وتقدمت من المنازل إلى الامتحانات للحصول على الشهادة الابتدائية فى المدرسة الحديثة الابتدائية وحصلت على البكالوريا أيضا من منازلهم وبذلك أكون قد حصلت على كل الشهادات الدراسية من منازلهم، وكان من الصعب علىّ جدا التحصيل فى الجانب التطبيقى العملى فى النواحى العلمية لأنى لم أدخل معملا أبدا. ولكن الله سلم ونجحت، ودخلت الجامعة وتخرجت فى قسم اللغة العربية كلية الآداب جامعة القاهرة وحصلت على شهادة الدكتوراة سنة ١٩٥٠م...

أما من ناحية الظهور فى الحياة العامة فلقد ظهرت باسم مستعار (بنت الشاطئ) لكى لا أحرج تقاليد البيت فانتميت إلى مهد مولدى على شاطئ النيل بدمياط.

تزوجت من أستاذى بالجامعة الأستاذ أمين الخولى وأنجبت بنتين وولدا، البنت الأولى أمينة حصلت على دكتوراه فى الرياضيات من جامعة فيينا بأعلى تقدير وعينت بالجامعة لسنة واحدة ثم لحقت بالرفيق الأعلى. ابنتى الثانية مدرسة فى جامعة فيينا. والابن مهندس معمارى...

وقد كان لزواجى أثر إيجابى كبير على إنجازاتى فأنا كنت زوجة لأستاذى وما زلت محتفظة بالتلمذة عليه فإذا كان زملائى فى الدراسة درسوا على الأستاذ الخولى بضع سنين فقد صحبته عمرى كله...

وبذلك انتقلت من مدرسة والدى إلى مدرسة زوجى، أخذت من المدرسة الأولى الإسلامية ومن الثانية المنهج...

أولا: بدأت بالمدرسة الإسلامية ولم استطع طبعا التقدم للأزهر لأنه لم تكن هناك كليات بعد فتقدمت من منازلهم إلى امتحان كفاءة تعليم المعلمات. نظام مدارس تعليم المعلمين والمعلمات لأنه لا تحتاج إلى لغات أجنبية فتقدمت من منازلهم سنة ١٩٢٩م وأنا صغيرة جدا فكنت أولى الناجحات فى القطر كله. وبعد سنة ١٩٣١م تقدمت إلى الابتدائية من منازلهم وكنت الخامسة على القطر كله، ثم فى السنة التالية مباشرة سنة ١٩٣٣م بعد سنة واحدة تقدمت لامتحان الكفاءة الثانوية، كنت أحصل على المجموع من الرياضة النظرية ومن المواد الأدبية كلها لكن كانت العلوم الطبيعية والكيمياء صعبة جدا وذلك يرجع لعدم دخولى معملا فى حياتى...

ولقد تدرجت فى الدرجات العلمية من درجات الجامعة إلى الأستاذية بدأت بدرجة معيدة إلى أستاذة وأنا الآن أستاذة فى الدراسات العليا فى كلية الشريعة جامعة القرويين بالمغرب - أستاذة التفسير والدراسات العليا..

ولقد كانت وما زالت لى مؤلفات عديدة منها الأدبية وهذا كان المحول فى حياتى مثل قصص صور من حياتى. صور من واقع حياة جيلى الخارجات من الحريم إلى الجامعة...

ولقد نلت جائزة المجمع اللغوى فى القصة القصيرة وفى النصوص عن تحقيق رسالة الغفران للمعرى، ثم نلت جائزة الدولة التقديرية، وجائزة جامعة الدول العربية، حقيقة لا أتعلق ببعض الجوائز إنما أهتم جدا بـ «من أنا» فلقد خرجت مدرسة علمية فى المشرق ومدرسة علمية فى المغرب، لقد خرجت طلبة بعضهم وصل إلى دكتوراه الدولة فى العلوم الإسلامية، والبعض منهم ماضون على الطريق، ومن جانب آخر فقد قدمت رسائل ماجستير ودكتوراه.

وفى جامعة إيطاليا معهد الدراسات الشرقية تعد ابنة أحد المستشرقين رسالة دكتوراه عنى. وفى طشقنده أيضا رسالة ابنة «بابا خانوف» مفتى المسلمين هناك نالت بها درجة الدكتوراه بدراستها عن شخصيتى الأدبية وفى الدانمارك وهولندا

أيضا هناك من أعدوا رسائل دكتوراه عنى فى الدراسات الإسلامية...

الإضافة التى قدمتها هى فى مجال الدراسات الإسلامية، ولقد أخذت من أمتى فوق ما أستحق فى الحقيقة فأنا عضو فى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية وعضو فى المجالس القومية المتخصصة، عضو أصلى فى المجلس الأعلى للثقافة، عضو فى لجنة محافظة القاهرة بالتعيين عندما أسس لأول دورة، وكذلك فى المؤتمرات فلقد شاركت ممثلة لمصر للجامعة فى مؤتمرات المشرق والمغرب..»

ولقد كون شخصية «بنت الشاطىء» إلى جوار هذا العامل: عاملان آخران هما الريف والماء. فهى ريفية بالطبع. ولها من ريفيتها طابع المحافظة. ولها رأيها المعتدل فى أمر المرأة فهى ترى «رسالة» المرأة فى بيتها - الذى هو مملكتها - وبين أولادها وزوجها. وقد بدأت حياتها الأدبية بالكتابة عن الريف المصرى.

وهى محبة للشاطئ. «شاطىء دمياط» الذى ولدت عنده. وكان لها معه مأساة. وله فى نفسها ذكريات لا تمحى فقد شهد الشاطىء مصرع أم شابة. ورأى فاجعة بيت وأحزان أسرة. ولعل هذا هو الذى حملها على أن تطلق على نفسها هذا اللقب. ويتميز «أدب» عائشة بالحزن والكآبة. وذلك هو طابع نفسها، وهى تعلله بأنه يرجع إلى «نفسية» أمها التى أصيبت قبل ولادتها فى أمها الشابة، حيث ذهبت إلى شاطىء النيل فسقطت فيه ولم يعثر على جثتها.

ولقد جاهدت عائشة طويلا وظلت تدفع عجلة الزمن من مدرسة متخرجة من مدرسة المعلمين الأولية إلى أن حصلت على أرقى درجات العلم..

ويعطى أدب عائشة صورة الأنثى فى مختلف صوره. فهى ابنة بيئتها. وبنت طبيعتها.. تقول « ... حياة الأنثى مثقلة بهموم كبار. وهى تبدأ من طفولتها الباكرة. إذ تسىء الدنيا استقبالها وتلقاها كارهة إلا فى القليل النادر. ففى القصر والكوخ. وفى البادية والحضر وفى الشرق والغرب جميعا. تخرج الأنثى إلى الدنيا غير مرغوب فيها. ولو نشأت فى بيئة نجحت بناتها. وخاب بنوها. فالقوم لا ينتظرون بها الأيام ليعرف مكانها فى الدنيا. وإنما يتلقونها منذ اللحظة الأولى واجمعين كارهين..

وإذا ما اجتازت الأنثى مرحلة الانتظار. ومضت إلى بيت الزوجية انتظرتها

هناك.. لسنا نعنى أعباء البيت. ومطالب الحياة الزوجية فهى جميعا مما يستطاع حمله. ويهون احتماله. وانما نشير إلى نضال الأنثى فى سبيل الاحتفاظ برجلها وحماية بيتها من التصدع والانهيار.. وهو نضال مر قاس طويل. يزداد على الأيام قسوة ومرارة. فالزوجة فى أول عهدها بالزواج تجد فى قوتها المذخورة وشبابها المفتح وتخففها من أعباء الأمومة ما يعينها على هذا النضال. حتى إذا تقدمت بها الأيام فلت أسلحتها تلك بما تفقد من نضرتها وجدتها.. وما تبذل لأبنائها على حساب زوجها..».

وهى تصل إلى أبعد من ذلك. بل لعلها تضع هذه القاعدة فى صورة حية حينما تتحدث عن قصة ارتباطها الروحى بزوجها وأستاذها «أمين الخولى» العالم النابه.

«سبع سنوات من التلمذة المتصلة. صحبت فيها أستاذى أتلقى عنه وآنس إليه واغفر له ما ألقى من مشقة الدرس! سبع سنوات لا أذكر أنى تخلفت فيها مرة واحدة عن حضور مجلسه العلمى وكنت أجد فيه الأستاذ والموجه والزميل والصديق، وأشعر نحوه بمثل ما يشعر به المريد نحو شيخه. فكانت تلمذة روحية عقلية. عميقة قوية. تستجيب لما فى شخصيتى من أثر النشأة الأولى فى صميم بيئة صوفية. وفى كنف أب شيخ له تلاميذه ومريدوه».

وجملة القول أن «عائشة» أديبة أصيلة. ذات أسلوب نسوى رقيق. وأنها كلفة بالترحال وقد زارت أجواء كثيرة من أوروبا والشرق وكتبت فصولا ممتازة من أسبانيا والحجاز وسفوح الألب.

وهذا ما كتب عن الكاتبة «بنت الشاطىء».

● سر جمال أسلوبها أنها حفظت القرآن فى صباها مما منحها هذا الوضوح وهذه البلاغة بالإضافة إلى البساطة والإشراق فى الديباجة.

● الوفاء لأبويها يبدو فى أكثر من موضع فهى قد أهدت كتابها «بطلة كربلاء» إلى والدها لأنه هو الذى هداها إلى هذا الاتجاه..

● تحتفظ لمدينتها «دمياط» بذكريات حزينة وتصورها فى صورة رائعة.

● القصص التى كتبتها هى مجموعة من الذكريات مرتبطة بها جميعا.

العقاد، عباس محمود

١٨٨٩ - ١٩٦٤م

أغزر الكتاب العرب المعاصرين إنتاجا وأقواهم حجَّة

حين نؤرخ لعمالقة الأدب والفكر فى مصر.. فلابد أن يقفز إلى أذهاننا لأول وهلة اسم «عباس محمود العقاد» فهو واحد من الشوامخ الذين يعبترون علامة بارزة للحياة الأدبية والفكرية فى مصر.. لقد ضرب بسهم وافر فى كل فروع الفكر والأدب والفن.. فهو الأديب والقصاص، والروائى، والشاعر، والباحث، والمحلل، والصحفى، والمؤرخ، والكاتب السياسى، والفيلسوف.. صاحب الأسلوب الفريد، الذى يعتبر مدرسة أدبية متكاملة.

بدأ حياته بالصراع فهاجم شوقى وحافظ واشترك مع المازنى فى إنشاء «الديوان»، ثم مضى يصارع فى السياسة فى عنف وقوة عشرين عاما. كان قلمه أمضى الاقلام واشدها جرأة وحماسة، وكانت خصومته أقوى شماسا وعنادا وقسوة.

استهل حياته الأدبية قارئا، وقد اختار أساتذته بنفسه ولم يفرضهم عليه أحد «لأنهم كانوا جميعا مؤلفين مشهود لهم برسوخ القدم فى صناعة التأليف أقر منهم من أشاء وأعرض عمن أشاء وأطلبهم حين أريد وحيث أريد»..

وتحت سماء أسوان الصافية بدأت نفس العقاد تتفتح، وإن كان المرض الذى ألم به فى مطلع الشباب قد أنشأ فيه طبيعة الاعتكاف وأفسح له المجال للدراسة والقراءة والتأمل.. وربما كان من أثره «أن استقر فى قلب العقاد حب الحياة

والتشبث بها والكفاح فى سبيلها، فإذا واتاه الظفر فى عراك المرض ازداد تعلقا بالحياة وغلبة فى التمتع بأطايبها.. وكان من عقبى ذلك الظفر أن أورثه زهوا وعزة وثقة بالنفس ورفاهة شعور بالكرامة، وزاد بين جنبيه نزعة المغالبة والمطاولة والإصرار».

كان يقرأ ثلاثة أنواع من الكتب «ما يبحث فى الأدب والوصف. وما يتناول علم ما وراء الطبيعة والحياة الأخرى، وعلم الحيوان وما يتصل به فيما يختص بحياة الحشرات والحيوان وطباعها وغرائزها».

وكان يقرأ كتبا كثيرة لا بقصد الكتابة فى موضوعها على الإطلاق إذ أن القراءة «هى التى تعطيه دون غيرها كثير من حياة واحدة فى مدى عمر الإنسان الواحد، لأنها تزيد هذه الحياة من ناحية العمق، وإن كانت لا تطيلها بمقادير الحساب، لا أحب الكتب لأنى زاهد فى الحياة. ولكنى أحب الكتب لأن حياة واحدة لا تكفينى..».

وفى الصبا الباكر رسم العقاد صورة حياته على أحد ثلاث شخصيات، قائد عسكرى، أو ناسك صوفى، أو عالم زراعى، ثم تبلورت هذه الصور الثلاث حين وجد القلم وبدأ يكتب.

وتمنى العقاد «الأدب» لأنه تمنى التعبير عن النفس «... لأن التعبير عن النفس يجتمع فيه عندى تحقيق وجودها واستكناه حقيقتها وحقيقة ما حولها، وليس فوق هذا المطلب من مطلب رفيع يتطلع إليه موجود شاعر بوجوده».

واشتغل العقاد بالتدريس، ثم بالصحافة، ثم انصرف إلى الأدب الصرف وكتب المقالة والقصة والقصيدة، ولكنه يبلغ غاية قوته فى أدب المقالة التحليلة على وجه أخص.

العقاد السياسى يرمى ويرمى ويُطلم وَيظلم فى كل وقت فهو من أبناء السماء عند قوم ومن أبناء الأرض عند آخرين أما العقاد الكاتب الأدبى فهو من الطبقة الأولى بشهادة الجميع..

والعقاد الناقد لا ينحرف عن القصد إلا فى حال واحدة حال الحكم على من

يعاديه من المعاصرين، أما حكمه على المفكرين الذين بعد عهدهم فى التاريخ فهو غاية فى العدل والسداد..

وهو يحدد موقفه من الناس تحديد الخبير بالناس المتمرس بالتجارب «بأنه لا ينتظر منهم كثيرا ولا يطمع منهم فى كثير، والطمع فى إنصاف الناس إذا كان فى الإنصاف خسارة لهم أو معارضة لهواهم، هو الكثير الذى ما بعده كثير، فهم منصفون إذا لم يكلفهم الإنصاف شيئا ولم يصدمهم فى هوى من أهوائهم».

لم يرحل العقاد، ما عدا أسفار قصيرة إلى فلسطين والحجاز، وهو يحب أن يسافر إلى أنحاء العالم من مكانه عن طريق الكتب.

هذه ملامح الصورة النفسية وخطوطها الرئيسية كما رسمها فى أكثر من موضع من كتاباته، وهى فى مجموعها تعطى صورة رجل كونته تصاريف الأيام ومنحته الخبرة الطويلة، وأتاح له الاتصال بمختلف البيئات الأدبية والسياسية طبيعة متعددة الجوانب.

ومذهبه فى الأدب ورأيه فى المرأة كلاهما غاية فى الاستواء فهو يكره الأدب المكشوف ويحاربه، ولا يجامل المرأة فى تملق رضائها بالموافقة على رأيها أو هواها.

هذا غاية الاستقامة فى الرأى والنزاهة الفكرية عن المجاملة ومبعث هذا أن العقاد يؤمن برأيه ويقدر مكانة أدبه.

لعل أبرز حادثين فى حياة العقاد: هما سجنه سنة ١٩٣٤ ويبدو أن السجن عدل من اتجاهه السياسى وكان حافزه على الخطوة التى تلت ذلك حينما تحرر من الحزبية بعد سنوات، وإن كان اكسبه مزيدا من الاعتداد والوقار.

الأمر الثانى البعيد الأثر فى حياته وصول الألمان إلى العلمين وهجرته إلى السودان، وكان يحمل فى أيام الحرب على الألمان حملات عنيفة وألف عن هتلر كتابا تناوله فيه تناولا يتفق مع نزعته الديمقراطية.

لم تطل هجرة العقاد فى السودان ولكنه خسر منها كثيرا. خسر الكثير من ذخائره الأدبية الخالصة التى لم يكن بد من إتلافها.

ويصور العقاد نفسه على قمة الخمسين فيقول: «إن الخمسين نهاية الكسب او

التحصيل من الحياة، ليس بعدها ما يأخذه الإنسان من الدنيا ويضيفه إلى تكوين عقله أو جسمه، ولكنه لا يزال بعدها يعطى الكثير ويفقد الكثير..».

فإذا بلغ قمة الستين صور مدى التحول الذى أكسبته إياه هذه السن.

فإذا أردنا ان نتعرف سائر حياة العقاد الوجدانية تيسر لنا ذلك على أوسع نطاق وأوفاه.

«.. إن الإنسان لا يجد نفسه فى شىء كما يجدها فى الحب وأنه لا يعرف ما فيها من قوة وضعف ومن عطف وجمود ومن رحمة وقسوة ومن خفايا وظواهر ومن فجيعة وضحك ومن حكمة وحماقة ومن إنسانية وحيوانية كما يعرف ذلك جميعه فى الحب فالحب ومعرفة الناس صنوان..»

وهو يصور الحب تصوير العارف الخبير «.. إن الرجل يعشق الأنثى فى مبدأ الأمر لانها امرأة بعينها وامرأة بصفاتها الشخصية، وخلالها التى تتميز بها سائر النساء، ولكنه إذا أوغل فى عشقها وانغمس فيه، احبها لأنها المرأة التى تتمثل فيها الأنوثة بحذافيرها. وتجتمع فيها صفات حواء وجميع بناتها، فهى تثير فيه كل ما تثيره الأنوثة من شعور الحياة.

وخلاصة التجارب كلها فى الحب: أنك لا تحب حين تختار، ولا تختار حين تحب، وإننا مع القضاء والقدر حين نولد وحين نحب وحين نموت..».

وبعد.. فالعقاد تاريخ طويل ممتد فى الأدب العربى المعاصر منذ عام ١٩١١، وهو يمثل الخلود بعد ما سكن الصراع الحزبى وبدأ يدخل باب الأدب الخالص، على أن هذا لا يعنى إنكار آثاره من قبل ولكن الاتجاه الاخير الذى أخذ صورة الاستقرار يمثل العقاد بعد ما تبلورت أفكاره واستقر هدفه وتوضح منهجه، لقد تحول العقاد وتنقل فى هذه الفترة بين الكتابة والسياسة والكتابة الأدبية والنقد والتراجم وتلخيص الكتب ودراسة شخصيات سياسية «كسعد» وشاعرة «كابن الرومى» و«المتنبى». ثم بدأ يتصل بالتراث الإسلامى فكتب عبقريات محمد وعمر وأبى بكر وعلى والحسين وبلال. وكتب «الله» و«فلسفة القرآن» وهنا استقر العقاد على طابعة الأصيل «كتابة التراجم النفسية».

ثقف العقاد نفسه وقدمته السياسة إلى الجماهير فى صورة ضخمة وظل فترة طويلة دعامة من دعائم الكتابة الصحفية الحزبية، ولم يحل هذا التبريز فى ميدان السياسة دون أن يزاول العقاد الأدب فيكتب فيه يوما كل أسبوع ويصدر بين حين وحين كتابا من مؤلفاته، أو مجموعة من مقالاته.

حتى إذا توقف الصراع السياسى الداخلى إبان الحرب العالمية الثانية أنتج أجود آيات أدبه..

وحين يتصل تاريخ العقاد الأدبى بالسياسة يبدو فى صورة «السياسة» نفسها، وهى صراع وخصومة ونقد وهجاء قد يصل غاية الشوط فى العنف والشماس وقد يبدو فى صورة المتناقضات.

أما حين يخلص للأدب الصرف فإنه يبدو غاية فى القوة والاستقامة والوضوح.



عمر الخيام

١٠٤٨ - ١١٢٣م

صاحب الرباعيات التى فلسفت الحياة

قليل من الشعراء من فلسف الحياة، وعقد مناهج البحث فى حقائق الكون، ومشكلات الفكر الإنسانى البحت التى لا تكاد تتصل بالتجارب والقواعد والمقارنات..

وطبيعى أن تظفر هذه القلة من الشعراء بعناية النقاد، لكثرة ما استحدثوه من أوجه الخلاف فى الرأى، فيما قالوه، وفيما تناولوه فى أشعارهم من موضوعات تتناحر من حولها الأفهام.

من هؤلاء الشاعر الشرقى «عمر الخيام» الذى اختلف الناس فى معرفة حقيقته: فقال عنه البعض إنه زنديق ملحد، وقال البعض الآخر إنه مؤمن موحد، واتخذ بعض الصوفيين من أشعاره أورادا يترنمون بها فى أذكارهم!!

فالخيام هو الشاعر الشرقى الوحيد الذى ترجمت كل آثاره إلى لغات العالم المختلفة، وكوفىء الشاعر الإنجليزى «فتزجيرالد» على ترجمته الإنجليزية له بدفنه فى مقبرة العظماء «وستمنستر» وتقوم فى بعض جامعات العالم أقسام خاصة بدراسة أدبه!

روح العصر وأثرها على فلسفة الخيام

إن كل من يتصدى لدراسة عمر الخيام وفلسفته ورباعياته عليه أن يفهم روح العصر الذى عاش فيه ويكشف عن القيم العقلية والروحية والعاطفية التى كانت

سائدة فى العصر الذى عاش فيه رجال من أمثال ابن سينا والغزإلى وعمر الخيام وبلغوا فيه هذا المجد العلمى الممتاز.

ليس من شك أن الفُرس قد تركوا أثرا قويا فى الثقافة الإسلامية بوجه عام لطول احتكاك العرب بالفرس منذ أقدم الأزمنة. لقد كان الخلفاء الأمويون يباشرون سلطانهم من دمشق عاصمة الخلافة فى ذلك الوقت، وكان همهم الأكبر الاحتفاظ بالقوة العربية وبالتقإليد العربية وكان التوحيد عندهم أهم أركان العقيدة الاسلامية.

ومن الظواهر الملحوظة فى عصر الخيام ظهور طائفة من رجال الدين همهم الأكبر مقاومة الحرية الفكرية ومناوأة الأحرار ومعارضة التجديد والإصلاح.

وهذا النوع من رجال الدين لا يخلو منه عصر من العصور، ولكنهم كانوا كثرة فى عهد الخيام، فكانوا بلية على الناس، اذ زجوا بأنفسهم فى كل النواحى الاجتماعية والسياسية، وأهدروا كثيرا من الدماء الزكية بفتاويهم الهزيلة التى بنيت على الحسد والحقد والنفاق. فإذا ما تألق نجم أحد من الناس وذاع صيته لعلم أو أدب فاض عنه تصدوا لمحاربته وألصقوا به مختلف التهم والرذائل ولا يستريح لهم بال إلا إذا قضوا عليه وإن ارتكبوا فى سبيل ذلك أكبر الآثام.

حياته وآثاره

قيل فى تفسير اسمه أن أباه كان يشتغل بصناعة الخيام أو أن عمر ذاته كان من رجال هذه الصناعة، غير ان هذا التفسير لا يستقيم بحال مع ما عرف من ثقافة الخيام وسعة اطلاعه ومركزه الاجتماعى ونباهة ذكر الصحاب الذين كان يجالسهم ويتردد عليهم. فلم يكن من المألوف فى ذلك العصر الذى ازدهرت فيه فارس بالعلوم والآداب أن يبعث أحد المشتغلين بمثل هذه الحرف الوضيعة بابنه إلى المدارس ودور العلم. ولم يكن من المحتمل بحال أن يدرس هذا الابن الفلسفة والرياضيات، وأن يصبح قبل أن يصل إلى منتصف العمر من رجال الفلك المشهورين، وأن يجالس الأمراء وعليَّه القوم.

والغالب أن كلمة الخيام تدل على لقب له ولأسرته، ولعله كان اسم قبيلة صغيرة مغمورة. وتدل جميع الحقائق المعروفة على أن الخيام قد انحدر من أسرة

لها بعض المكانة وكانت على قدر من الثراء.

وليس من الممكن أن نحدد على وجه الدقة تاريخ مولد عمر الخيام، على أن المتواتر انه ولد بين عامى ١٠٣٠م و١٠٥٠م، وانه توفى فى نيسابور عام ١١٢٣م. وإذا أخذنا بتاريخ مولده فإن الخيام يكون قد عمر أكثر من مائة سنة، وأنه ظل إلى آخر حياته محتفظا بقوة عقله وتفكيره، وأنه كان يحضر مجالس العلماء والفلاسفة وكان يجادل فى الدين والفلسفة.

ولا ينكر أحد فضل الأسفار والتنقل فى مختلف بقاع الأرض فى تكوين خلق الإنسان ومزاجه، هذا إلى جانب ما يفيده من هذه الأسفار من الاطلاع على طباع الناس وأخلاقهم، وفيزداد خبرة وحنكة.

وهناك قول مأثور عند الفرس، وهو أن العاقل المحنك هو من رأى الدنيا.

لقد سافر الخيام كثيرا إبان عمره المديد، وزار أنحاء العالم المتمدين فى ذلك الوقت، وأخذ يضرب فى الأرض حتى بلغ بيت الله الحرام وطاف حول الكعبة، فارتد إليه إيمانه، واهتز قلبه بنجوى الله.. ليرجوه التوبة ويسأله المغفرة والرحمة.

ويعود من حجه إنسانا غير الذى عرفته نيسابور، لا يشغله فى حياته غير التهجد والصلاة!

وقد زار الخيام أيضا مدينة «مرو» ومكث بها مدة طويلة، وكانت مرو فى ذلك الوقت قصبة السلاجقة، كما زار بلخ وبخارى. ومن المحقق أنه ذهب إلى بغداد، وكان لا يزال للخليفة بها ظل من السيادة الدينية، وإن كان السلطان السياسى فى يد الأتراك، وليس من شك أن الخيام قد أفاد كثيرا من زيارته لبغداد، إذ كانت فى ذلك الوقت كعبة العلم والعلماء، يؤمها الشعراء والحكماء من جميع الجهات، وكانت حافلة بالمعاهد ومجالس العلم التى يتناظر فيها العلماء فى الحكمة والفقه وشتى العلوم المعروفة آنذاك.

وفى عام ١٠٧٤م عزم السلطان ملكشاه السلجوقى - أعظم ملوك المسلمين فى ذلك الوقت - على تعديل التقويم السنوى، فكان عمر الخيام من بين علماء الفلك السبعة الذين انتدبوا لهذا العمل فوضعوا التقويم الجلالى نسبة للسلطان جلال

الدولة ملكشاه. وقد قام الخيام نفسه بوضع الجداول الفلكية الخاصة بهذا التقويم.

وقد أعجب السلطان ملكشاه إعجابا شديدا بعمر الخيام، فقدم له أموالا كثيرة لبناء مرصد عظيم لرصد النجوم ومراقبة حركة الأفلاك التى كان لها شأن عظيم فى ذلك العهد، غير أن السلطان مات قبل أن يتم تجهيز هذا المرصد.

هكذا كان الخيام ذائع الصيت محترم الجانب مرموق المكانة بفضل علمه وعبقريته، ولكن يستدل مما حكاه المؤرخون الذين عنوا بترجمة حياته أنه كان حاد الطبع عصبى المزاج، بل كان أكثر من ذلك شديد التشاؤم وهى صفة تلازم الكثيرين من أهل الفكر والفلسفة. والواقع أن العباقرة وأحرار الفكر كثيرا ما يضيقون بالناس لما يشاهدونه من خبث النفوس ولؤم الطباع، فهم لذلك يؤثرون العزلة وحب الانفراد او الإقلال من الأصدقاء على قدر ما يستطيعون. والظاهر أن الخيام كان من هذه الفئة بعد ما رأى من أعمال الناس وسمع من أقوالهم ما لا يرضى عنه، فنأى ذلك به عن مصاحبة الناس ومجاراتهم وانصرف هو إلى التأمل والدرس.

ولما كان العظماء والعلماء فى كل عصر يتقرب الناس إليهم ويتوددون إليهم ويحبون مجالسهم، ولكن من حسنات الخيام أنه كان عزوفا عن الشهرة، محبا للعزلة خصوصا بعد أن اتهمه قومه بالكفر والزندقة لما ذاع صيته فى الفلسفة وفاق أقرانه فيها وشاعت آراؤه وانتشرت نظرياته حتى بلغ به الأمر أن خاف على حياته.

فالخيام الذى لا يعرفه الجيل الحاضر إلا بالشعر، كان راسخ القدم فى الفلسفة والأدب والتاريخ.

هذا ولا يكاد يوجد من بين علماء المسلمين عالم ممتاز مثل عمر الخيام، أحاط بمعظم العلوم التى كانت معروفة فى عهده، فلقد كان الخيام مبرزا فى الفلك، متبحرا فى الفقه، ضليعاً فى الطب، خبيرا بقراءات القرآن. هذا إلى جانب درايته الواسعة بالفلسفة وعلوم اللغة والشعر والكيمياء والعقائد الدينية والرياضيات.

وكان فى هذه العلوم كلها صاحب الرأى الصائب والفكر المستقل الحر، إذا اجتمع بأصحاب كل علم من تلك العلوم ناظرهم وتفوق عليهم وظفر منهم بالإعجاب والإكبار. والظاهر أن عمر الخيام كان يميل بطبعه إلى العلم المجرد لذلك تخصص فى الفلك والرياضة حتى كان فيهما واحد دهره وفريد عصره.

مؤلفاته:

لم يكن الخيام من المكثرين فى عالم الكتابة والتأليف، والظاهر أنه كانت هناك أسباب دعت الخيام إلى الإقلال من التأليف، أهمها خوفه من بعض رجال الدين من أهل زمانه الذين كانوا يرمون كل باحث حر الفكر بالكفر والزندقة.

والخيام مع هذا الإخلال فى عالم التأليف قد كتب عشرة كتب، ثلاثة منها فى العلوم الطبيعية، وأربعة فى الرياضيات، واثنان فيما وراء الطبيعة، والكتاب العاشر هو رباعياته والتى اشتهر بها.



عنترة بن شداد

٥٢٥ - ٦١٥م

مثل بارز للفروسية العربية

تعد سيرة «عنترة» العربية الشعبية بحق من روائع الملاحم العالمية. فما من مصنف يحوى هذه الروائع يخلو من عرض موجز أو مفصل لهذه السيرة التى تؤكد حقيقة مهمة، وهى أن الشعوب تتبادل التأثر والتأثير على اختلاف الأجناس والأديان والألوان، على الرغم من اختلاف العصور. والباحثون إذا تجاوزوا ما فى الملاحم الشعبية من وجوه التماثل، فإنهم يسجلون وبخاصة عن سيرة عنترة، أنها كانت من الروائع التى احتفلت بها أوربا فى القرن الثامن عشر وربما قبل ذلك، ثم أصبحت من الموضوعات الأساسية فى الدراسات الأدبية بصفة عامة وفى دراسات الأدب المقارن بصفة خاصة ابن القرن التاسع عشر. فما أكثر ما فيها من العناصر الثقافية والأساليب الفنية التى تحتاج إلى تحقيق تاريخى وتحليل أدبى!. وإذا كنا نلمس منذ البداية تشابها أو تطابقا بين بعض حلقات هذه السيرة وبين ملحمة السيد الإسبانية وأغنية الرولان الفرنسية، فإننا لا نستطيع أن نغفل إعجاب ناقد أدبى عظيم مثل «هيبوليت تين» بهذه السيرة العربية ووضعه إياها بين الروائع الملحمية العالمية مثل سيجفريد ورولان والسيد ورستم وأوديسيوس وأخيل. كما أن الشاعر الفرنسى لامارتين كانت تأخذه النشوة ويستبد به الطرب كلما ذكر هذا البطل العربى عنترة أو اطلع على جانب من ملحمته الرائعة.

ولم يكن اختيار الشعب العربى لهذا البطل الجاهلى بلا سبب حيوى أملاه عليه موقفه من ذاتيته القومية العامة من ناحية، ومن الشعوب الأخرى التى تسللت إلى

موطنه وغلبته على مصالحه من ناحية أخرى، ومن الواضح أن الشعب العربى إنما اعتصم بموطنه الأصلى وهو الجزيرة العربية، والتفت إلى عصر نقاء الجنس وهو الجاهلية عندما أحس بوجدانه القومى ينبض دفاعا عن الحِمَى والنفس بعد انحسار موجة الفتوح الإسلامية واستئثار غير العرب من المماليك وأشباههم بمقدرات الحكم فى أجزاء من الوطن العربى وإبان ذلك الصراع الدموى الطويل الذى عرف بالحرب الصليبية... ومن أجل هذا كله اختار الشعب العربى مثالا بارزا للفروسية العربية الجاهلية وهو عنترة بن شداد العبسى الملقب بأبى الفوارس وهو الذى جمع بين الفتوة والتفوق فى الشعر وأسهم فى أيام العرب المشهورة، كما كان من أصحاب المعلقات.

أبو الفوارس عنترة فى الجاهلية

وهناك سؤال على كل باحث أن يجيب عنه قبل أن يعرض النواة الأصلية التى تطورت حتى أصبحت سيرة شعبية. وهذا السؤال هو: لماذا حفر عنترة بن شداد العبسى صورة شخصية وأحداث سيرته فى ذاكرة الشعب العربى دهرا طويلا ولم تحتفل هذه الذاكرة بأنداده من فرسان الجاهلية وفيهم من كان أعرق نسبا وأوفر مالا وأقوى شكيمة؟ وتكمن الإجابة فى أن محور سيرة عنترة بن شداد العبسى يدور حول الحرية التى افتقدها المواطن العربى عندما التفت إلى الجزيرة فى مرحلة نقاء الجنس. وإذا أردنا أن نجمل سيرة هذا الفارس فى عبارة واحدة فإننا نستطيع أن نقول: إنها كانت صراعا أراد به صاحبه أن يحقق وجوده كفرد حر فى مجتمع حر، يضاف إلى ذلك أنه كان شاعرا، فالحديث فى سيرته واقع وتعبير معا، ولم تكن فطنة الشعب لتغفل عن هذه الحقيقة التى يمكن أن تكون حافزا شخصيا لكل مواطن عربى، وقوميا لكل مجتمع عربى، ولذلك تجاوز عنترة عصره ودياره وظل حتى الآن بملحمته جزءا لا يتجزأ من التراث الشعبى الحى.

من هو عنترة؟

هو عنترة بن شداد بن عمرو وقيل ابن عمرو بن شداد بن معاوية بن قراد العبسى من أهل نجد ينتهى نسبه إلى مضر، ويكنى بأبى المغلس لغاراته فى الغلس، ويلقب بعنترة الفوارس لشجاعته وعنترة الفلحاء لانشقاق شفته السفلى. وأم عنترة حبشية

سوداء يقال لها زبيبة، سباها أبوه فى إحدى غزواته فأولدها عنترة وكان لها أولاد عبيد من غير شداد فلم يعترف به أبوه فى أول الأمر بل أنكره جريا على عادة العرب، لأنهم كانوا يستعبدون أولاد الإماء ولا يعترفون بهم إلا إذا ظهرت عليهم النجابة.

وكان أشد أهل زمانه وأجرأهم فؤادا وأسخاهم يدا . وهو على شجاعته وشدة بطشه حليم لين الطباع سمح إذا لم يُظلم.

ولعنترة كثير من الوقائع المشهورة ولكن أضيف إليه ما ليس له حتى اشتبه الصحيح بالموضوع. وقد حضر داحس والغبراء فأحسن فيها البلاء وحمدت مشاهده وفيها قتل ضمضما المرى أبا حصين وهرما .

وأحب عنترة عبلة ابنة عمه مالك بن قراد، فهاجت شاعريته واتسع خياله، فنظم القصائد الطوال وازداد طموحا إلى المعإلى، فجد فى طلبها ليمحو ببيض فعاله سواد لونه. وأنى له أن يطمع فيها وهو عبد لم يعترف به أبوه وأنكره أبناء عمه فغامر لأجلها ولاقى أشد الأهوال حتى ألحقه أبوه بنسبه، ولكنه لم يظفر بها كما يستدل من شعره.

آثار عنترة

ديوان شعر مشهور أصابه كثير من النحل لطول ما تدأوله الرواة والقصاصون، وأكثره فى الفخر والحماسة وذكر الوقائع والغزل العفيف بابنة عمه، وقليل منه فى المدح والرثاء. وأشهر شعره المعلقة وهى السادسة بين السبع الطوال.

عرفنا عنترة عبداً أسود أحب ابنة عمه فلم يستطع الوصول إليها وهو غير حر ينكره أبوه، وعرفناه فارسا مغوارا جرىء الفؤاد طماحا إلى المعإلى، وعرفناه كريما جوادا وحليما سهل المخالفة، وعفيفا شريف النفس أبيا لا يغمض على قذى، فلا غرو أن تظهر جميع هذه الصفات فى شعره ويكون لها أثر كبير فيه. ولا سيما أثر ذلك النضال العنيف الذى اشترك فيه من ناحية حبه وجده فى طلب المعإلى، ومن ناحية أخرى عبوديته وسواد لونه، فترك فى شعره مرارة وألما هما صورة لما فى نفسه من ألم العبودية والحب ومرارة التعبير، وترك فيه أيضا تلك الحماسة التى تتمثل بها شجاعته ونفسه الطموح.

الغـزالـى

١٠٥٩ - ١١١١م

حُجة الإسلام

كان «الغزالى» واحدا من المفكريم البارزين فى العالم الإسلامى» خلال النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى.. وكان فكره يمتاز بالجدة والابتكار.. وهو - فوق ذلك، يُعد فيلسوفا فريدا فى عصره.. فقد كان يؤمن بأن «العقل» لا يستطيع أن يحيط بكل الأشياء بل هو يعجز عن إدراك الحقيقة، وأن الذوق وحده القادر على الإدراك. فقد قذف الله إلى قلب فيلسوفنا نور الحقيقة فانزاحت عنه الظنون وعاد إلى حال من الطمأنينة والهدوء.

إنه «أبو حامد بن محمد الغزالى» الملقب «بُحجة الإسلام» الذى ولد عام ٤٥٠هـ فى «طوس» وهى بلدة من أعمال «خرسان».

كان والد الغزالى غزالا يعيش من غزل الصوف، فلما دنا أجله، وولداه محمد وأحمد لا يزالان صغيرين، وصى بهما صديقا له من المتصوفة فرباهما أحسن تربية. وما أن بدأ «محمد الغزالى» دراسته حتى ظهرت عليه آثار النبوغ والذكاء، فلم تقنعه أدلة الفقهاء ولا أرضته علومهم، فرحل إلى «نيسابور»، واتصل بإمام الحرمين، ودرس عليه علم الكلام ثم تعلم الجدل والمنطق واطلع على الآراء والمذاهب على اختلاف أنواعها.

ولما مات إمام الحرمين تعرف الغزالى إلى الوزير نظام الملك فسماه أستاذا فى

المدرسة النظامية فى بغداد سنة ٤٨٤هـ، وهنالك فى بغداد أخذ نجمه يتألق وصيته ينتشر، لسعة علمه وفصاحة لسانه، فأقبل عليه طلاب العلم من كل حدب وصوب. وعلت منزلته عند الولاة فتعلقوا به، وانكبوا عليه، وبلغوه كما يقول جاها عريضا، وشأنا خاليا من التكدير، وأمنا صافيا بعيدا عن منازعة الخصوم.

ورأى الغزالى وهو يدرس فى بغداد ان يقرأ الفلسفة من غير استعانة بأستاذ، فأقبل عليها فى أوقات فراغه وحذقها وألف فيها كتابا سماه «مقاصد الفلاسفة» توطئة لنقدها وإبطالها فى كتاب آخر جاء من بعد ذلك سماه «تهافت الفلاسفة».

ومع أن الغزالى كان يقصد من تأليف هذين الكتابين إلى إرضاء شكوكه الفكرية وشفاء اضطرابه الباطنى، فإن اضطرابه النفسى بلغ به حدا أورثه شكا فى جدوى عمله. لاحظ نفسه فوجدها منغمسة فى العلائق وفكر فى نيته فى التدريس، فوجدها غير خالصة لوجه الله، ولم يزل يتردد بين الانكباب على العمل، والإعراض عنه، حتى اعتقل لسانه عن التدريس وأحس بعجزه عن مقارمة ما أصابه من حزن وقلق، فكان لا ينساغ له طعام ولا تنهضم له لقمة. وتعدى ذلك إلى ضعف قواه حتى قطع الأطباء طمعهم من علاجه، فعزم على ترك التدريس، والاعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب. وخرج من بغداد سنة ٤٨٨هـ يقصد الحج إلى بيت الله الحرام، وهو ينوى أن لا يعود إلى العراق أبدا. فبقى مدة عشر سنوات يتنقل فى زى الفقراء بين دمشق والقدس ومصر والإسكندرية والحجاز، يقضى أوقاته كلها فى العبادة معتكفا زاهدا، يجاهد نفسه ويقهرها، ويجول فى البلدان ويزور المساجد ويأوى إلى القفار وينزوى فى المغارات، ويتعرض لمختلف المشاق والمحن.

فانكشف له فى هذه الخلوات أمور روحية كثيرة، رأى معها أنه لا ينبغى له أن يلازم الكسل والاستراحة فى وقت بلغ فيه الانحلال الدينى والخلقى درجة ليس فوقها زيادة لمستزيد. وتساءل: أفيجوز لمثله أن يرى الخطر المحدق بالدين ولا يعمل على درئه؟.

لقد أخذ يشعر عندئذ بأنه صاحب رسالة، وأن عليه أن يصلح الناس كما

أصلح نفسه. فلما عاد إلى وطنه بعد أن كان أبعد الخلق رغبة فى الرجوع إليه، أمره السلطان بالنهوض إلى «نيسابور» لمعاودة نشر العلم، فشاور فى ذلك جماعة من أرباب القلوب والمشاهدات فاشاروا بترك العزلة والخروج من الزأوية. وانضاف إلى ذلك يقول منامات من الصالحين تشهد بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد، فلبى دعوة السلطان، وذهب إلى نسيابور للقيام بهذه المهمة. وعاد إلى نشر العلم، والعمل على إحياء دين الله قال: «وأنا أعلم أنى وإن رجعت إلى نشر العلم فما رجعت. فإن الرجوع عود إلى ما كان. وكنت فى ذلك الزمان أنشر العلم الذى به يكسب الجاه، وأدعو إليه بقولى وعملى، وكان ذلك قصدى ونيتى. وأما الآن فأدعو إلى العلم الذى به يترك الجاه. هذا هو الآن نيتى وقصدى وأمنيتى، يعلم الله ذلك منى. وأنا أبغى أن أصلح نفسى وغيرى، ولست أدرى أأصل إلى مرادى أم أُخترم دون غرضى» (المنقذ من الضلال).

ولم يعش الغزالى بعد خروجه من عزلته إلا ست سنين، انقطع خلالها إلى نشر دعوته الدينية بالتدريس والوعظ والإرشاد، ثم مات وهو مشتغل بالبخارى ومسلم سنة ٥٠٥هـ.

مؤلفات الغزالى

لم يترك الغزالى التأليف حتى فى سنوات الخلوة التى قضاها فى التنقل والعبادة، فبلغت مؤلفاته - على قصر حياته واضطرابها - عددا ضخما يدل على المجهود العظيم الذى بذله لنشر دعوته. وأكثر مؤلفات الغزالى تدور حول موضوع واحد هو الفكرة الدينية. ومن خصائصها وحدة الموضوع، ووحدة الفكرة، وقوة التعبير، ودقة الأسلوب، والبعد عن الصناعة اللفظيه، والصراحة فى القول. يشعر القارئ فى كل جملة من جمله بأن هناك حياة تتدفق، وقلبا يخفق، وفكرا يجول، وإرادة تملى.

وللغزالى أكثر من مائتى كتاب ومقالة ورسالة، منها المطبوع، ومنها المخطوط، ومنها المفقود، والمفقود منها أكثر من المطبوع. وهى تتناول موضوعات مختلفة كالتصوف، والعقائد، والفقه، والأصول، والفلسفة والمنطق. وأهم هذه الكتب فى

نظرنا هى: كتاب «إحياء علوم الدين» الذى يمكن أن يسمى الموسوعة الدينية الجامعة وكتاب «تهافت الفلاسفة»، وكتاب «المنقذ من الضلال»، وكتاب «القسطاس المستقيم»، وكتاب «ميزان العمل»، وكتاب «مشكاة الأنوار»، وكتاب «الاقتصاد فى الاعتقاد» وكتاب «معيار العلم» وكتاب «كيمياء السعادة».

بيد أننا إذا تصفحنا مؤلفات الإمام الغزالى - سواء منها ما ألف قبل فترة تصوفه وما ألف فى أثنائها - فإننا نجد أن أهمها فى نظر الباحث الذى يريد أن يحدد شخصيته ومنهجه واتجاهه ثلاثة، وهى فضلا عن ذلك، تعتبر فى نظرنا أهم كتبه على الإطلاق.

ولو لم يؤلف الإمام الغزالى غيرها لبقى هو الغزالى العملاق، الصوفى، الفيلسوف، بطابعه وسماته وشخصيته، لا ينقص شيئا... ولكنه لو لم يؤلفها لما كان هو الإمام الغزإلى صاحب الأثر الخالد على الدهر.

١- أما أحدها: فإنه كتاب المنقذ من الضلال.

٢- وأما ثانيها فإنه: كتاب «تهافت الفلاسفة».

٣- أما ثالث الكتب فإنه: الإحياء.

وهو أهمها، وأهم كتب الامام الغزالى عامة، ولقد قال فيه الإمام النووى «كاد الإحياء أن يكون قرآنا»!! والله أعلم.

ولعل من حق الغزالى أن يفخر بعلمه وبضاعته، وكيف لا وهذا هو العقاد يتحدث فى كتابه «أنا» عما كتبه وعما لم يكتبه، وعما يريد أن يكتبه فيقول فيما يقول:

«لقد ألفت عن ابن سينا وعن ابن رشد، وهما أكبر فلاسفة اللغة العربية فى المشرق والمغرب، وبقى كتاب عن الغزالى الفيلسوف الذى يصارع الفلاسفة، والفقيه الذى يؤدب الفقهاء، والمتصوف الذى يكشف عن عالم الخفاء، كما يكشف عن عالم الشهادة.

«وليس فى المشرق والمغرب من هو أرجح فكرا، وأصفى عقلا، وأقوى دماغا، من هذا الإمام الجليل، ولولا اتساع الأفق الذى تدفعنا إليه الكتابة عنه، لبدأت بترجمته، ونقده قبل ابن سينا وابن رشد وغيرهما من حكماء المشرق والمغرب».

الفارابى

٨٧٠ - ٩٥٠م

المعلم الثانى وأكبر الفلاسفة المسلمين

أول ما عرف من موسوعات العلوم فى العربية كتاب «إحصاء العلوم» للفيلسوف الاسلامى أبى نصر «الفارابى» ألفه الفارابى فى القرن العاشر الميلادى، فاشتهر ذكره فى بلاد الإسلام، وأصاب حسن التقدير عند أهل العلم فى الشرق والغرب، وامتدحه العارفون، وعدوه ضروريا لجميع المثقفين، والراغبين فى البحث والاطلاع.

ففى القرن الحادى عشر الميلادى تحدث القاضى صاعد بن أحمد الأندلسى عن الفارابى ومؤلفاته، فأبدى إعجابه بكتاب «إحصاء العلوم» إذ قال: إن هذا كتاب شريف فى إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها، لم يسبق إليه، ولا ذهب أحد مذهبه فيه، ولا يستغنى طلاب العلوم كلها عن الاهتداء به، وتقديم النظر فيه».

وقد نقل هذا الثناء على «الإحصاء» كثيرون من مؤلفى العرب، مثل «القفطى وابن أبى أُصَيْبِعَة». وفى أواخر القرن الثانى عشر، وأوائل الثالث عشر نقل «ابن طملوس» (تلميذ ابن رشد) عن «الإحصاء» فصلا برمته، وهو الفصل الذى عقده الفارابى فى «المنطق».

وحسبنا لبيان مكانة «إحصاء العلوم» عند علماء الغرب فى القرون الوسطى أن نذكر ان هذا الكتاب العربى ترجم إلى اللغة اللاتينية، غير مرة، إبان القرن الثانى عشر الميلادى. وأهم هذه الترجمات ترجمتان: إحداهما منسوبة إلى «دومينكوس غنديسإلينوس»، وقد نشرها «كاميراريوس»، ولكن هذه الترجمة ليست كاملة ولا

وافية، فقد حذف «غنديسإليونس» بعض فصول الكتاب كالفصل الذى عقده الفارابى فى علم الكلام. وتصرف فى بعض المواضع بالحذف والاختصار. أما الترجمة الثانية فمنسوبة إلى «جيرار دى كريمونا»، وهى ترجمة كاملة دقيقة مطابقة للنص العربى للكتاب.

على أن «إحصاء» العلوم» كان معروفا أيضا فى المدارس اليهودية: فقد انتفع به «موسى ابن عزرا» (المتوفى سنة ١١٤٠م). وقدوجدت للكتاب ترجمة عبرية مختصرة بقلم «كالونيموس بن كالونيموس» (المتوفى سنة ١٣٢٨م).

* * *

هو أبو نصر، محمد، المعلم الثانى، الشهير بالفارابى. فاسمه محمد وكنيته أبو نصر، ولقبه المعلم الثانى، وشهرته الفاربى.

ولا ندرى كيف كنى بأبى نصر، مع أنه قد جرت العادة فى الغالب أن يكنى الشخص باسم ابنه الأكبر، وأن المشهور من سيرة الفارابى انه لم يتزوج ولم ينجب أولادا.

والراجح أن السبب فى تلقيبه بالمعلم الثانى يرجع إلى مكانته الكبيرة فى الفلسفة، ووفرة إنتاجه فيها، ومتابعته لدراسات أرسطو، وشرحه لنظرياته، حتى لقد اعتبر أكبر الفلاسفة من بعده، وأعظم ناشر وموضح لآرائه، ولما كان أرسطو قد اشتهر بلقب «المعلم الأول». لذلك أطلق على خليفته فى عالم الفلسفة وناشر آرائه لقب «المعلم الثانى».

واشتهر بالفارابى نسبة إلى مسقط رأسه «فاراب» من أعمال حراسان. وهى منطقة كبيرة وراء نهرى جيحون «أموداريا» وسيحون، «سرادريا»، وتقع على جانب الفرع الأكبر لنهر سيحون فى طرف بلاد تركستان.

ولا نكاد نعرف شيئا يقينيا عن طفولته الأولى. أما فيما يتعلق بالمراحل التالية فيظهر من سيرته أنه بعد بلوغه دور التعلم قد عكف فى مسقط رأسه على دراسة طائفة من مواد العلوم والرياسة والآداب والفلسفة واللغات وعلى الأخص التركية وهى لغته الأصلية والفارسية واليونانية والعربية.

ثم خرج من بلده وهو يومئذ يناهز الخمسين قاصدا العراق، حيث أتم دراساته فيما بدأ به فى مسقط رأسه وأضاف إليه موادا أخرى كثيرة. فدرس فى حران الفلسفة والمنطق والطب على الطبيب المنطقى يوحنا بن حيلان، ودرس فى بغداد الفلسفة والمنطق على أبى بشر متى بن يونس، وهو مسيحى نسطورى كان حينئذ من أشهر مترجمى الكتب اليونانية ومن أشهر الباحثين فى المنطق، ودرس فى بغداد كذلك العلوم اللسانية العربية على ابن السراج، وأتيح له فيها أيضا دراسة الموسيقى وإتمام دراساته فى اللغات والطب والعلوم والرياضيات. ولا غرابة أن يتتلمذ فى هذه السن المتقدمة، فقد كان هذا دأب العلماء فى هذه العصور، يطلبون العلم من المهد إلى اللحد.

وكان الفارابى مولعا بالأسفار فى طلب العلم ونشره والإحاطة بشئون الجماعات. فانتقل من العراق إلى الشام حيث اتصل بسيف الدولة بن حمدان الذى عرف له فضله، وأكرم وفادته، وعاش فى كنفه منقطعا إلى التعليم والتأليف. وكان فى أثناء إقامته بالشام يتنقل بين مدنها وخاصة بين حلب عاصمة الحمدانيين ودمشق التى كانت تدخل فى حوزتهم تارة وتخرج أخرى. وقد سافر مرة من الشام إلى مصر، ثم رجع منها إلى دمشق حيث توفى.

مكانة الفارابى

ليس من شك فى أن الفلسفة بمعناها الواسع الذى كان مستخدماً فى ذلك العصر، أى «العلم الجامع الذى يضع أمامنا صورة شاملة للكون»كما يقول «دى بور» فى كتابه «تاريخ الفلسفة فى الإسلام»، كانت أوضح ناحية من نواحى نبوغ الفارابى، وأبرز مظهر من مظاهر ألمعيته وتخصصه. فمعظم جهوده كانت متجهة إلى تجويد بحوثها، وخاصة ما تعلق منها بالفلسفة اليونانية. وقد استأثرت فلسفة أرسطو ومؤلفاته بقسط كبير من نشاطه، حتى إن ابن خلكان ليروى فى كتابه «وفيات الأعيان» أنه قد وجد «كتاب النفس» لأرسطاطاليس وعليه بخط أبى نصر الفارابى: انى قد قرأت هذا الكتاب مائة مرة، وأنه قد نقل عنه أنه كان يقول: قرأت «السماع الطبيعى» لأرسطاطاليس الحكيم أربعين مرة وأرى اننى محتاج إلى معاودة قراءته».

وقد طبقت شهرته الآفاق فى مواد الفلسفة، واعتبر أكبر الفلاسفة بعد أرسطو وأعظم ناشر وموضح لآرائه، حتى لقد أطلق عليه اسم «المعلم الثانى» أى خليفة أرسطو الذى اشتهر بلقب «المعلم الأول» كما سبق بيان ذلك.

وهو يُعد المؤسس الحقيقى للدراسات الفلسفية فى العالم العربى، والمنشئ الأول لما نسميه الآن «الفلسفة الإسلامية». فقد أشاد بنيانها، ووضع الأساس لجميع فروعها. ولا نكاد نجد فكرة عند من جاءوا بعده من فلاسفة الإسلام إلا لها أصل لديه. وهو أعرف فلاسفة الإسلام بتاريخ الفلسفة ونظريات الفلاسفة. فهو يتحدث فى مؤلفاته حديث الخبير عن المدارس اليونانية ويبين الفوارق بينها ويحاول التوفيق بين أفلاطون وأرسطو.

ولا تقل شهرته فى شئون السياسة والاجتماع عن شهرته فى شئون الفلسفة، بل إن شئون السياسة والاجتماع كانت من أبرز مسائل الفلسفة من فجر نشأتها على يد سقراط وأفلاطون وأرسطو إلى الوقت الحاضر. ومن أجل ذلك استأثرت هذه الشئون بقسط كبير من نشاط الفارابى، وبرز فى علاج مسائلها، ووقفت عليها طائفة من مؤلفاته، من أشهرها كتاب «آراء أهل المدينة الفاضلة».

وكان له معرفة واسعة بالطب، بل ذكر بعض المؤرخين أنه أول مهنة الطب مزاولة عملية، ولكن الراجح أنه لم يزأولها بالفعل، وإنما اكتفى بدراسة الفن نفسه والوقوف على مختلف فروعه.

وكان نابغة عصره فى الموسيقى وله فيها مؤلف مشهور ومخترعات كثيرة. ويذهب ابن خلكان إلى أنه المخترع للآلة المسماة بالقانون وانه أول من ركبها هذا التركيب، ويذهب غيره إلى أنه اخترع آلة أخرى تشبه القانون. ويقول كارادى فو فى «دائرة المعارف الإسلامية» إن درأويش المولوية لا تزال تحتفظ بأغان قديمة منسوبة إليه. ويروى ابن خلكان فى هذا الصدد حكاية أقرب إلى الأساطير منها إلى التاريخ، ولكنها تنبئ عما كان قد اشتهر به الفارابى بين مواطنيه من نبوغ فى فنون الموسيقى، فيذكر أن الفارابى فى أحد مجالسه مع سيف الدولة لم يعجبه عزف العازفين الذين عزفوا أمامه، وأظهر أخطاء فنية كثيرة لكل واحد منهم، فتعجب

سيف الدولة من ذلك وسأله إن كان يحسن هذه الفنون، فأجاب بالإيجاب ثم أخرج من وسطه خريطة ففتحها وأخرج منها عيدانا وركبها ثم عزف بها فضحك كل من كان فى المجلس، ثم فكها وركبها تركيبا آخر وضرب بها فبكى كل من كان فى المجلس، ثم فكها وغير تركيبها وضرب بها ضربا آخر فنام كل من كان فى المجلس فتركهم نياما وخرج.

ويدل ما وصل إلينا من مؤلفاته، وبخاصة كتابه «إحصاء العلوم» على أنه - بجانب ما ابتكره وما رسخ قدمه فيه - لم يغادر أى فرع آخر من فروع المعرفة السائلة فى عصره إلا ألم به ووقف على أهم ما ألف فيه وما وصل إليه الباحثون فى مسائله.

الفارابى وإنتاجه الفكرى

كان الفارابى منتجا إلى أبعد حدود الإنتاج، أخرج إلى الناس من المؤلفات والرسائل ما يزيد على المائة، أتى فيها على الفلسفة بعلومها وعلى النجوم والمناظر والمنطق والعد والهندسة، وقد سار فى عرض أكثرها على أسلوب ممتاز «بالقصد فى اللفظ والعمق فى المعنى مع دقة فى التعبير وقوة فى التماسك وحسن الانسجام والنظام فى التأليف وربط المواضيع ربطا محكما منطقيا».

ومن أهم ما وصل إلينا من مؤلفاته الفلسفية التى يسجل فيها آراءه الخاصة:

«كتاب الواحدة والوحدة» و «كتاب الجوهر» و «كتاب الزمان» و «كتاب المكان» و«كتاب الخلاء» و «مقالة فى معانى العقل» طبعة ليدن سنة ١٨٩٠ وطبعة القاهرة سنة ١٩٢٧، وقد طبع فى بيروت سنة ١٩٣٢ تحت عنوان «رسالة العقل» - ولعل هذا هو نفس الكتاب الذى يسميه بعض المترجمين للفارابى «كتاب العقل والمعقول»، و«رسالة فيما ينبغى أن يقدم قبل تعلم الفلسفة» و «عيون المسائل» و «فصوص الحكم» و «رسالة فى جواب مسائل سئل عنها» و «كتاب التنبيه على سبيل السعادة» و «كتاب تحصيل السعادة» و «رسالة فى إثبات المفارقات».

ومن أهم ما وصل إلينا من مصنفاته التى تتمثل فى شروح وتعليقات على مؤلفات أرسطو شروحه وتعليقاته على:

«كتاب المقولات» (قاطيغورياس)، و «كتاب القول الشارح» (القضايا والتعريف) و«كتاب أنالوطيقا الأولى والثانية» (تأليف القياس المنطقى)، و «كتاب طوبيقا» (الجدل) و «كتاب سفسطيا» (السفسطة)، و «كتاب ريطوريقا» (الخطابة) و «كتاب بوطيقا» أى الشعر (والكتب السابقة جميعا هى مباحث كتاب «الأورغانون» L'or-ganon لأرسطو، وهى المباحث التى يتألف منها علم المنطق بمعناه الواسع عند أرسطو)، و «كتاب الأخلاق إلى نيقوماخوس» و «كتاب العلم الطبيعى» و «كتاب الآثار العلوية»، و «رسالة النفس والعالم» و «كتاب فى أغراض الحكيم فى كل مقالة من الكتاب الموسوم بالحروف» (يقصد كتاب الميتافيزيقا لأرسطو).

ووصل إلينا من مؤلفاته كتاب يوفق فيه بين آراء أفلاطون وأرسطو وهو «كتاب فى الجمع بين رأى الحكيمين أفلاطون الالنهى وأرسطوطإليس».

ووصلت إلينا بعض مصنفات له يعلق فيها على غير كتب أرسطو وأفلاطون منها شرحه على «مقالة النفس» للإسكندر الافروديسى، وتعليقه على كتاب «المجسطى» لبطليموس الفلكى.

ووصل إلينا من مؤلفاته فى شئون السياسة والاجتماع وكتاب «آراء أهل المدينة الفاضلة» و «كتاب السياسات المدنية».

ووصل إلينا من مؤلفاته فى الموسيقى كتاب «صناعة علم الموسيقى» وهو يعد من أهم المراجع فى هذا الفن.

هذا بالاضافة إلى كتاب «إحصاء العلوم» والذى يقول فيه «مونك» و «فارمر» إن هذا الكتاب يدل على أن «الفارابى» هو أول من وضع النواة لدوائر المعارف فى العالم.



الفـرزدق

٦٤٠ - ٧٣٠م

شاعر الفخر والهجاء

ولد الفرزدق فى خلافة عمر رضي الله عنه، وكانت عشيرته من بنى مجاشع ابن دارم ممن نزل البصرة من بطون تميم أول اختطاطهاعند الفتح، وكانت لهم خطط ودور بالبصرة ينزلونها فى بعض فصول السنة ويتبدون فى بعضها الآخر، وكان أبوه غالب بن صعصعة ينزل السيدان من بادية البصرة بالقرب من كاظمة على ماء كانت تنزل حوله قبائل شتى من قيس وتميم. وكانت البصرة فى أول أمرها تعتبر معكسراً للمقاتلة من العرب لا يخالطهم فيها إلا مواليهم، فكانت بذلك بيئة عربية محضاً. فنشأ الفرزدق ما بين السيدان والبصرة فصيح اللهجة ملمّاً بدقائق اللغة حافظاً غريبها عالما باخبار العرب وأيامها وأيام تميم وخاصة أيام بنى دارم فى الجاهلية والإسلام، وحبب إليه الشعر منذ طفولته فنظمه فأعجب به أبوه، وكان من شيعة أمير المؤمنين على ، فأتاه عقب فراغه من موقعة الجمل ومعه ابنه الفرزدق، فسأله عنه فقال: «هذا يوشك أن يكون شاعراً مجيداً!» فقال: «أقرئه القرآن فهو خير له». فما زالت كلمة أمير المؤمنين تعمل فى نفس الفرزدق دهراً طويلا حتى عمل بها بعد أن جاوز الثلاثين.

وكان أبوه غالب كريماً متلافا سيداً شجاعاً، وفد على النبى ﷺ، وعمر حتى مات فى إمارة زياد وخلافة معاوية ودفن بكاظمة، وكذلك كان جد الفرزدق صعصعة

من أكرم الناس فى الجاهلية وأشرفهم، وكان شاعراً مقلا يلقب بمحيى الموءودات، لأنه كان إذا علم برجل يهم بوأد ابنته للفقر اشتراها منه بناقتين لقوحين وجمل، فجاء الإسلام وقد فدى ستين وثلثمائة موءودة لم يشاركه فى هذه المكرمة أحد، حتى أنزل الله تحريم الوأد فى القرآن. وفد على النبى ﷺ وأسلم وعلمه آيات من القرآن ، وسأله: هل له فى فداء الموءودات من أجر؟ فقال له: «هذا من البر ولك أجره إذ منّ الله عليك بالإسلام»

فبذلك يفتخر الفرزدق على جرير، لأن آباءه كانوا وضعاء. وفطر الفرزدق على الهجاء من صغره. قال عن نفسه: «كنت أهاجى شعراء قومى فى خلافة عثمان بن عفان، فكان قومى يخشون معرة لسانى منذ يومئذ»

قال الفرزدق الشعر منذ طفولته فأعجب به أبوه غالب إذ لم يكن هو شاعراً. ولم يقل الشعر أحد من أهل بيته من هذه الطبقة، وإنما كان صعصعة جده يقول المقطعات الهينة المقدار، يقولها فى شأن نفسه. وقد قيل للفرزدق: «مالك وللشعر وما كان أبوك غالب شاعرا ولا كان صعصعة شاعراً. فمن أين لك هذا؟» قال: من قبل خالى العلاء بن قرظة الذى يقول:

إذا ما الدهر جر على أناس … كلاكله أناخ بآخرينا

فقل للشامتين بنا أفيقوا … سيلقى الشامتون كما لقينا

وظهر لشعره من أول أمره روعة وقوة أسر. وقد انتحى به ناحية الهجاء لما فطر عليه من طبيعة الشر وحب اللجاجة ولدادة الخصام، فهاجى شعراء قومه، فلقوا منه شرّاً مستطيراً وتخوفه الأشراف وصانعوه. وأطمعه ذلك فى اتخاذ الشعر حرفة يتكسب بها وقد كان له فى مال أبيه وقومه غنية أى غنية!..

وكان الفرزدق قوى الذاكرة فحفظ من شعر الجاهلية والإسلام الكثير العزيز. وجمع من اللغة وتاريخ العرب فى جاهليتها عامة وأيام قومه خاصة ما لم يبزه فيه شاعر من أهل زمانه حتى ولا جرير والأخطل.

وكان طويل النفس فى الهجاء والمناقضات والفخر، فتزيد بعض أبيات قصائده

فيها على المائة، قصير النفس فى المدح فلا يكاد مدحه يبلغ ثلث ما فى القصيدة من النسيب والفخر.

ومع فحولته فى الشعر وحسن تأتيه ومواتاته له فإنه كان يحسد من دونه من الشعراء على البيت أو الأبيات القليلة يقع له فيها المعنى البديع، وخاصة إذا كان الشعر فى فخر لا يراه الفرزدق يليق بهذا الشاعر فيغصبه أبياته ويقول له: «أنا بها منك»! ويضمها إلى شعره فلا يستطيع الشاعر أن ينكرها عليه لعجزه عن مجاراته.

أغراض شعره

أهم الأغراض التى يرمى إليها شعر الفرزدق

ثلاثة: الهجاء، والفخر، والمدح

هجاؤه

الباحث عن أخبار الفرزدق يعرف أن الهجاء فطرة فيه منذ كان، وفيه بذل جهد نفسه وزبدة تفكيره وأغرب معانيه، إذ كان يقوله عن حنق وتغيظ وإرادة نكاية وتنكيل بالخصم على أى صورة وبأى لفظ، فخلع فيه عذار الحياء، وصرح بما لا يبيحه شرع ولا أدب. واضطره الهجاء إلى تتبع عورات خصومه وسقطاتهم والمعرات التى لصقت بآبائهم فى الجاهلية وقلة غنائهم أو عجزهم فى الإسلام، بخلاف مدحه الناس فإنه كان يقوله مخادعة للممدوحين واحتيالا لاقتناص أموالهم. وبذلك كان هجاؤه أبلغ من مدحه وأعظم أغراضه.

وكان سليط اللسان لا يبالى من يهجو سوقة أو أميرا - هجا هشام بن عبد الملك، وهجا ابن هبيرة والى العراق، وهجا خالداً القسرى وإلى العراق، ولكنه لم يجسر أن يهجو زيادا فى حياته، وهو الذى أقض مضجعه أعواما وشرده كل مشرد، إذ كان جباراً إذا ظفر به لم يعدل بضرب عنقه شيئا، وإنه كان يتفرس فى غيره الرحمة أو الخوف من قومه تميم.

فخره

كما طبع الفرزدق من طفولته على الهجاء طبع على حب الفخر. والفخر طبيعة فى العرب منذ الجاهلية، وجاء الإسلام فخفف من سورتها فى أهل الأمصار،

وبقيت كامنة فى البادية تشتعل نيرانها أحيانا وتخمد اخرى حتى خفتت نعرة العرب، وانطفأت جمرة سلطانهم، وغلبتهم الأعاجم على ملكهم، فمن استخذى منهم لسلطان العجم انقرض وانقرضت معه حماسته ومن أنف منهم ملكة العجم تراجع إلى الصحارى أو إلى بلاد الجزيرة مهدهم القديم.

وأكثر فخر الفرزدق بأن أباه كان كريما يقرى الضيفان، وأن صعصعة أحيا الموءودات، وأن أجداده انتصروا فى يوم كذا ويوم كذا من أيام الجاهلية، وأنهم قادة الحجيج وحكام العرب وخطباؤها وفصحاؤها. وأنهم أسروا فلاناً وفلاناً وقتلوا فلاناً من فرسان العرب وسبوا النساء ونحو ذلك. فيناقضه جرير بوقائع أخرى هزمت فيها قبيلته بنو دارم وأسر فيها أبطالها وسبيت فيها نساؤها، ويذكر هو آباءه الأعلين من بنى يربوع ممن لا يقلون فى شرفهم عن عظماء دارم.

مدحه

جاء الإسلام والتكسب بالشعر حرفةعرفتها العرب واصطبغ بصبغتها أشرافها ووضعاؤها، فلم يأنف زهير والنابغة الذبيانى وحسان وهم من الأشراف أن يمدحوا السادات والملوك ويتقبلوا جوائزهم، وشرف بها سفهاؤها، فنعموا بها أحياناً وشقوا بها أحياناً، من أمثال أعشى قيس والحطيئة العبسى، فأقر الإسلام هذه الحرفة إذا كان دفاعاً عن حق وردعا لباطل ودعاء إلى سبل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ونهى عن استماع المرء مدح نفسه. وحمل استماع رسول الله ﷺ إلى مديح كعب بن زهير وحسان وغيرهما من شعراء الصحابة على أنه إعلاء لشأن الإسلام الآتى على لسان رسوله، والقرآن نفسه فيه مدح لرسول الله وثناء عليه، وكل أنواع العبادة من الصلاة والأذان والإقامة لا تخلو من مدح رسول الله، ومدحه هو مدح للإسلام، فالثناء عليه مأمور به من الله تعالى.

ولما ضرب الإسلام بجرانه فى الأرض وكثر الرؤساء والقواد والأمراء والولاة من العرب وموالى العرب من قبائل ربيعة ومضر وحِمْيَر وكهلان قصد كل شاعر أمير قبيلته وعظيمها ومدحه. فإذا نبه شأنه وعلا كعبه فى الشعر صار شركة للجميع، واستشرف كل إلى مدحه من الخليفة إلى السوقة، وهابه الناس ويجلوه

وصانعوه بالهدايا. فإذا كان مع بلاغته وفصاحته وجودة مدحه هجاء لذاعا زادت هيبتهم له وترضوه بما شاء.

فلا جرم أن يستمرئ الفرزدق وجرير هذه الطعمة ويستسيغا التعادى والنضال وسب العشيرة فى سبيلها ولو كانا ذوى قربى. ومدح هؤلاء الشعراء الإسلاميين يربو على مدح شعراء الجاهلية بوصف الممدوح بمناصرة الإسلام وأهله والائتمار بأوامره ولكنهم يتفـأوتون فى تزيين هذه الصفات وتلوينها بألوان باهرة وصور من الكلام مبتكرة.



فريد أبو حديد

١٨٩٣ - ١٩٦٧م

الكاتب والشاعر والقصصى

اقرأ أى كتاب من كتبه، أو استعرض إن شئت أسماء مؤلفاته، فإنك سرعان ما تضع يدك على مفتاح شخصيته وتعرف سر نفسه..

اقرأ «زينوبيا» أو «الملك الضليل» أو «أبو الفوارس عنترة» أو «آلام جحا» أو «سيف بن ذى يزن»، تجد نفسك أمام شخصية هذا الكاتب الشاعر القصصى.. الشغوف بأن يعيش مع التاريخ البعيد، مع الشخصيات المجهولة التى أضفت عليها الأساطير والقصص والخرافات جوا من الغموض، فعاشت بين السحب والغيوم، عاشت ملفعة بالحجب والضباب.

إنها القصص، من حيوات أمثال زينوبيا، أو امرئ القيس أو جحا، والتى ليست فى مصدرها وفى أصلها إلا سطورا معدودة من كلام مدفون فى بطون الكتب القديمة وإذا بالكاتب يأخذ ويضفى عليها من ثقافته وخياله وفنه ما يكسوها بشرا سويا، ويبعث فيها حياة جديدة، ويخلق حولها جوا لا تشك لحظة وأنت تقرأها أنه قريب من الجو الذى كانت تعيش فيه هذه الشخصيات.

وليس أمامنا لكى ندرس شخصية «فريد أبو حديد» الا مؤلفاته هذه بالاضافة إلى كتابة «عمر مكرم».

إنه من الكُتاب الذين لا يتحدثون عن أنفسهم، ولا تبدو معالم حياتهم واضحة

فى كتاباتهم، وإن هناك هالة من الغموض تحيط بنا من كل جانب ونحن ندرس هذه الشخصية.

كثير من الكُتاب هم كذلك، لا تعطيك آثارهم صورتهم النفسية واضحة، لا سيما أولئك الذين لا يتصلون بالصحافة اتصالا دائما مستمرا، فإن هؤلاء يظلون فى حدود حياتهم الأدبية الخالصة التى يعكفون فيها على الانتاج الأدبى المحرر، لا يعطون الباحث تلك المادة التى تعينه على الكشف عن حياتهم الوجدانية فى يسر.

وكتاب لـ «كزينوبيا» أو الوعاء المرمرى، ماذا يمكن أن يعطيك عن كاتبه إلا صورة عقلية محضة، هو أنه أديب شغوف بهذا اللون من الأدب، محب للإيغال فى أعمال التاريخ والماضى، والذهاب بعيدا بعيدا إلى أعمال الجزيرة العربية، وإلى الشخصيات البعيدة الغامضة، هذه نفس شاعرة، تندفع وراء الغوامض من أجزاء التاريخ لتحأول ان تعيش فيها وتجد فيها وتجد لذتها فى أن تبحث وراءها وتدرس كل ما يتصل بها.

وفريد أبو حديد حريص على أن يطوى شخصيته عن القراء، وأن يطوى حياته الخاصة عن الناس فلا يدعها إليهم.

فأديبنا محب للتاريخ، كلف به، صرف فى دراسته ومطالعته شبابه كله، واستهوته الشخصيات القوية الأثر فى التاريخ.

غير أن هذا الاتجاه الذى استقر عليه كاتبنا بعد أن ارتفعت به السن، وجعله مذهبه الأدبى، ولونه الواضح الصريح، يمكن أن يردنا إلى صباه ويلقى ضوءا على ماضيه فندرس شخصيته فى وضوح.

هذا الاغراق فى قصص حرب البسوس وسيف بن ذى يزن وامرئ القيس والزباء وعنترة يرسم صورة الكلف الواضح فى الشباب إلى ذلك الشاعر الذى كان يجلس فى المقاهى فى العهد الماضى فيروى قصص هذه الحروب.

كان «فريد» معجبا بهذا اللون من الرواة، وكان فيما يبدو يتعقب هؤلاء من مكان إلى مكان، ومن مقهى إلى مقهى، ليسمع وليطيل السماع، وليقضى الليالى

مرهفا سمعه وحسه إلى هذا الفيض من القصص ثم إذا به ينكفئ بعد ذلك إلى كتب التاريخ ليقرأ ويقرأ.

كذلك هو مغرم كما ترى من صفحات كتبه آثار الصرامة والوضوح والرغبة إلى أن يكون صريحا جريئا، تفيض نفسه بالحق، كأنما هو من أولئك الذين يكرهون المدأورات والمنأورات ويبغضون أساليب السياسة مما يطلقون عليه اللباقة أو تجميل الألفاظ، أو ما يطلقون عليه اسم الأسلوب الذى يجرح ولا يُسيل الدماء فهو على طبيعته واضح صريح، صارم حاد، لا يعرف ميلا ولا زيغا، ولا يرى فى الحق مجاملة، إنما يقول كل شىء ويمضى..

ويأتى هذا متسقا مع حبه للبطولة وإعجابه بها، وهى طبيعة الفرسان ورجال الوغى الذين عاش معهم فهم لا يعرفون تلك الألوان الرقيقة اللينة ولا تلك الأساليب التى توصف بآداب الصالونات.. ولعل مرجع هذا فيما نعتقد تلك الحياة الريفية البدوية التى عاشها الكاتب فى فجر حياته.

«فريد أبو حديد» واحد من هؤلاء الرواد الذين بدءوا حياتهم الأدبية مع ثورة ١٩١٩ أو قبلها بقليل، تأثر فى فجر شبابه بالأدب الإنجليزى وأوغل فيه فقرأ لكُتاب القرن التاسع عشر من مارلو إلى والترسكوت إلى دكنز، وأحب شكسبير وتأثر كثيرا بكنت فى عمل القصة التاريخية.

واشترك فى تحرير السفور وكتب فى السياسة الأسبوعية تابلوهات قصيرة لعلها كانت أول اتجاهه القصصى.

ومضى «فريد» على طبيعته هادئا متئدا، لا يتصل بالصحافة ولا يشارك فى السياسة، ويخلص لفنه وأدبه.

وابتدع «فريد أبو حديد» الشعر المرسل، حين ترجم أجزاء من قصة أنطونيو وكليوباتره بهذا الأسلوب، ثم ترجم سهرات رستم ومضى فى اتجاهه هذا فكتب بهذه الطريقة قصة عثمان بن عفان، وخسرو وشيرين.

وظل فريد أبو حديد تتنازعه طبيعتان مختلفتان وإن كانتا قريبتين.. هما

طبيعة المؤرخ وطبيعة القصاص، كان قد قرأ كل أمهات الكتب التاريخية ولمح فيها صورا غاية فى الروعة والقوة لو أنها كتبت على الطريقة الحديثة، ولو أُدخل إليها فن من فن والترسكوت وشكسبير.

لقد كانت «ربابة الشاعر» الكامنة فى أعماق «فريد أبو حديد» تصارع فيه «المؤرخ».. وأخيرا غلبت عليه طبيعته فأخرج تلك الآثار الرائعة التى تقدم نفسها للخلود.

«الملك الضليل - زينوبيا - الوعاء المرمرى - المهلهل سيد ربيعة».

فإذا ذهبنا نستقصى صلة أدب الكاتب بشخصيته، وجدناه وثيقا قويا، فهو من ذوى الطبائع النقية الصريحة، يبدو هكذا حين تتحدث معه، وحين تقرأ له.

❀ ❀ ❀

قاسم أمين

١٨٦٣ - ١٩٠٨م

الكاتب الذى حرر المرأة

كان الشيخ الرئيس ابن سينا حكيما حين سأل الله أن يهبه حياة عريضة لا طويلة. وقد تحقق له أمله إذ مات قبل بلوغ الستين. ولكن كان نبوغة مبكرا فامتلأت حياته بكثير من الأعمال الكبار.

وقد كان لنابغتنا قاسم أمين وكثير من إخوانه النوابغ - لا سيما المبكرون فى النبوغ - مثل هذا الحظ فى الحياة فهو لم يعمر أكثر من خمس وأربعين سنة (١٩٦٥ - ١٩٠٨) ولكنه نبغ مبكرا وكان رجل نظر كما كان رجل عمل فحفلت سنواته بكثير من الخدمات الجليلة التى أفادت منها أمته وستبقى لها فوائدها طالما وعتها كما أرادها ووضح طريقها وغايتها فى حدود الكرامة الإنسانية لا كما أرادها الآخرون من دعاتها وأدعيائها.

ولم يقتصر نشاط قاسم فكرا وعملا على مجال واحد، بل شمل عدة مجالات ولكننا مهما نمض معه فى أنشطته خلالها حتى تبلغ أوسع مداها - نجدها تدور حول محور واحد هو «التربية».

ومن المجالات التى أسهم قاسم فى إصلاحها القضاء والتشريع ومنها الاجتماع والاقتصاد ومنها الأدب والفن والنقد ومنها أعمال البر والإحسان العامة. ولكن اسمه لم يشتهر بيننا إلا مرتبطا بدعوته إلى تحرير المرأة كما لم تشتهر هذه الدعوة

الا مرتبطة به، وإن كان فضل قاسم أعظم من أن ينحصر فى هذه الدعوة وحدها فشهرته بها وإن نشرت بعض فضله - قد جارت على بعضه الآخر فبقى مستورا أو مجهولا وهكذا كل شهرة حين تُبدى من الفضل بعضه لا كله.

ولد قاسم أمين فى أول ديسمبر ١٨٦٣ بطره. وكان أبوه أميرالاى فى الجيش المصرى قيل إنه من أصل كردى، إلا أن بعضهم يؤكد أنه تركى.

دخل قاسم المدرسة الابتدائية بالإسكندرية ولما أتم دراسته فيها التحق بالمدرسة التجهيزية بالقاهرة ثم انتقل منها - بعد أن نال شهادتها - إلى مدرسة الحقوق والإدارة حيث تخرج فيها سنة ١٨٨١ ولما كان من الطلبة المتفرقين فقد أرسل فى بعثة إلى كلية الحقوق فى «مونبلييه» بفرنسا فقضى فيها أربع سنوات عاد بعدها إلى مصر حيث عين مساعدا للنيابة المختلطة سنة ١٨٨٥. ثم انتقل منها إلى قلم قضايا الحكومة فى سنة ١٨٨٧ ثم رقى رئيسا لنيابة بنى سويف سنة ١٨٨٩، ثم انتقل منها إلى طنطا، ثم عين فى سنة ١٨٩١ نائب قاض بمحكمة الاستئناف ثم رقى بعد ذلك إلى درجة مستشار فى المحكمة نفسها ولم يكن قد جأوز الحادية والثلاثين من عمره!

كانت حياة هذا المصلح سلسلة كفاح، فهو دائب العمل والنشاط لا يستريح لحظة واحدة، بيد أن حياة هذا شأنها لابد ان تنطفئ شعلتها قبل الأوان فقد توفى قاسم أمين وهو فى الخامسة والأربعين من عمره.

ولم يبرز قاسم أمين فى الحياة العامة حين أرسل فى بعثة إلى فرنسا ولا حين عاد منها ليعين فى وظائف النيابة والقضاء، ولكنه ظهر ولمع نجمه حين خاض ميدان الإصلاح الاجتماعى بما عرف عنه من جرأة وحب لبنى وطنه. ويبدو لنا أنه لولا الكتاب الذى ألفه الدوق داركور عن «مصر والمصريين» سنة ١٨٩٣ والذى ملأه طعنا وذما وتجريحا لعادات المصريين وتقاليدهم لما عكف قاسم على دراسة المجتمع المصرى والأسس التى يقوم عليها دراسة وافية ليرد على الدوق فى كتاب باللغة الفرنسية أسماه «المصريون: رد على الدوق داركور». وقد دافع قاسم فى هذا الكتاب على بنى وطنه وهاجم الأوروبيين والحرية التى منحوها لنسائهم، إلا أن هذه

الدراسة التى قام بها قاسم أمين أوصلته إلى حقائق لم يكن يدركها من قبل. لقد أدرك أن المجتمع الذى يعيش فيه فى حاجة إلى إصلاح وأن هذا الإصلاح يجب أن يبدأ بالأسرة، ولكن كيف تصلح الأسرة والمرأة التى هى عمادها حبيسة دارها حبيسة الجهل المطبق؟ يجب إذن أن تعطى الحرية وأن يلغى هذا الحجاب الذى يحول بينها وبين نور العلم.

عاد قاسم أمين بعقله لا بوجدانه إلى المجتمع الأوروبى الذى عاش فيه أربع سنين وقارن بينه وبين المجتمع المصرى فألفى البون شاسعا والطريق مليئا بالعقبات. فبدأ يكتب فى «المؤيد» مقالات فى الإصلاح الاجتماعى بعنوان «أسباب ونتائج» و«حكم ومواعظ» كشف فيها عن علل المجتمع المصرى. ثم لم يلبث أن ألف كتابه «تحرير المرأة» الذى ذكر فيه الأسباب التى دعت إلى تأخر المرأة وندد بالحجاب وتعدد الزوجات!! وطالب بتعليم الفتاة لتستعين بالعلم على طلب رزقها ان هى فقدت عائلها، وهو يرى ان الفتاة الجاهلة تضطر إلى التسول أو إلى بيع شرفها إن هى لم تجد من يعولها.

وطبيعى أن يهاجَم قاسم أمين لآرائه الجريئة، فاتهمه بعضهم بالمروق من الدين وقال آخرون إنه يرمى بأفكاره الهدامة إلى قلب المجتمع المصرى وذهب بعض الجهلاء إلى إشاعة أنه يتواطأ بأفكاره مع الإنجليز ليقضى على البلاد قضاء لا رجعة فيه..

غير أن شدة الهجوم على قاسم لم تثنه من عزمه فى مواصلة الكفاح لتحرير المرأة وها هو ذا يطلع على بنى وطنه بكتاب ثان أطلق عليه «المرأة الجديدة» وأهداه إلى سعد زغلول ويُعد هذا الكتاب فى الواقع تكملة للأول ولو أنه يفوقه فى قوة الحُجة خاصة حينما يبحث فى التربية والحجاب. ومع أن قاسما لم يطالب بالمسأواة بين المرأة والرجل فى السياسة إلا أننا نرى فى الجملة التالية تمهيدا لهذه المطالبة فقد قال: «إن عقلا لا يقبل أن تعتبر المرأة إنسانا كامل العقل والحرية من جهة استحقاقها لعقوبة الشنق إذا قتلت ثم تعتبر ناقصة العقل بحيث تحرم من حريتها فى شئون الحياة العادية».

ولم تقتصر جهود هذا المصلح الاجتماعى على رفع مستوى المرأة، بل تعدته إلى النواحى الإنسانية والثقافية فقد أسس «الجمعية الخيرية الإسلامية» واشترك فى تأسيس «الجامعة المصرية» سنة ١٩٠٦ لأنه لمس «أن التعليم الموجود الآن لا يصلح إلا لإعداد الموظفين أو أصحاب فن يحترفون به للقيام بحاجات الحياة التى لا يستغنى عنها» وهو يطمع فى أن «يرى بين أبناء وطننا طائفة تطلب العلم حبا للحقيقة وشوقا إلى اكتشاف المجهول فئة يكون مبدؤها التعلم للتعليم».

فقاسم أمين أول من وصل إلى بيت الداء ونادى بالإصلاح، الإصلاح الذى يتعمق حتى يصل إلى الجذور لتنمو الشجرة وتزدهر على الأرض .



الكندى

٨٠١ - ٨٦٥م

فيلسوف العرب

الكندى من الاثنى عشر عبقريا الذين هم من الطراز الأول فى الذكاء على رأى العالم الشهير (كاردانو).. وهو من أشهر فلاسفة الإسلام ومن الذين لهم فضل كبير على الفلسفة والرياضيات والفلك. وقد عرف فى الشرق والغرب بمؤسس الفلسفة الاسلامية.

قال عنه ابن النديم: «إنه فاضل دهره وواحد عصره فى معرفة العلوم بأسرها، وفيلسوف العرب. كان عالما بالطب والفلسفة والحساب والهندسة والمنطق والنجوم وطبائع الأعداد..» واعترف باكون Bacon بفضله فقال:

«إن الكندى والحسن بن الهيثم فى الصف الأول مع بطليموس». وهو أول من حاز لقب فيلسوف الإسلام. اشتغل فى الهندسة وألف فيها. وقد جعل الشهرزورى الوصف الأول للكندى كونه مهندسا. واعترف بذلك البيهقى أيضا فقال: «كان الكندى مهندسا خائضا غمرات العلم..» وكان العلماء فى القرن التاسع وما بعده يرجعون إلى نظرياته ومؤلفاته عند القيام بأعمال بنائية كما حدث عند حفر الأقنية بين دجلة والفرات.

هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق بن الصباح بن عمران بن إسماعيل بن الأشعث بن قيس الكندى، وهو أول فيلسوف فى المسلمين والعرب، ولذلك سمى بحق «فيلسوف العرب». ذلك أن المباحث الفلسفية كانت فى القرنين الأول والثانى

للهجرة فى أيدى النصارى من السريان الذين كان معظمهم أطباء استعان بهم الخلفاء فى العلاج، وحثوهم على نقل الطب والفلسفة، إلى أن شاركهم فى النقل عن السريانية الكندى، فكان أول فيلسوف عربى مسلم.

وقد اعتنق جده الأشعث الإسلام، وكان من صحابة الرسول، وذهب الأشعث مع بعض السابقين من المسلمين إلى الكوفة واستقر بها. وكان والد الكندى إسحاق بن الصباح وإليا على الكوفة فى خلافة المهدى والرشيد حيث ولد يعقوب فيلسوفنا، فى أكبر الظن، عام ١٨٥ هـ قبل وفاة الرشيد بعقد من الزمان.

تعلم الكندى فى صباه ما يتعلمه أمثاله من المسلمين: فحفظ القرآن والنحو والأدب العربى وبعض الحساب ثم درس الفقه، واطلع على علم الكلام.. ذلك العلم الذى كان قد بدأ فى الظهور، ودار البحث فيه على المعتقدات الدينية. ولكن يبدو أنه كان أكثر ميلا إلى العلوم والفلسفة التى عكف عليها طول حياته. وبخاصة بعد انتقاله إلى بغداد، فانصرف إلى طلبها.

ومما لا ريب فيه أنه يعرف اللغة السريانية التى نقل منها، وألف بها بعض الرسائل، أما معرفته باليونانية فموضع شك، وكان يراجع بعض الترجمات.

وكان يترجم ويراجع ويلخص، أو كما قال سليمان بن حسان المعروف بابن جلجل فى كتابه «طبقات الأطباء والحكماء»، الذى نقل عنه القفطى، أنه «ترجم من كتب الفلسفة الكثير، وأوضح منها المشكل، ولخص المستصعب، وبسط العويص». وجعله ابن أبى أصيبعة فى طبقات الأطباء من حذاق المترجمين.

الكندى المؤلف

كان الكندى غزير التأليف، وقد وصف الشهرزورى مقدارها بقوله: إن فهرست كتبه يزيد على دست كاغد، أى اثنتى عشرة ورقة. وليس هذا القدر بمستغرب، لان ثبت مؤلفاته التى أوردها ابن النديم يبلغ ٢٤١ كتابا، موزعة على ١٧ نوعا. غير أن كثيرا من هذه المؤلفات تناولتها يد الضياع، فلم يبق لدينا إلا بضعة وخمسون كتابا، طبع منها بالفعل أربعون، ولا يزال الباقى مخطوطا.

ولا ينبغى أن يروعنا هذا العدد الوفير، لأن معظم هذه الكتب أشبه برسائل صغيرة الحجم، لا يتجاوز عدد صفحات بعضها عشر صفحات.

إن أقدم ثبت بمؤلفات الكندى هو ذلك الذى أورده ابن النديم، وعنه أخذ القفطى وابن أبى أصيبعة. وقد رتبها ابن النديم تحت سبعة عشر صنفا، أولها كتبه الفلسفيات وآخرها الأنواعيات. ويبلغ عدد مؤلفاته بحسب ابن النديم، وبحسب القفطى، وبحسب ابن أبى أصيبعة. ومن شاء الوقوف على كتب الكندى المنسوبة إليه، فليرجع إلى البحث الذى نشره الأب مكارثى سنة ١٦٩٢، وفيه أورد المصنفات المطبوعة والمخطوطة والمترجمة. وهو بحث أولى نافع يعد أساسا صالحا لمتابعة البحث، وبخاصة لأنه ذكر المكتبات التى توجد فيها مخطوطات الكندى.



كنفوشيوس

٥٥١ - ٤٧٩ ق.م

صاحب المدرسة الأخلاقية

التى سادت أكثر من ٢٥ قرناً!!

يُعد كنفوشيوس واحدا من الرجال القليلين الذين أثروا تأثيرا عميقا فى التاريخ البشرى بقوة مواهبهم الشخصية والعقلية وبقوة انجازاتهم. فقد كان حكيما وفيلسوفا سياسيا وأخلاقيا ودينيا، وكان مؤسسا لمدرسة دينية ساد نفوذها الشعب الصينى أكثر من خمسة وعشرين قرنا أو منذ القرن السادس قبل الميلاد حتى أوائل القرن الواحد والعشرين.

يتكون اسم كنفوشيوس وهو الاختصار اللاتينى Confecious لاسم الحكيم الذى نتحدث عنه، من لفظين: كنج Kung وهو اسم القبيلة التى ينتمى إليها الحكيم، ثم فوتسى Fu-tze ومعناه الرئيس أو الفيلسوف، فاسم كنفوشيوس إذن يعنى رئيس قبيلة كنج وفيلسوفها أو حكيمها، ولقد ولد هذا الحكيم فى ولاية «لو». وكانت الصين فى ذلك الوقت تسير على النظام الإقطاعى، فكانت مقسمة إلى ولايات وعلى رأس كل ولاية دوق أو وال يخضع للإمبراطور. كما كانت كل ولاية مقسمة إلى مقاطعات على رأس كل منها نبيل. وكانت المقاطعات التى تؤلف كل ولاية فى تطاحن مستمر فيما بينها، فكل منها كانت تحاول التوسع على حساب الأخرى.

ونشأ كنفوشيوس فقيرا فى خدمة أحد الأمراء الذى كلفه برعى الأغنام.

وتفانى كنفوشيوس فى هذه الحرفة ومن ثم رقى بعد ذلك إلى منصب مشرف على الحدائق العامة بالولاية، ثم اضطر إلى ترك مسقط رأسه لكى يتنقل فى بعض الولايات المجأورة لأنه شعر أن هذه الأعمال لا تناسب مواهبه، وأخيرا أنشأ فى سن الثانية والعشرين مدرسة لتعريف الشباب ذوى المواهب الخاصة بأصول الفلسفة الأخلاقية والسياسية.

وكان تعليمه فى تلك المدرسة كتعليم سقراط شفهيا لا يلجأ فيه إلى الكتابة، ولهذا فإن أكثر ما نعرفه من أخباره قد وصل إلينا عن طريق أتباعه ومريديه، وقد ترك للفلاسفة مثلا قل ان يعبأوا به - وهو ألا يهاجموا أبدا غيرهم من المفكرين، وألا يضيعوا وقتهم فى دحض حججهم. ولم يكن يعلم طريقة من طرق المنطق الدقيق، ولكنه كان يشحذ عقول تلاميذه بأن يعرض بأخطائهم فى رفق ويطلب إليهم شدة إليقظة العقلية. ومن أقواله فى هذا المعنى: «إذا لم يكن من عادة الشخص أن يقول: ماذا أرى فى هذا؟ فإنى لا أستطيع أن أفعل له شيئا». «إنى لا أفتح باب الحق لمن لا يحرص على معرفته، ولا أعين من لا يعنى بالإفصاح عما يكنه فى صدره. وإذا ما عرضت ركنا من موضوع ما على إنسان، ولم يستطع مما عرضته أن يعرف ثلاثة الأركان الباقية فإنى لا أعيد عليه درسا». ولم يكن يشك فى أن صنفين اثنين من الناس هما وحدهما اللذان يستطيعان أن يفيدا من تعإليمه وهما أحكم الحكماء وأغبى الأغبياء، وأن لا أحد يستطيع ان يدرس الفلسفة الإنسانية بأمانة وإخلاص دون ان تصلح دراستها من خلقه وعقله. «وليس من السهل أن نجد إنسانا واصل الدرس ثلاث سنين دون أن يصبح انسانا صالحا».

وسرعان ما التف الناس حوله حتى استطاع أن يفخر بأنه قد تخرج على يديه ثلاثة آلاف شاب غادروا مدرسته ليشغلوا مراكز خطيرة وليصبحوا من قادة الفكر والسياسة فى الصين القديمة، كما كانوا هم الذين نقلوا آراءه فيما بعد. ولقد اتصل بفيلسوف صينى آخر كان معاصرا له وهو «لأوتسى» وهو من أشهر فلاسفة الصين القدامى وهو الذى يعزى إليه المذهب أو الدين التأوى الذى يقوم على وجود القانون السمأاوى الأعظم، وأصل الحياة والنشاط والحركة فى السماء والأرض،

وهو الذى يبعث الحياة فى الموجودات. ثم عاد كنفوشيوس إلى «لو» مسقط رأسه ليستأنف التدريس هناك.

وكان كنفوشيوس معلما من الطراز القديم يعتقد أن التنائى عن تلاميذه وعدم الاختلاط بهم ضروريان لنجاح التعليم. وكان شديد المراعاة للمراسم، وكانت قواعد الآداب والمجاملة طعامه وشرابه، وكان يبذل ما فى وسعه للحد من قوة الغرائز والشهوات وكبح جماحها بعقيدته المتزمتة الصارمة. ويلوح أنه كان يزكى نفسه فى بعض الأحيان. ويروى عنه أنه قال عن نفسه يوما من الأيام مقالة فيها بعض التواضع: «قد يوجد فى كفر من عشر أسر رجل فى مثل نبلى وإخلاصى ولكنه لن يكون مولعا بالعلم مثلى» وقال مرة أخرى: «قد أكون فى الأدب مسأويا لغيرى من الناس، ولكن «خلق» الرجل الأعلى الذى لا يختلف قوله عن فعله هو ما لم أصل إليه بعد». و«من وجد من الأمراء من يولينى عملا لقمت فى اثنى عشر شهرا بأعمال جليلة، ولبلغت «الحكومة» درجة الكمال فى ثلاث سنين». على أننا نقول بوجه عام انه كان متواضعا فى عظمته. ويؤكد لنا تلاميذه أن «المعلم كان مبرأ من أربعة عيوب، كان لا يجادل وفى عقله حكم سابق مقرر، ولا يتحكم فى الناس ويفرض عليهم عقائده، ولم يكن عنيدا ولا أنانيا». وكان يصف نفسه بأنه «ناقل غير منشىء»، وكان يدعى أن كل ما يفعله هو أن ينقل إلى الناس ما تعلمه من الامبراطورين العظيمين «يو» و«شون»، وكان شديد الرغبة فى حسن السمعة والمناصب الرفيعة، ولكنه لم يكن يقبل أن يترامى على شىء مشين ليحصل عليهما أو يستبقيهما. وكم من مرة رفض منصبا رفيعا عرضه عليه رجال بدا له أن حكومتهم ظالمة، وكان مما نصح به تلاميذه ان من واجب الانسان أن يقول: «لست أبالى مطلقا إذا لم أشغل منصبا كبيرا، وإنما الذى أعنى به أن أجعل نفسى خليقا بذلك المنصب الكبير. وليس يهمنى قط أن الناس لا يعرفوننى ولكنى أعمل على أن أكون خليقا بأن يعرفنى الناس».

وواتته الفرصة حين عين فى أواخر القرن السادس قبل الميلاد كبير القضاة فى مدينة جونج - دو، وتقول الرواية الصينية إن المدينة فى أيامه قد اجتاحتها

موجة جارفة من الشرف والأمانة، فكان إذا سقط شىء فى الطريق بقى حيث هو أو أعيد إلى صاحبه. ولما رقاه الدوق دنج دوق «لو» إلى منصب نائب رئيس الأشغال العامة شرع فى مسح أرض الدولة فأدخل إصلاحات جمة فى الشؤون الزراعية، ويقال إنه لما رقى بعدئذ وزيرا للعدل كان مجرد وجوده فى هذا المنصب كافيا لقطع دابر الجريمة. وفى ذلك تقول السجلات الصينية: «لقد استحيث الخيانة واستحى الفساد ان يطلا برأسيهما واختفيا، وأصبح الوفاء والإخلاص شيمة الرجال، كما أصبح العفاف ودماثة الخلق شيمة النساء. وجاء الأجانب زرافات من الولايات الأخرى. وأصبح كنفوشيوس معبود الشعب».

إن هذا الإطراء سواء كان خليقا به أو لم يكن فإنه كان أرقى من أن يعمر طويلا. وما من شك فى أن المجرمين قد يأتمرون بالمعلم الكبير ويدبرون المكائد للايقاع به. ويقول المؤرخ الصينى: إن الولايات المتحدة القريبة من «لو» دب فيها دبيب الحسد وخشيت على نفسها من قوة «لو» الناهضة. ودبر وزير ماكر من وزراء تشى مكيدة ليفرق بها بين دوق «لو» وكنفوشيوس.

ثم يبدأ كنفوشيوس فى الارتحال والتجوال بين الولايات المتحدة الصينية، وبدأ يتصل بالولاة ويقدم النصائح ويدرس للناس ويناظر العلماء والأدباء. ولما بلغ التاسعة والستين من عمره جلس دوق جيه آخر الأمر على عرش «لو» وأرسل ثلاثة من موظفيه إلى الفيلسوف يحملون إليه ما يليق من الهدايا بمقامة العظيم ويدعونه إلى موطنه. وقضى كنفوشيوس الأعوام الخمسة الباقية من حياته يعيش معيشة بسيطة معززا مكرما، وكثيرا ما كان يتردد عليه زعماء «لو» يستنصحونه، ولكنه أحسن كل الإحسان بأن قضى معظم وقته فى عزلة أدبية منصرفا إلى أنسب الأعمال وأحبها إليه وهو نشر روائع الكتب الصينية وكتابة تاريخ الصينيين. وكان يسلى نفسه فى وحدته بالشعر والفلسفة، ويسره أن غرائزه تتفق وقتئذ مع عقله، ومن أقواله فى ذلك الوقت: «لقد كنت فى الخامسة عشرة من عمرى مكبا على العلم،وفى الثلاثين وقفت ثابتا لا أتزعزع، وفى سن الأربعين زالت عنى شكوكى، وفى الخمسين من عمرى عرفت أوامر السماء، وفى الستين كانت أذنى عضوا طيعا

لتلك الحقيقة، وفى السبعين كان فى وسعى أن أطيع ما يهواه قلبى دون أن يؤدى بى ذلك إلى تنكب طريق الصواب والعدل».

ولم يكد كنفوشيوس يختم حياته - توفى عام ٤٧٩ق.م - حتى انتشر تلاميذه فى أحياء الصين ينشرون مبادئه وتعاليمه، التى لم تلبث أن أخذت طابع القداسة وأصبحت دينا للصينيين.

مؤلفات المدرسة الكنفوشيوسية

لقد كانت الدراسات التاريخية أهم الدراسات السائدة فى الصين فى القرن السادس قبل الميلاد. ذلك أن الصين كان بها حضارة يانعة مزدهرة فى جميع الميادين السياسية والاقتصادية والثقافية فى القرن العشرين قبل الميلاد. وحدث بعد ذلك أن انحطت الأحوال فى الصين ابتداء من القرن العاشر، كما تغيرت اللغة الصينية تغيرا كبيرا فى تلك الفترة بحيث أصبح رجل القرن السادس قبل الميلاد غير قادر على قراءة مؤلفات الحضارة الصينية العتيقة، مما أدى إلى شبه انقطاع تام بين حضارة الصين العتيقة وبين أجيال القرون الأولى قبل الميلاد، لذلك ركز كنفوشيوس جهوده فى نقل هذا التراث القديم إلى لغة الصين الجديدة آنذاك مضيفا إليه أجزاء لا شك فى أصالتها من الحكمة والمعرفة. وعلى ذلك درس كنفوشيوس وعلم كتب السابقين عليه فى التاريخ والتغييرات التى طرأت على الأرض وما عليها منذ أقدم العصور.

ولقد أدت مجهوداته فى النهاية إلى تأليفه للكتب الخمسة أو الكلاسيكيات الخمسة وكان تلاميذ كنفوشيوس يلقبونه باسم «معلم الجنس البشرى» بل كانوا يعدونه أعظم معلم «أنجبته العصور». وكانوا ينقلون آراء أستاذهم ويعلقون عليها ويشرحونها. وتألف عن ذلك مدرسة كبرى هى المدرسة الكنفوشيوسية التى خدمت الصين أكثر من ألفى عام. لذلك تنقسم مؤلفات المدرسة الكنفوشيوسية إلى قسمين: قسم يسمى «الكتب الخمسة» وهى الكتب التى كتبها كنفوشيوس نفسه. أما القسم الثانى، فهو مؤلفات تلاميذ كنفوشيوس فى حياته أو بعد وفاته، وفيها يعرض هؤلاء التلاميذ لآراء استاذهم وفلسفته مع شرح وتعليق. وهذه الكتب الأخيرة مهمة

جدا لأنها تعد المرجع الرئيسى للفلسفة الكنفوشية. ولكن أهميتها ترجع إلى أنها تهتم بآراء كنفوشيوس أكثر من اهتمامها بالآراء والتقاليد التى كانت سائدة فى العصور السحيقة. كما أنها تشرح الفلسفة الكنفوشية بشكل مبسط سهل يرقى إليه تفكير الرجل العادى.

أما الكتب الخمسة القديمة التى ألفها كنفوشيوس بنفسه وهى المسماة باسم الكلاسيكيات الخمسة فهى:

١- كتاب الأغانى أو الشعر:

٢- كتاب التاريخ.

٣- كتاب التغيرات.

٤- حوليات الربيع والخريف.

٥- كتاب الطقوس أو التقاليد.

❀ ❀ ❀

الكواكبى، عبد الرحمن

١٨٥٤ - ١٩٠٢م

زعيم الإصلاح الاجتماعى

عبد الرحمن الكواكبى كاتب سياسى عربى، لمع فى أواخر القرن التاسع عشر فى أثناء حركة المقاومة الفكرية ضد المستبدين الطغاة والمستعمرين العتاة.

ولد فى حلب، من بيت تليد المجد فى حسبه وجاهه وعلمه، فهو ينتمى فى عروبته العريقة إلى البيت العلوى الكريم، بيد أنه لم يعتمد على ذلك الحسب ولم يستمد مجده من تلك الأروقة الكريمة، ولو شاء لعاش فى دعة ورفاهية. ولكنه أدرك ما قال جده العظيم على بن أبى طالب كرم الله وجهه، من أن قدر الرجل على قدر همته لذلك هجر حياه الدعة والرفاهية، وآثر مشقة الكفاح، وشظف النضال فى سبيل قومه وقوميته.

وتعلم الشاب ما يتعلمه أمثاله من النابهين من أبناء وطنه، وجمع إلى معرفته بلغته العربية اللغتين التركية والفارسية، ويرجع الفضل فى ثقافته الواسعة العميقة إلى مصادر أربعة: إلى المدارس التى تعلم فيها فى أنطاكية وحلب، وإلى أهله الأقربين الذين عنوا بتثقيفه، ولاسيما والده وخالته، وإلى شخصيته الممتازة الطموح التى مالت إلى القراءة والاطلاع، وإلى أسفاره واتصالاته فى مختلف البلاد العربية والإسلامية.

ومالت به طبيعته إلى الكتابة، فقد شعر منذ شبابه الباكر أنه صاحب رسالة إصلاحية، وكان مجال ذلك فى الصحافة، فمارسها أول الأمر فى جريدة «الفرات»

وقبل أن يبلغ الثلاثين من عمره أنشأ جريدة «الشهباء» التى يقترن اسمها بالكفاح والبطولة، إذ كان العهد عهد الحكم العثمانى المباشر بما كان فيه من كبت للحريات، واضطهاد للأحرار، ولكن السلطات الحاكمة أغلقت الجريدة، ولم يفت ذلك فى عضد الشاب الثائر، فقد اتخذ من الهزيمة عزيمة، فأنشأ صحيفة أخرى أسماها «الاعتدال» ولكنه لم يكن فيما يكتبه فيها أكثر اعتدالا مما كان يكتب فى «الشهباء» فصاحب العقيدة الراسخة لا يهادن ولا يساوم، ومن ثم أغلقتها السلطات التركية كما أغلقت أختها من قبل.

وتنقل الكواكبى فى وظائف الدولة، ولكنه كما لم يكن فى صحافته من المرتزقة الذين يداهنون الحكام، ويتملقون غرائز القراء، كذلك لم يكن فى وظائفه مرتزقا يخضع لقيودالوظيفة فى عبودية للحاكم، وإغضاء عن ظلمه للمحكومين، فلم يكن من أجل ذلك أثيرا لدى السلطات الحاكمة، ففضل الاستقالة، واتخذ له مكتبا للمحاماة، وكان أهم أعماله فى هذا المكتب إرشاد أصحاب المظالم، ومساعدتهم على الانتصاف ورفع الظلم عنهم، فكان بذلك محاميا عن الأفراد، كما كان محامياً عن المجتمع فزاد ذلك من غضب الحكام عليه.

وقد اشتغل الكواكبى حقبة من الزمن بالتجارة، فكان مثال التاجر الصادق الأمين، ولكن السلطات الحاكمة لم تكن تطيق بقاء رجل كالكواكبى لم يكن يشغله شاغل عن تنبيه أمته إلى ما هو واقع عليها من الظلم، وكانت بلاد الشام يومئذ ولاية عثمانية وكانت مصر ترزح تحت النفوذ العثمانى والخديو، كما كانت تجمع إلى ذلك ظلم المستعمر البريطانى، بعد أن كافح الكواكبى طغيان الحكم العثمانى فى حلب جاء إلى مصر لينشر فيها ومنها إلى جميع الأقطار العربية دعوته إلى الوحدة والقومية العربية لتلعب دورها الإيجابى فى خلق كيان العرب.

هذه الدعوة الصريحة ضمنها كتابه «أم القرى» الذى كتبه فى حلب، وهو أول رحلاته فى بيداء الفكر..

يقول الكواكبى فى كتابه «أم القرى» عن العرب:

«إن العرب أقدم الأمم اتباعا لأصول تساوى الحقوق وتقارب المراتب فى الهيئة

الاجتماعية، والعرب أعرق الأمم فى أصول الشورى فى الشئون العمومية.

والعرب أهدى الأمم لأصول المعيشة الاشتراكية. والعرب من أحرص الأمم على احترام العهود عزة، واحترام الذمة إنسانية، واحترام الجوار شهامة، وبذل المعروف مروءة».

ودفاع الكواكبى عن كرامة الإنسان يبدو فى وضوح لا غموض فيه فى استمساكه بالحرية وهو يعرضها فى كتابه «أم القرى».

ويمجد الكواكبى الأديان السماوية جميعاً فى تقريرها العبودية لله وحده لا لأحد من البشر ثم يقول: «وجاء الإسلام بالحكمة والعزم هادماً للتشريك بالكلية ومحكما لقواعد الحرية السياسية فأظهر للوجود حكومة كحكومة الخلفاء الراشدين التى لم يجد الزمان بمثال لها بين البشر. فإنهم أنشأوا حكومة قضت بالتسأوى حتى بين أنفسهم وبين فقراء الأمة فى نعيم الحياة وشظفها. وأحدثوا روابط أخوة وروابط هيئة اجتماعية وحالات معيشة اشتراكية لا تكاد توجد بين أشقاء يعيشون بإعالة أب واحد وفى حضانة أم واحدة».

وينتقل الكواكبى من الدعوة للحرية إلى طلب العلم والسعى إليه، فيشبه المستبد فى علاقته برعيته بالوصى الخائن القوى مع أيتام الأغنياء، يتصرف فى أموالهم وأنفسهم كما يشاء ما داموا قاصرين، فكما أنه ليس من صالح الوصى أن يبلغ الأيتام رشدهم، كذلك ليس غرض المستبد أن تتنور الرعية بالعلم.

ويقول:

«العلم قبس من نور الله، وقد خلق الله نوره كشافاً مبصراً ولاداً للحرارة والقوة. والمستبد لا يخاف من العلوم كلها، بل من التى توسع العقول وتعرف الإنسان ما الإنسان وما هى حقوقه، وهل هو مغبون أو غير مغبون وكيف الطلب وكيف النوال وكيف الحفظ.. وإن بين الاستبداد والعلم حربا دائماً وطراداً، والاستبداد والعلم ضدان متغالبان فكل إدارة مستبدة تسعى جهدها فى إطفاء نور العلم ومصير الرعية فى حالك الجهل».

ويقول فى موضع آخر:

«جاء العرب بعد الإسلام وأطلقوا حرية العلم وأتاحوا تنأوله لكل متعلم، فانتقل إلى أوروبا حرا، فتنورت به عقول الأمم، ويقول عن العالم الغربى إنه مادى الحياة حريص على الاستثمار كأنه لم يبق عنده شىء من المبادئ العالية والعواطف الشريفة التى نقلتها إليه مسيحية الشرق».

ويعقد هنا الكواكبى مقارنة طريفة بين المستبد الغربى والمستبد الشرقى فيقول: «إن أخوف ما يخافه المستبدون الغربيون أن يعرف الناس حقيقة أن الحرية أفضل من الحياة، وأن يعرفوا النفس وعزها، والشرف وعظمته، والحقوق وكيف تحفظ، والظلم وكيف يرفع، والإنسانية وما هى وظائفها، والرحمة وما هى لذاتها».

أما المستبد الشرقى فيقول عنه:

«أما المستبدون الشرقيون وخوفهم من العلم فأفئدتهم هواء ترتجف من صولة العلم وكأن أجسامهم من بارود والعلم نار، نعم يخافون من علم الناس معنى كلمة «لا إله إلا الله» ولماذا بنى عليها الإسلام».

ويختم كتابه «طبائع الاستبداد» بفصل يشرح فيه كيفية التخلص من الاستبداد فيرى أن الاستبداد لا يقأوم بالقوة إنما يقأوم باللين وبالتدريج ببث الشعور بالظلم، وذلك يكون بالتعلم وإقناع الرأى العام، وذلك لأن الاستبداد تحرسه قوات كثيرة: قوة الجند، وقوة المال، وقوة بعض رجال الدين وقوة الأغنياء، فإذا وجه بالقوة كانت فتنة تدمر الناس، وإنما الواجب المقأومة بالحكمة فى توجيه الأفكار نحو إقامة العدالة. والاستبداد برغم اعتماده على هذه القوات كلها يضعف أمام الوسائل المحكمة. ويقول:

لا يعتبر المستبد بعظيم قوته ومزيد احتياطه، فكم من جبار عنيد جند له مظلوم صغير، ويشير إلى ترتيب المقأومة والاستعداد الفكرى وتعميمه وذلك بإشعار الأمة آلام الاستبداد ودفعها إلى أن تحكم نفسها بنفسها وبذلك يتم السير الطبيعى لسُنة الحياة.

أما على المستوى الاخلاقى فيلاحظ الكواكبى أن العلاقة بين الاستبداد والأخلاق هى علاقة سلبية، فالاستبداد لا يقتصر امره على كبت الحريات والتصرف فى شئون الدولة تصرفا كيفيا بل يتعدى كل ذلك إلى إفساد الخلق البشرى وتشويه الفضائل. فالاستبداد يجعل الإنسان حاقدا على قومه لأنهم عون الاستبداد عليه، ويكره وطنه ويشيع القلق فى نفسه لأنه لا يملك مالا غير معرض للسلب، ولا عرضا غير معرض للإهانة. كما أن الاستبداد يسلب الراحة الفكرية ويمرض العقول ولا سيما فى العوام الذين يصل بهم الأمر إلى عدم التمييز بين الخير والشر. ويبلغ بهم تبلبل الفكر إلى أن مجرد آثار الأبهة والعظمة التى يرونها على المستبد وأعوانه تخلب أبصارهم. ومجرد سماع ألفاظ التفخيم فى وصف الحاكم يدفعهم إلى الانصياع بين يديه كأنهم الماشية أمام الذئب. بل إن الاستبداد قد يسديها بعض رجال الدين، فلا توجه إلا للمستضعفين الذين لا يملكون شأنهم، فى حين أن هذه النصيحة يجب أن توجه إلى المستبد.

وعلى المستوى التربوى يتفق الكواكبى مع مفكرى العرب القدماء وبصفة خاصة مع إخوان الصفا والغزإلى من أن طبيعة الإنسان خيرة ومبنية على الخير، ولكنها تبدأ فى حالة حيادية متأثرة بالتربية والتوجيه، ويمكن طبعها بالآراء الخيرة أو الشريرة. والتربية ملكة تحصل بالتعليم والتمرن والقدرة والاقتباس. وهى تتأثر بعد مرحلة البلوغ بصفة خاصة بالبيئة المحيطة بالإنسان وبالمجتمع، وبالقانون وبالنهج السياسى، ثم بإرادة الإنسان نفسه، وإذا كانت التربية تعويد اللسان على قول الخير، وتعويد اليد على الكرم، وتكبير النفس عن السفاسف، ونصرة الظالم، وحفظ الشرف والحقوق وحب الوطن واحتقار الظالمين، فإن الاستبداد يحض الناس على إباحة الكذب والخداع والتذلل، ويأتى بأجيال من الناس يعيشون فى جو مشحون بالفساد تكون المدرسة فيه سجنا، والشارع معلما للرذيلة، والأسرة مصدرا للتنغيص.

أما عن التقدم الحضارى ويسميه الكواكبى الترقى فيقول إنه إذا كانت الحركة سُنة عامة فى الخليقة، دائبة بين شخوص وهبوط، فالترقى هو الحركة الحيوية، ويقابله الهبوط وهو الحركة إلى الانحلال أو الموت. والاستبداد دائما مع الهبوط

إلى حيث الانحلال أو الموت. بهذا كان الكواكبى واعيا أدق الوعى للأثر المفسد الذى يحدثه الاستبداد فى حياة المجتمع الإنسانى، ويرى أن الإرادة مفتاح الأخلاق، فأسير الاستبداد الفاقد الإرادة، مسلوب حق الحيوانية فضلا عن حق الإنسانية، لأنه يعمل بأمر غيره، لا بإرادته، ومن هنا كانت ضرورة إصلاح أخلاق النخبة فى المجتمع قبل غيرها.

والشىء الجدير بالتسجيل أن الكواكبى لم ينفصل عن تقاليده العربية الخاصة، أو يظهر أقل انحراف عن اتجاهها القديم، على الرغم من كل هذا التفتح العجيب لتلقى الأفكار الجادة المثمرة أينما وجدها. لقد جمع بين الأصالة العربية والمعاصرة العالمية فى أسلوب قد يعجز عنه بعض العرب الآن. ولنا أن نتصور حال العرب الآن إذا كانوا قد استوعبوا فكر الكواكبى - الذى نشره من حوالى قرن مضى - ووضعوه موضع التنفيذ؟! لاشك أن تقدما خطيرا كان يمكن أن يحدث للأمة العربية، لكن يبدو ان أمتنا ما زالت تعانى من بقايا العقلية العثمانية المتجمدة ومن آثار الاستعمار التقليدى. من هنا كان الكواكبى مدركا لأبعاد مهمته الحضارية القومية الخطيرة، وأكد انها فى حاجة إلى الكثيرين من أمثاله لكى يزيلوا هذه الرواسب والشوائب التى لابد ان تستغرق وقتا طويلا.

وبينما الناس يعجبون بما ينشر من مقالات فى الجرائد والمجلات والندوات الأدبية عامرة بأحاديثه العذبة إذا بالصحف المصرية تنشر نبأ موته الفجائى يوم ٦ من ربيع الأول سنة ١٣٢٠ هـ «١٥ يونيو ١٩٠٢» فبكاه كل محب لإصلاح المسلمين، إذ كان يرى فيه رجلا رضى الخلق، عف اللسان، عف القلم، نقى الضمير، نبيل المقصد.



المازنى، إبراهيم عبد القادر

١٨٨٩ - ١٩٤٩م

من رواد الرواية العربية المعاصرة

توفى «المازنى» عام ١٩٤٩ ومضى منذ ثلاثين عاما دون ان يخلف وراءه أى صدى، إلا تلك الرسالة التى قدمتها الدكتورة نعمات أحمد فؤاد لنيل إجازة الماجستير، ثم وسعتها من بعد فأضافت إليها بعض الفصول أما فيما عدا ذلك فقد توقف الكلام حول المازنى كأنه لم يخلف أى أثر فى الحياة الأدبية العربية المعاصرة.

واليوم وقد إنطوت صفحة مجموعة كبيرة من هؤلاء الرواد: هيكل والعقاد وزكى مبارك والزيات وأحمد أمين وفريد أبو حديد والرافعى، نجد المازنى وهو أشد هؤلاء جميعا غبنا وإنكارا فإذا ما ذكرت الدراسات الأدبية ذكر العقاد وطه حسين وإذا ذكرت الدراسات الإسلامية ذكر هيكل والعقاد والرافعى. وإذا ذكرت التراجم ذكر العقاد وطه حسين وهيكل.. وهكذا لا يجد المازنى منفذا إلى ذكرى مع أنه الناقد القصاص صاحب الأسلوب الحلو العذب والروح الفكهة الساخرة. والرجل الذى عاش عمره كله يكتب والذى كان يملأ الصحف جيمعا - يوميا - بمقالاته وآثاره.

وبالرغم من مؤلفات المازنى المعروفة المطبوعة فإن له فى بطون الصحف والمجلات مئات المقالات والصور واللوحات الحافلة بالنظرة الإنسانية ذات العبرة النفسية.

* * *

فى حياة المازنى ثلاثة أحداث ضخمة، وفاة أمه وحادث ساقه ووفاة زوجته الأولى، كان يحب أمه فى عنف وبصورة لم تعرف إلا عند جبران.

وعاش المازنى تسع سنوات بعد وفاة أمه يعيش على ذكراها.

أما ساقه فقد كانت له منها عقدة إلى جوار عقدته من قصر قامته، ولقد أصيب بالعرج.

وكان الحادث الثالث وفاة زوجته فقد كان يحبها حبا عظيما فلما ماتت حزن عليها حزنا شديدا.

ولقد عاش المازنى حياته كلها ولهذه الأحداث أثرها الواضح عنده.

ولقد كان المازنى شديد التعلق بالحياة، وكان فى أيامه الأخيرة يفكر فى الموت تفكيرا متصلا وقد أحس بالموت قبل وفاته بأسبوعين فكتب وصيته.

ولكن المازنى بالرغم من هذا الحرمان كان من أنفذ كتابنا فى مسائل المرأة وأمور الحب والعاطفة والزواج.

فالمازنى هو أحد هؤلاء الرواد الذين صنعوا هذا الأدب المعاصر وتركوا فيه آثارا قوية بعيدة المدى يقدرها كل من يحأول دراسته.

بدأ المازنى حياته مدرسا - ثم آثر الصحافة والأدب، فانصرف عن التدريس مبكرا، وظل يتقلب فى هذه الدوامة الضخمة ثلاثين عاما، لم ينقطع فيها عن الكتابة والإنشاء والترجمة يوما واحدا فهو يقرأ ويستوعب ويذهب هنا وهناك يطالع الحياة ثم يعود إلى قلمه وورقه.

وشارك المازنى فى تحرير عدد من الصحف إليومية والأسبوعية لا يحصرها الاستقصاء، وهى صحف منوعة من الناحية السياسية اتصلت غالبا بجميع الأحزاب والهيئات، وتطور أسلوبه تطورا كبيرا، واشترك منذ الشباب مع العقاد وشكرى فى الدعوة إلى المذهب الجديد الذى كان له صدى بعيد المدى فى تحديد معالم الأدب المعاصر.

وثقف المازنى نفسه بالأدب الإنجليزى وأوغل فيه وتحول فيه من لون إلى لون

ومن اتجاه إلى اتجاه، وكان لعبد الرحمن شكرى الفضل فى توجيهه إلى الألوان الرفيعة فيه.

ومضى المازنى يشق طريقه الأدبى فى قوة، فتقلب فى كتابة المقالات والفصول الأدبية والنقدية والتحليلية، ونظم الشعر ثم انصرف عنه واتهم نفسه بأنه ليس شاعرا ثم عرف طريقه أخيرا واستقر عليه عندما بدأ يكتب القصة.

ولقد كان المازنى ينعى على الأدب أنه لا يكفل للمتجرد له حياة أو معاشا وقال: إنه لو فتح دكانا لبيع الطعمية لكان ذلك أكسب له من إنتاج الأدب، وكان يسخر من نفسه ومن مؤلفاته التى يبيعها بالأقة لبعض بائعى اللب والترمس غير ان رأيه استقر اخيرا على أن يفتح دكانا أدبيا يستعيض به عن دكان الطعمية، وقد شغل المازنى بالكتابة السياسية ولكن لونه السياسى لم يكن واضحا وان عرفت كتاباته السياسية بالنقد اللاذع والسخرية العميقة.

والمازنى كاتب فكه ساخر ولكنه عميق الغور واسع الأفق، وانطبعت فى نفسه صور الحياة المصرية فى مختلف مظاهرها غاية فى القوة والوضوح فما أظن أن كاتبا استطاع تصوير الشعب المصرى فى أفراحه وأحزانه وأعياده ومواسمه كما فعل المازنى.

ولعل ساقه التى هيضت فى شبابه كانت بعيدة الأثر فى طبيعته وفى كيانه كله، فهى قد جعلته «فأر مكتبة» بكل معنى الكلمة، إذ آثر القبوع والانزواء والاعتزال مما أتاح له أن يظفر بقدر ضخم من الثقافة والقراءة والتأمل.. يوم عرسه، دخل إلى مكتبته واعتكف فيها طول يومه غير مبال بهذه الإنسانة الجديدة.

وأسلوب المازنى له طابعه المحير ويمكن اكتشافه ولو لم يوقعه صاحبه وهو يحب الازدواج، وقد كان كلفا به فى فجر أدبه ثم انصرف عنه شيئا ما، ويبدو من وراء كتاباته هادئ النفس، مركز الأعصاب، كانما لا يعرف العصبية ولا يضيق بالحياة، أو كأنه ليس هناك ما يزعجه.

كما يبدو فى كتاباته ساخرا، مستهينا بالأحداث، لا يحفل بأمر من أمور الدنيا، ولا يضيق بمنكر من صروفها، ولا ينزعج لأى أمر مهما جل، وهو فيما يصور نفسه

يستقبل الحياة طروبا ضاحكا باسما مشرقا ويتحدث عن الدنيا كأنما قد نفض منها يده، فلم يعد يطمع فى جمال أو مال أو متاع، أو كأنما قد حيزت له الدنيا فلم يعد يحفل بما يقبل من أمرها أو يدبر.

وكان المازنى ضخم الإنتاج، يكتب كثيرا ويكتب فى كل وقت ولذلك فأنت لا تجد أدبه درجة واحدة فى الجودة، ولا يغض هذا من قدره، فهو لم يتفرغ للأدب وحده وإنما عالج الصحافة، والصحافة مهنة السرعة ومهنة الكتابة العاجلة.

فإذا ذهبنا ندرس شخصية «المازنى» من أدبه، وقفنا على كثير من الآثار المتناقضة التى لا تعطى صورة واضحة.. وقد صور هذا توفيق الحكيم «.. ان المازنى أكثر الكُتاب تصويرا لنفسه ولحياته وبيته، ومع ذلك فالويل لمن يؤرخ له، ان قدرة المازنى على الخيال والاختراع واختلاط حقه بباطله قد أسدلت حجابا كثيفا على وجهه الحقيقى، فأنا عاجز عن أن أستخلص من بين رواياته الكثيرة اللذيذة التى تعج بالنساء المدللات والأوانس الرشيقات امرأة واحدة أستطيع أن أقول إنها كانت صاحبة الشأن الأول فى حياته، على أن الذى لا شك فيه عندى ولا نزاع أن المرأة موجودة بالفعل ولولاها ما استطاع المازنى ان يكتب القصص».

ويؤمن المازنى بأن على الكاتب أن يرضى ذوقه الفنى أولا دون أن ينظر إلى القارئ وأهوائه، ويؤمن بأن كل رأى من آراء الكاتب له من الهوى أثر، ولا يزال الإنسان يوحى إلى نفسه حتى يصير الأمر عنده عقيدة راسخة.

ويُعد المازنى ثانى رواد القصة الطويلة فى الأدب العربى المصرى الحديث. ولم يرحل المازنى فى حياته كثيرا، وهو فى هذا شبيه بصديقه العقاد، وفى أيامه الأخيرة، كان يجلس إلى النافذة ليكتب بين السادسة والعاشرة صباحا وقد آثر الكتابة بالآلة الكاتبة فى سنواته الأخيرة.

وبعد فالمازنى ولا شك رائد من رواد الأدب العربى المعاصر، قام بدور واضح خلال ثلاثين عاما كاملة، كان فيه أحد أصحاب المذهب الجديد الذى كان بعيد الأثر فى تطور الشعر والنثر العربى الحديث.

مالك بن أنس، الإمام

٧١٥ - ٧٩٥م

صاحب أكبر المذاهب الإسلامية

كان الداخل إلى المسجد النبوى فى منتصف القرن الثانى الهجرى يرى رجلا طويلا مسنون اللحية أشقر الوجه جميل الثياب جليل المنظر فيه مهابة وله وقار ولعينيه بريق ينفذ إلى القلوب، يجلس فى أكبر حلقة علمية فى ذلك التاريخ، ذلك الرجل هو مالك بن أنس رضي الله عنه قد أتاه الله تعالى بسطة فى العلوم والجسم والخلق وقد اختار أن يكون درسه فى مسجد رسول الله ﷺ وهو ثالث المساجد التى تشد إليها الرحال، واختار ان يكون موضع جلوسه فى المكان الذى يجلس فيه عمر بن الخطاب فى قضائه وتدبيره شؤون الدولة وفتأويه للناس. وكان أيضا مجلس شوراه الخاصة الذى يتشأور فيه مع على بن أبى طالب وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت ومعاذ بن جبل وغيرهم من فقهاء الصحابة وذوى الرأى منهم.

وقد تحدث أهل المدائن والأمصار باسم مالك وكانت فتأويه تنشر وتذاكر فى مصر والشام وبلاد المغرب كلها، وكان فى الاندلس الإمام الذى لا يذكر بجواره إمام حتى كان أهل الأندلس يستسقون بقلنسوته إذ يتخذونها بركة ويضرعون إلى الله أن تمطر السماء وهم حاملون لها. وقد كان له سلطان فى المدينة يصل إلى سلطان الولاة بها، وإن لم تكن له ولاية ولقد قال بعض الشعراء فى وصفه:

يأبى الجواب فما يراجع هيبة ... والسائلون نواكس الأذقان

أدب الوقار وعز سلطان التقى ... فهو المطاع وليس ذا سلطان

إن تلك المكانة ما جاءته عفوا بل لها أسباب من نشأته ومن جهوده ومن شيوخه ومن شخصه ثم ما أفاض على الناس من علم غزير واستنباط فقهى سليم وإدراك لمصالح الناس وعلم بالقرآن والسنة وتنقيح الرواية ونقدها بدراية عميقة مدركة، وقد عاش فى عصر ماجت فيه فتن كموج البحر وكان هو يركب سفينة النجاة ولا يخوض فيها، ويستنقذ العلم والفقه والدين بشخصه القوى الذى لا يفرض عليه أمر ما كان من أمر الله ونهيه.

لقد ولد إمام دار الهجرة على أرجح الروايات بعد أن استتب الأمر لبنى مروان. وهو ينتمى إلى ذوى أصبح، وهم قوم من إليمن وقد أسلم قومه فى عهد الرسول ﷺ وكان أهل بيته يعنون بالحديث واستطلاع أخبار الصحابة وفتأويهم، وقد توارثوا الفتيا بذلك خلفا عن سلف فجده مالك بن أبى عامر كان من كبار التابعين، روى عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وأم المؤمنين عائشة، وقد روى عنه بنوه ومنهم أنس أبو الإمام ولكن أنساً هذا لم يشتهر بالرواية كما اشتهر عماه ونافع المكنى بأبى سهيل.

وبهذا يتبين أن مالكا رضى الله عنه قد ولد فى أسرة اشتهرت بالرواية ونشأ بين رواة محدثين وكان الفقه إلى ذلك الإبان مختلطا بالحديث فلم يكن قد تميز عنه فالرواة يروون فتأوى الصحابة ويطبقونها على الحوادث التى تقع بين ظهرانيهم ويستفتون فيها.

ولذلك اتجه الإمام مالك بعد أن حفظ القرآن كشأن كثيرين من المؤمنين وبعد تفصح بالعربية إلى طلب علم الرواية، ومع علم الرواية الفقه.

وقد كانت البيئة العامة كبيئته الخاصة توجهه نحو المعرفة وطلب الرواية فقد ولد وعاش بمدينة الرسول ﷺ ومهاجره الذى هاجر إليه ومنزل الشرع الإسلامى ومعقد حكم الإسلام الأول، إذ كانت قصبة الدولة الإسلامية فى عهد أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم أجمعين.

ولقد كانت للمدينة المنزلة العلمية فى العهد الأموى وكانت مهد السُّنن والفتأوى المأثورة.

فى هذه البيئة التى عاش فى ظلها مالك وتلك أسرته وكلتاهما تنمى فيه النزوح إلى العلم والاتجاه إليه. ولقد كان له بجوار هاتين البيئتين هاد مرشد يدفع ويسدد ولكنه لا يظهر فى كثير من الأحوال، وهو أمه فقد كانت ذات رأى صائب وفكر مستقيم، وكانت تشرف على توجيه مالك حتى شب عن الطوق. بل إنها كانت تختار له شيوخه وترشده إلى ما يأخذه من كل واحد منهم لينال من كل شيخ ما عنده فكانت تقول له وهو يذهب إلى ربيعة الرأى أحد شيوخه: «اذهب إلى ربيعة فتعلم من علمه قبل أدبه»! وقد كان ربيعة فقيها ذا رأى عميق واستنباط دقيق وله لسان فصيح، ولعلها رضى الله عنها كانت ترى فى لسانه بعض الشىء كشأن كثيرين من ذوى الفصاحة فحذرت ولدها فى عبارة رقيقة من أدبه.

وبهذا التوجيه الكريم والبيئة الخاصة الهادية والبيئة العامة التى تمكن طالب العلم من أن يرد موارده انصرف مالك الناشئ إلى العلم وذهب إلى مصادره من التابعين رواة أحاديث رسول الله ﷺ وأقضيه الصحابة وفتأويهم وأقبل على ذلك بإخلاص وجد ودأب.. كان يذهب إلى شيوخه فى كل وقت لا يمنعه حر ولا برد.

ولقد كان ينتهز كل فرصة ليخلو إلى الشيخ الذى يريده حيث لا ضجة ولا صخب.

اتجه إلى طلب العلم مع صفة لازمته من وقت أن كان غلاما إلى أن صار إماما، وهى حبه للوقار والاتزان.

وقد تلقى من شيوخ كثيرين فقد كان فى مدينة رسول الله ﷺ وهى معدن العلم، وإليها أوى التابعون أو جلهم فى عهد الأمويين والذين اختاروا غيرها مقاما كانوا يجيئون إليها الوقت بعد الآخر لزيارة الروضة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وكان فى هذا يتلقى أحاديث الرسول من أصحابه الذين شاهدوا وعاينوا وتلقوا التنزيل وتفسيره من صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام. وكان ينتقى الثقات من أهل الرواية وأهل الدراية.

وبعد أن وعى مالك القوى الفكر والخلق والدين، ما أدركه من علم أهل عصره،

اتجه عند نضجه فى السن والعقل إلى الدرس واختار أن يكون مجلس درسه هو المجلس الذى كان يجلس فيه الإمام عمر رضي الله عنه وكان من حسن الاختيار أنه كان يسكن فى المنزل الذى كان ينزل فيه عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فالعلم كان يظلل فكره فى المكان، كما كان يظله فى كل أعماله وكل الأزمان.

وعندما جلس للدرس، قسم درسه قسمين أحدهما لرواية الحديث والثانى للفقه، ويسميه المسائل لأنه ما كان يتكلم فى الفقه إلا فيما يسأل عنه من وقائع تقع.

وكان فى درسة يبتعد عن الغلو، مع أنه لم تكن فيه جفوة ولا خشونة. وقد قال بعض تلاميذه. كان إذا جلس معنا كأنه واحد منا، يتبسط معنا فى الحديث، وهو أشد تطامنا منا له، فإذا أخذ فى حديث رسول الله تهيبنا كلامه كأننا ما عرفناه ولا عرفنا!!

ومع أنه كان المهيب فى عامة أحواله، فإنه فى درسه كان يخص الحديث بسمت خاص يلتزمه، فكان إذا حدث توضأ وتهيأ، ولبس أحسن ثيابه..

ولما مرض انتقل درسه إلى بيته ومع ذلك كان للدرس سمته ووقاره. يحكى أحد تلاميذه أنه عندما انتقل درسه إلى داره: «كان إذا أتاه الناس خرجت إليهم الجارية، فتقول له: أترويدن الحديث أم المسائل؟ فإن قالوا المسائل خرج إليهم فأفتاهم. وإن قالوا الحديث قالت لهم: اجلسوا ودخل مغتسله فاغتسل وتطيب ولبس ثيابا جددا وتعمم. وتلقى له المنصة ولم يكن يجلس على المنصة إلا إذا حدث».



المتنبى

٩١٥ - ٩٦٥م

أشهر الشعراء على مر العصور

قليل من الناس بلغوا مبلغ المتنبى فى الشهرة مع أن العباقرة والأفذاذ يملأون صفحات التاريخ بأخبارهم وآثارهم. ولو أن الآداب العربية أتيح لها ما أتيح لآداب الغرب من الذيوع بالترجمة والنقل لكان المتنبى فى مقدمة المشاهير الذين يلهج الناس بذكرهم فى الشرق والغرب على حد سواء. ولو أن الغربيين قرءوا شعر المتنبى لأذهلتهم تلك العبقرية الجبارة وهذا الروح الوثاب الغلاب الذى يكتسح حتى لا تكاد ترى أمامه أثراً لمنافس.

نعم.. لو قرأ الغربيون شعر المتنبى لوقفوا أمامه ذاهلين ولست ألقى القول على عواهنه فقد أذهلت رباعيات الخيام أدباء الغرب وقراء الأدب فيه وفتحت أمامهم آفاقا جديدة لم يروها من قبل وتألق نجم هذا الشاعر الفارسى فى أوروبا وأمريكا كما لم يتألق قط فى المشرق، مع أن الخيام دون المتنبى مرتبة فهو شاعر يشدو على وتر واحد بينما يشدو شاعرنا على أوتار هى جماع الفن والحكمة والفلسفة.

وأول ما نسجله من أمر هذه الشهرة التى لازمت المتنبى فى حياته ولازمت تاريخه بعد موته أنها مرتكزة على أسس متينة ودعائم قوية.

والشهرة عندنا هى الصمود للدهر ومغالبة معاول الهدم - وما أكثرها! - وقد صمدت شهرة المتنبى فى حياته فتحطمت دونها معأول الهدامين الذين فى نفوسهم حقد وفى قلوبهم تغلى مراجل الحسد وتلهب نار البغضاء، والذين مازالوا يذكرون مثالبه ونقائصه فيعترفون - أو يعترف حسدهم - بشاعريته التى لا تجارى على

وغر مكنون فى الصدور.

ثم صمدت شهرته للنقاد الزارين عليه بنقدهم بعد مماته مع أن فريقا منهم حأولوا هدمها بمعأول هيهات أن تهدم التراث الأدبى فبقى المتنبى حيا ولم يذهب رسمه ولم يعف أثره.

ومما يزيد فى رسوخ هذه الشهرة انها بلغت غايتها على الرغم من أن شعر المتنبى لم يكن كالنسمات تهب رخاء أو كزقاق الخمر تروى الشاربين بل كان شعرا جليلا يهتف به شاعر عبقرى فيذكى فى القلوب نار الحماسة والنبالة ويمتع الأنظار والألباب بألوان من الفن الرفيع يتطأول إليها الناس ويتشوفون لها دون أن يبلغوها ومثل هذا الشعر لا يقدره حق قدره إلا الراسخون فى دراسة الآداب الرفيعة التى تسمو بالأذواق إلى ما هو أعلى من أذواق العامة والمترفين من عشاق الأدب المخنث. فبهذا الشعر خلد المتنبى وعلى هذا الأساس المتين بنى شهرته ونقش اسمه على الصخر بينا خط معظم معاصريه من الشعراء أسماءهم على الرمال.

وإنك لتعجب وأنت تقرأ ديوانه كيف أنه استطاع أن يجمع كل هذه الأقوال المأثورة والأبيات الحكيمة فى صعيد واحد، لعلمك أن معظم السابقين واللاحقين من الشعراء كانوا يتمخضون بالبيت المأثور بعد الهذيان الطويل.

ثم إنك لتعجب من هذا الروح الغلاب الذى رجح الشعراء وسادهم دون أن يعدو طوره وتعجب لتلك الحوادث الجسام واندماجه فيها مادحا وهاجيا وحكيما بعد أن حلب الدهر أشطره ولاعتداده بنفسه وشموخ أنفه وخيلائه ولتجاربه وثقافته التى يندر لها مثيل.

نعم انك تعجب لكل هذا إذ تُفاجأ به أول وهلة وأنت تقرأ ديوانه وأخباره فتعود إلى نفسك فتقول: لاجرم إذا خُلد المتنبى وطبقت شهرته الآفاق..

ثم إن المتنبى تفرد بنزعة أخرى غير نزعة الشاعر الفنان اذ كان يحسب أنه أرفع من الشعر والشعراء منزلة وأن الشعر مطيته إلى الملك والسؤود ويرى أن بنفسه أنفا أن تسكن اللحم والعظم.. والحق يقال انه كان عظيما فى شعوره وحركاته وسكناته فقد كان شعره على ذباب سيفه وسية قوسه وكانت له أبيات

تهول، وقد أضفت عظمة نفسه على شعره هذا الجلال وتلك الروعة (التى تركت فى الدنيا دويا) كان يود ان يكون (للسيف والفتكة البكر) لا للشعر والمدائح فلا عجب أن تشتهر قصائده من وحى الملك والبطولة والفن الرفيع.

أما منافسوه من الشعراء فقد كانت قصارى آمالهم صلات الأمراء وعطاياهم وكان الخوف من ضياع هذه العطايا سياجا يحول بينهم وبين إشهار ما شعروا به.. لقد كانوا أذنابا ولم يكونوا سادة وكانوا ملهاة وأداة من أدوات التسلية كالأقزام فى بلاط الفراعنة سواء بسواء، كانوا ينطقون بلسان سادتهم وأمرائهم، فلم يجرؤ على مجاراة المتنبى فى قوله:

وما الدهر إلا من رواة قصائدى　　　إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

* * *

نشأ أبو الطيب بالكوفة متنقلا بين الوراقين مستجيبا لوعى فى تفكيره مبكر ثائر متتبعا ما يقع بين يديه من كتب ودفاتر فإذا سئم القراءة مضى إلى مجالس العلماء يتلقى عنهم أصول الجدل واللغة والبيان ثم دلف إلى فريق من قومه اختصوه بالتقدير، فأحاط علما بأنباء الحكام وسياسة الدولة مما كان يزيد فى شجونه وأضغانه ويتلفت إلى المحظوظين والمنعمين فيجد نفسه صفر اليدين ملموزا من حاسديه. لكنه يحس العزاء فى جدته التى كانت تحبه وتفديه ولم يجد بدا من الانطلاق إلى البادية لعله يلقى حظا وخيرا فلم تتحقق بغيته فيها ولم يكتسب الا مودة ومعرفة فارتد إلى جدته يقاسمها الحسرة والضغينة.

ثم ذهب إلى بغداد دون رضا جدته فشهد ألوانا من الخطوب والأحداث من تنازع الأمر والولاة وتضارب الأهوال بين الشعب والأمراء وكان يرجو هنالك نصيبه من الرزق يمدح من يستحق المدح فتأبى على هؤلاء المتنابزين المتربصين ورفض أن يثنى شعره على أحد منهم بل زاد حقده وثارت هواجسه وقد صور الشعور فى أبيات كثيرة موزعة فى قصيده.

وضاقت عليه بغداد بما رحبت فارتحل إلى بادية الشام وجال فى مدنها وقراها حتى هبط دمشق بعد عام وهو يرسم الخطط ويبيت فى نفسه أمورا

خطيرة يحقق بها مجدا.

وفى رواية أن أبى الطيب وصل به التجوال إلى اللاذقية حيث لقى معاذ بن إسماعيل فرآه حسن السمت فصيح اللسان جدى القول فتحأورا وتبادلا الرأى وقد بلغ الزهو من المتنبى مبلغه حتى زعم معاذا أن أبا الطيب قال له انا نبى مرسل ثم رأى من البراعة والاقتدار ما جعله يؤمن بما ادعى من النبوة والمعجزة. وإلى هذه الزورة للاذقية أشار أبو العلاء المعرى فى رسالة الغفران ودفع عن شاعره تهمة النبوة بقوله: «لأن نطق اللسان لا ينبى عن اعتقاد الإنسان». وكان قد وصل إلى اللاذقية كلام نسب إلى أبى الطيب يعارض به القرآن.

ومن أجل ذلك حبسه أمير حمص حتى استتابه وليس من المعقول هذا الادعاء فقد خلط الرواة بين النبوة المزعومة وبين تسمية المتنبى نفسه بالعلوية حيث يقيم فريق من العلويين إلى يوم الناس هذا. لقد حقد بعض الناس على أبى الطيب لأنه انتسب إليهم فزعموا أنه ادعى النبوة وقد خافوا أن يستهوى القلوب بسحر بيانه ونبل غايته فنبذوه وأهانوه.

خرج المتنبى من سجنه لا يلوى على شىء وإذا هو بعد سنين يجىء أنطاكية فيمدح أميرها أبا العشائر الحمدانى ويزور سيف الدولة هذا الأمير وأنطاكية فى اقطاعه فيقدم أبو العشائر شاعره المتنبى لأمير حلب.

وبدأت الصلة بينه وبين سيف الدولة منذ ذلك اليوم.

ثم فارق أبو الطيب حلب ووجهته إلى دمشق لأن حمص التى أحبها كانت من أعمال سيف الدولة فلم يذهب إليها بل اتخذ طريقه إلى دمشق وكان عليها من كافور حاكم مصر وال يهودى يعرف بابن ملك. فلما نزلها أبو الطيب طلب منه وإليها أن يمدحه بشعره أسوة بغيره فرفض وكره المقام بدمشق من أجله لكن هذا اليهودى جعل كافور الأخشيدى يطلب أبا الطيب، فسار إلى الرملة فى الجنوب وتلقاه أميرها الحسن بن طغج بالتكريم إذ حمله على فرس بموكب ثقيل وقلده سيفا محلى وأعطاه هدايا غالية فمدحه أبو الطيب قصيدة أشار فيها إلى ما لحقه من تهديد ووعيد من الأدعياء والحساد.

ثم رحل إلى مصر وأقبل المتنبى على كافور الأخشيدى مصر فاحتفى به وأمر له بمنزل ووكل به من يخدمه ويعنى بأمره.

لبث أبو الطيب فى مصر أربع سنوات وبضعة أشهر مكرما هانئا حينا ومحسودا منغصا أحيانا وطامعا منذ أقبل على حاكمها الأخشيدى كافور بما لم يطمع عند سيف الدولة الذى أغناه بالعطايا والهبات عن التماس المزيد من المال.

شعره

الطبع والإلهام أساس الشاعرية وقد كان المتنبى شاعرا مطبوعا نطق بالشعر وتأتى له وهو غلام. وفى ديوانه قصائد قالها فى صباه دلت على ما سيكون لصاحبها من شأن ومكانة وكان لحياته الأولى فى البادية وبين الأعراب ومعرفته بأصول اللغة واستعمال الكلمة فى موضعها من كلام العرب أثر راسخ فى موهبته وطبعه حتى إن مياسم البادية ما فارقت قصيدة واحدة من قصائده.

وفى أرجائها امتد خياله وعلقت بذهنه بقاعها وفلواتها، وجرت على لسانه لغتها فى تصوير سلاحها وخيلها وإبلها وكأنه واحد من أهلها حتى بعد تجواله فى البلاد وتمازجه بالملوك والكبراء وأهل الحضر والترف. لقد رفد هذه الفطرة والسليقة بمعرفة واسعة فى كلام العرب وإدراك لخفايا اللغة وسحر البيان فجاءت صياغته من طراز رفيع فيه الأصالة والجزالة وفيه الفكرة الصائبة والروعة الباقية.

وكان مرد المتانة فى الشعر العربى وإحكام صوغه إلى الشعر الجاهلى. وحين تحدر هذا الميراث إلى العصر الأموى فبدا فى الشعر الجزل دخل عليه التطور حتى جاء عهد العباسيين والأندلسيين فطبع بطوابع التجديد وجاء عصرنا فأعاد إليه رونقه السابق وخلصه مما علق به فى عهود التخلف ناظرا إلى أبى الطيب وكأنه نبراس لا ينطفئ لإحياء الشعر العربى على مدى الزمن.

كان أبو الطيب المتنبى صورة صادقة لعصره ومرآة للحوادث والمحن فى أيامه وما من شك ان السياسة والعروبة المتأصلة فى فؤاده والبيئة الاجتماعية كل ذلك قد ألهمه بالشعر عبر به عن رأيه ومذهبه وخلجات نفسه.

وكان المتنبى يحس فى نفسه حافزا قويا لاستعادة الأمجاد العربية وقد شاعت فى شعره حيثما قاله - نزعة إلى العروبة وبعثها وتعميمها فكان يصف الكرماء وأهل النجدة والأبطال بأن خصالهم عربية وفضل السيوف العربية على السيوف الهندية.

وكان المتنبى أكثر شعراء عصره حماسة للقومية العربية وإحياء لها بل كان يذهب إلى أبعد من ذلك، إذ وقر فى عزيمته أن يعيد للأمة العربية مجدها الزائل بتأليف العرب وتأليبهم على العجم فى حرب عاصفة يكون هو قائدها.

ولقد تعددت نواحى العبقرية فى شعر المتنبى وتجلت فيه طوابع الحكمة والتجربة يقولها فى كل شعره وأشبهها بواحات الفكر والخاطر يقف عندها مستريحا. وكانت ثقافته المتعددة وجولاته فى البلاد سبيلا إلى تعدد ألوان شعره فمن غرر ألوانه فى الحكمة والعبرة هذه الأبيات:

وما انتفاع أخى الدنيا بناظره	**إذا استوت عنده الأنوار والظُلَمُ**
خذ ما تراه شيئا سمعت به	**فى طلعة البدر ما يغنيك عن زحل**
لعل عتبك محمود عواقبه	**وربما صحت الأجسام بالعلل**
وإذا الشيخ قال أف فما مل	**حياة وإنما الضعف ملا**
آلة العيش صحة وشباب	**فاذا وليا عن المرء ولى**
أبى خلق الدنيا حبيبا تديمه	**فما طلبى منها حبيبا ترده**
ما كل ما يتمنى المرء يدركه	**تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن**
غير أن الفتى يلاقى المنايا	**كالحات ولا يلاقى الهوانا**
وأتعت من ناداك من لا تجيبه	**وأغيظ من عاداك من لا تشاكل**
فلا تطمعن من حاسد بمودة	**وإن كنت تبديها له وتنيل**

ومن ألوان شعره التى انتهت إليها الجودة والبراعة شعر الحرب فلقد بلغ شأوا يناصى به هوميروس فى ملحمة «الإلياذة» ولو جمع شعره فى وصف الحرب والمعارك فى تتابع واحد وأعطى العرض والتحليل لكان فى ذلك بعض الوفاء لشاعر

أعطى العربية روحه ودمه.

وأما الوصف والغزل فإن فى القصائد التى قالها أبو الطيب فى الرثاء والهجاء وفى المدح والفخر صورا رائعة وصف فيها كل ما مر بخياله ونفسه من حياة البادية ومواقع النضال الذى شهده مع سيف الدولة. وكان هو يصف الخيل والفرسان بشعره وكأنه مصور أمام لوح يودعه الخطوط المعبرة والألوان الناطقة ولم يترك منظراً من مناظر الفوز والهزيمة إلا صوره. كما انطبع فى باله وخالط إحساسه وكانت ألفاظه الجزلة تحمل كثيرا من المعانى. ومن فنه فى الوصف انه يعطى الأشياء روحا وحركة وهو الذى أدرك جمال السكون وجمال الحركة ولعله اطلع على فلسفة زينون الإليائى فأخضعها للشعر حسبما تمثلها.

تأثير المتنبى فى الشرق والغرب

لقد اتفق لأبى الطيب من العناية بشعره ما لم يتفق لشاعر عربى قبله فكانت تعقد بمصر على أيامه فيها حلقة لشرح ديوانه وكانت هذه الحلقة تحت ارشاده. وفى حلب لم تخل مجالس الأدب من ذكره وحفظ شعره وتفسيره وروايته وكان اسم المتنبى دوما مقرونا باسم سيف الدولة. وفى شيراز وحيث عاش عضد الدولة زمنا كان شعر أبى الطيب موضع بحث ودراسة واستشهاد حتى انتقل إلى بغداد وفيها تغلغل اللمز للشاعر وديوانه حيا وميتا.

ولم يتح لشاعر عربى من النقد والتحليل لآثاره فى القديم والحديث ما أتيح لأبى الطيب وكان له فى القدامى محبون وخصوم وكذلك فى المحدثين من المعنيين بدراسته والمقارنة بينه وبين غيره.

تتبع الحاتمى البغدادى شعر المتنبى وادعى أنه اجتمع به وناقشه فيه ذكر ذلك فى رسالته الجائية، وذكر فيها سرقاته والساقط من شعره ومما ذكره أن مصدر الآراء الفلسفية عند المتنبى هو أرسطو. أما ابن جنى فقد شرح ديوانه شرح معرفة وملازمة للشاعر وقد روى أن شعر أبى الطيب كثير وأن ما فى الديوان هو المتدأول فى أيدى الناس من شعره وكذلك أبو العلاء المعرى أولع به وشرح شعره.

أما المتأخرون فقد كان من أفضل جمهرتهم فى العناية بالديوان الشيخ ناصف

إليازجى الذى أسدى إلى المتنبى يدا لا تنسى فى سجل الزمن إذ حل معانيه وضبط شعره وقوافيه بما يوافق روح الشاعر وأدبه.

وكان الأستاذ العقاد سابقا إلى دراسة المتنبى على المنهج العلمى الحديث فجاء بحثه المنشور فى مطالعاته جامعا بين الجدة والدقة فى الاستنباط والتقصى والمقارنة.

كما ان من آثار الدكتور عبد الوهاب عزام كتابين فى المتنبى واحدا لذكراه وآخر هو شرح ديوانه.

وقد أثر شعر المتنبى - من حيث هو فن - فى الشعر العربى بعصره وفيمن أتى بعده، فبعث فى الشعراء همة إلى رفع شعرهم نحو طبقته لأن من عادة أهل الأدب الاقتداء والاتباع والمنافسة فأبو فراس الحمدانى وأكثر الشعراء الحمدانيين الذين ذكرهم الثعالبى كانوا ينسجون على أثر أبى الطيب وهم الذين حسدوه وتتبعوا أخطاءه.

وأما الذين أتوا بعده وتأثروا به فهم كثير لو تجرد مؤلف لجاء لهم بكتاب كبير فيهم على أنى أكتفى بشاعرين عظيمين عاشا فى ظلال أبى الطيب أو فى تنسم وحيه وكان له فى كل منهما أثر عميق عاش معه عمره وقد يختلف القول فى أحدهما عن الآخر.

أولهما أبو العلاء المعرى الذى أقبل على شعر أبى الطيب إقبالا ما عرف من شاعر آخر مثله فتأثر بآرائه السياسية والاجتماعية والدينية أيضا.

والشاعر الثانى هو أحمد شوقى شاعر العربية فى القرن العشرين. لقد أولع بشعر أبى الطيب فقلده فى سبكه وتعبيره والتزم فى أكثر قصائده أوزان المتنبى وقوافيه ورويها ولكن شوقيا لم يكن يصنع هذا لنفسه تعلقا بأبى الطيب فحسب بل اعتقادا منه بأنه لا يقل عنه شأنا فهو مطبوع على الشعر متمكن من العربية فلماذا لا يقدم روائع كالتى أتى بها أبو الطيب يضاهيها بتلك المحاكاة وربما كان فيها الإبداع.

كان تأثر شوقى الذى جاء بعده بعدة عصور أقوى من تأثره بشعراء الغرب الذين قرأهم وتعلم ثقافتهم وأقام مدة فى بلادهم فتجلت طوابع المتنبى فى كثير من شعر شوقى وقد حاكاه فى بعض معانيه وألفاظه ورثى جدته «تمراز» بقصيدة عارض فيها ميمية أبى الطيب التى رثى فيها جدته.

منزلته فى الشرق والغرب

لقد احتل أبو الطيب المتنبى فى أدب العرب مكانة رفيعة ارتقى إليها وتبحبح فيها بقوة واقتدار متعاظما ومرغوبا فيه ولم يتح مثلها لغيره من شعراء العربية وليس للحظ دخل فى ذلك فإن حساب الحظ يسقط فى القيم الأدبية الخالدة. وكفى برأى الجرجانى قاضى الرى بل قاضى الأدب ان تنأول الشاعر بما هو أهل له فى كتابه «الوساطة» حتى خلص إلى أن المتنبى هو الشاعر المتفوق وأن حملة النقد الكبرى التى حملت عليه كانت لنوازع المنافسة والحسد أكثر مما كانت لغاية النقد والأدب وقد خلفت له شهرة وجعلت الأنظار تتجه إليه راضية ومرت منزلة الشاعر عبر العصور.



محمد إقبال

١٨٧٣ - ١٩٣٨م

شاعر الإسلام

محمد إقبال علم من أعلام الإسلام فى هذا العصر وقائد من قادة الفكر فى الشرق وهو رائد من رواد الوعى الإنسانى فى الفلسفة والدين.. إنه «شاعر فيلسوف وهب قلبه وعقله للمسلمين وللبشر أجمعين».

ونستطيع اليوم أن نقول، إنه إلى جانب شخصية جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبى، ستظل شخصية إقبال من أبرز الشخصيات فى التاريخ الشرقى الحديث.

والحق أن شخصية إقبال شخصية جذابة لها على القراء سحر عجيب، ولعل مرجع ذلك إلى أنه شاعر يغوص على المعانى الفلسفية العميقة فيحسن تناولها وسبكها ويجليها للناس ببيانه الألمعى وشعره الناصع وتشبيهه الرائق، فيجعل كتبه على غزارة مادتها وعمق موضوعاتها روضة غناء تسر الناظرين.

ولد محمد إقبال فى بلدة «سيالكون» بإقليم البنجاب فى الهند من اسرة متوسطة الحال معظم أفرادها من المشتغلين بالزراعة، وتنتهى إلى سلالة البراهمة. نزلت منذ ثلاثة قرون عن امتيازاتها الوفيرة ومنزلتها المرموقة بين الطبقات الهندية، واعتنقت الإسلام على يد أحد رجال الصوفية فى كشمير.

كان ابوه - محمد نور - رجلا متدينا ورعا ويؤمن بقيم الروح. وتعلم اقبال

مبادئ القراءة على أبيه، ولكنه تعلم منه شيئا آخر أثمن من القراءة والكتابة: مبادئ الأخلاق.

أدخل اقبال أحد الكتاتيب المعدة لتحفيظ القرآن فى سيالكون. وقد حرص أبوه على أن تكون قراءة ابنه للقرآن قراءة وعى وتدبر وتفهم تؤدى إلى العمل به والاهتداء بهديه، وكان يقول له: «يابنى اقرأ القرآن كأنه نزل عليك». ويعقب إقبال على وصية أبيه بقوله: «ومنذ إليوم بدأت أتفهم القرآن وأقبل عليه، فكان من أنواره ما اقتبست ومن بحره ما نظمت».

انتقل إقبال إلى مدرسة «سيالكوت». وما أن أتم الدراسة الابتدائية حتى التحق بمدرسة البعثة الأسكتلندية للدراسة الثانوية، بينما تلقى أصول اللغتين الفارسية والعربية على أحد أصدقاء أبيه «شمس العلماء مير حسن». وكان أستاذا متضلعا فى آداب هاتين اللغتين، وشجع الأستاذ تلميذه لما ترسم فيه من نجابة وذكاء مبكر.. على أن يتابع قرض الشعر والكتابة باللغة الأوردية بدلا من اللغة المحلية السائدة فى سيالكوت.

ثم دخل إقبال جامعة لاهور وأتم دراسته فيها. وانضم إلى «جمعية حماية الإسلام» وعلى منصتها أخذ يقرأ شعره النابض بالحياة. وفى لاهور التقى بأستاذه المستشرق الإنجليزى «السير توماس أرنولد» وسرعان ما توثقت بينهما أواصر الألفة. وكان الأستاذ «أرنولد» شديد الإعجاب بمواهب تلميذه وانتاجه الشعرى، ولذلك طلب منه ان يقوم بدلا منه بمهمة التدريس فى جامعة لندن فى فترة من الدراسة الجامعية سنة ١٩٠٥م. وهنالك تعرف إلى كثيرين من أهل الفضل والعلم. ثم قصد إلى جامعة «هيدلبرج» ثم إلى جامعة ميونيخ بألمانيا حيث حصل على الدكتوراه فى الفلسفة برسالة قدمها عن «تطور الميتافيزيقا فى بلاد فارس». وفى سنة ١٩٠٨ حصل على درجة فى القانون.

ولما عاد إقبال إلى وطنه اشتغل بالشعر والفلسفة والسياسة، وانتخب الشاعر الفيلسوف عضوا بالمجلس التشريعى بالبنجاب، ثم ذهب إلى لندن - سنتى ١٩٣١ / ١٩٣٢ للاشتراك فى «مؤتمر المائدة المستديرة».

واختير رئيسا لحزب «مسلمى الهند» ورئيسا لجمعية «حماية الإسلام» التى

كانت تشرف على عدد من المؤسسات الدينية والاجتماعية. ولبث زمنا طويلا يلقى المحاضرات فى أرجاء الهند. وشارك فى سياسة بلاده بأقواله وأفعاله ورأس كثيرا من المجامع السياسية وكان عماداً قويا لحزب الرابطة الإسلامية.

ومحمد إقبال أول من نادى بضرورة انفصال المسلمين فى الهند عن الهندوس، وبوجوب قيام دولة خاصة بهم يستطيعون فيها أن يظهروا روعة الإسلام وأن يحيوا فيها الحياة التى تتمشى مع تعاليم الدين الحنيف.

ومنذ أعلن إقبال هذه الفكرة سنة ١٩٣٠ أصبحت الهدف الأول الذى جاهد مسلمو الهند لتحقيقه، إلى ان تم لهم إنشاء دولة «الباكستان» فى أغسطس سنة ١٩٤٧ بعد نضال متواصل اشترك فيه جميع المسلمين هناك تحت قيادة محمد على جناح.

فلسفة إقبال

ان الدعوات الكبيرة ذات المرامى البعيدة والأهداف الإنسانية قلما تنجح بالعصبيات الجامحة وحدها، وقلما تستطيع ان تمضى بين العواصف والأنواء الثائرة بهذا وحده، فلابد من الفكر الثاقب والعلم الواسع والقلوب الكبيرة الواعية والعقيدة القوية الصادقة التى لا اهتزاز فيها ولا غموض.. وعندئذ تسهل التضحيات وتتضح المناهج ويعى الداعية ما يقول وبالتإلى يعى الناس من يلقى إليهم، فيشمون منه روح الصدق وبوادر الاخلاص ونوايا الوفاء!.. وهنا تراود أخيلتهم أحلام البعث والتحرر، وتظل تلح عليهم وتتجسم أمام بصائرهم، حتى يستجيبوا لها ويهبوا كالأقدار النافذة التى تذعن ولا ترضخ ولا يخيفها بلاء مهما كثر، ولا يروعها بذل مهما غلا، ولا يعوقها حاجز مهما علا وصمد!.

إن الفكر الثاقب والعلم الواسع والقلوب الكبيرة والعقيدة الصحيحة هى الاستعداد الواجب لمن يخوضون طريق الإصلاح والبعث والتحرير. فهذه إذن هى القاعدة. وحينما نقول العلم نقصد العلم عامة سواء من الشرق أو الغرب.. فى «لاهور» أو «كمبردج».. ونقول أيضا العلم الذى يغزو العقول ويصل إلى أعماقها فتفرزه وتفحصه وتأخذ منه بحذر كل ما يفيدها ولا يخالف فطرتها أو يضاد عقائدها ومثلها العليا..

ومن يتلقى كل شىء بقبول حسن ويقبل كل علم ويؤمن بكل نظرية دون فحص أو تمحيص فيلغى شخصيته ويتناسى وجوده - مثله كمثل الذى فقد حاسة الذوق - فهو يأكل الشهد دون أن يشعر بلذة، ويتأول المر دون ان يدرى له غصة أو مرارة.. إنه يأكل فقط ليملأ معدة خاوية ويقضى عادة متبعة وتقليدا جاريا.. ولكى يعيش!.

كان «إقبال» - شاعر الإسلام - من الصنف الأول من الرجال الذين ينهلون من العلم أنى وجدوه ويلحقون به أينما رحل!..

وفى أثناء ذلك كان «إقبال» يلتقط الآراء السليمة والحكمة العالية والأفكار المستحدثة وغير المستحدثة فينتقدها ويفندها ويردها إلى أصولها فيعلم الثمين من الغث والنافع من الضار..

كان محمد إقبال من أكثر مفكرى المسلمين إحاطة ومن أوفرهم ابتكارا، وفى الوقت نفسه كان واسع المعرفة بمذاهب الفكر فى الشرق والغرب فأمدته هذه المعرفة بمادة خصبة صاغتها عبقريته مذهبا ضافيا جمع فيه بين العلم والدين والفن، وكانت فيه نفحات من التصوف الإسلامى على العموم، ومن خطرات جلال الدين الرومى على الخصوص.

إن فلسفة إقبال فى جوهرها ذات طابع دينى عميق وهى فى جوهرها تمجيد للاسلام، وبعث للحياة والقوة فى المسلمين، وتبشير لهم بمستقبل مجد وفخارا إذا ساروا فى حياتهم على هدى دينهم الحنيف. يقول الشاعر الفيلسوف فى نشيده الإسلامى المشهور:

فى ظل السيف تربينا	وبنينا العز لدولتنا
علم الإسلام على الأيا	م شعار المجد لملتنا
ومحمد كان أمير الرك	ب يقود الفوز لنصرتنا
إن اسم محمد الهادى	روح الآمال لنهضتنا
دوت أنشودة «إقبال»	جرسا يحدو فيه الزمنا
ليعيد قوافلنا الأولى	فى المجد ويبعث أمتنا

ولا ينفك إقبال متغنيا بمآثر الاسلام. وفى غنائه دعوة إلى النهوض وحث للخطى على مواصلة السير مع القافلة. ولنستمع إلى الفيلسوف يقول: «الغاية القصوى للنشاط الإنسانى هى حياة مجيدة فتية مبتهجة. وكل فن إنسانى يجب أن يخضع لتلك الغاية، وقيمة كل شىء يجب أن تحدد بالقياس إلى تلك القوة على إيجاد الحياة وازدهارها. وأعلى فن هو ذلك الذى يوقظ قوة الإرادة النائمة فينا، ويستحثنا على مواجهة الحياة فى رجولة. وكل ما يجلب إلينا النعاس ويجعلنا نغمض عيوننا عن الحقيقة الواقعة فيما حولنا إنما هو انحلال وموت..»

وخلاصة رسالة الإسلام عند إقبال هى إقرار الحرية وتدعيم العدالة وتوطيد المحبة بين البشر.. وفى هذا الصدد يقول الفيلسوف المسلم إقبال:

«ليست غاية الإسلام محصورة فى الواردات الذاتية التى تجعل المرء بمعزل عما حوله من الأشياء وعمن حوله من الناس، بل بناء التربية التى تجعل الفرد صالحا لأن يكون منه ومن غيره مجتمع صالح له أنظمته القويمة، فإن العصبيات التى تدعو إلى البغضاء والتنفير وضيعة مهينة ليس لها فى الإسلام وجود».

مؤلفاته ورسائله

وكان أول كتاب ألفه هو (علم الاقتصاد) وكتبه باللغة الاردية فى عام ١٩٠٣. وكان باكورة أعماله الشعرية (أسرار خودى) عام ١٩١٥ ثم تبع ذلك بـ (رموز خودى) فى عم ١٩١٧. وظهر ديوانه (بيام مشرق) فى عام ١٩٢٣، و(زبور عجم) فى ١٩٢٧. و(جأويد نامه) فى عام ١٩٣٢، و(باس جيه بايد كرد / أى أقوام شرق) فى عام ١٩٣٦، و(ارمغان حجاز) فى عام ١٩٣٨، وكانت هذه الكتب كافة باللغة الفارسية. وطبع الكتاب الأخير بعد وفاة العلامة إقبال.

وطبع أول كتاب ألفه العلامة محمد إقبال باللغة الأردية وهو (بنغ دارة) فى عام ١٩٢٣، ثم طبع كتاب (بال جبريل) فى عام ١٩٣٥م، وأعقب ذلك (ضرب كلام) فى عام ١٩٣٦.. ويتكون (بنغ داره) من مجموعة من القصائد الأردية تعود إلى الأطوار الثلاثة لحياة العلامة إقبال الشعرية. أما كتاب (بال جبريل)، فإنه يعتبر ذروة شعر إقبال الذى وضعه باللغة الأردية. ويتكون الكتاب من القصائد الغزلية

والرباعيات والقصائد المختتمة بالأفكار الرائعة الخ. أما (ضرب الكلام)، فقد وصفه إقبال بنفسه بأنه عبارة عن اعلان حالة الحرب على الفترة الحالية (١٩٣٦).

وكتب العلامة إقبال كتابين باللغة الإنجليزية. كان الكتاب الأول بعنوان: (تطوير ما وراء الطبيعيات فى فارس) حيث ناقش فيه استمرارية الفكر الفارسى، وعالج فيه التصوف بالتفصيل. إن مفهوم الصوفية عند إقبال هو أنها تساعد على إيقاظ الروح وتجليها إلى أعلى المستويات فى الحياة. أما الكتاب الثانى فهو (إحياء الفكر الدينى فى الإسلام)، وهو عبارة عن كتاب يضم ٦ محاضرات ألقاها العلامة اقبال فى مدارس (حيدر أباد). إن بعض الأفكار الرئيسية لمحاضرات إقبال الست هى: المعرفة والخبرة الدينية والاختيار الفلسفى للخبرة الدينية ومعنى الصلاة والأنا الانسانية والجبر والاختيار وروح التراث الاسلامى ومبادئ الإسلام والفلسفة الحديثة، مما أدى إلى فتح مجالات جديدة للدراسات الإسلامية لمفكرى العصر الحديث.

وبالإضافة إلى هذه الكتب، كتب العلامة إقبال المئات من الرسائل باللغة الأردية وباللغة الإنجليزية أيضا. وقد طبعت رسائله التى كتبها باللغة الأردية بتسع كتب مختلفة. وأدلى ببيانات حول قضايا الساعة المتعلقة بالمجالات الدينية والاجتماعية والثقافية للهند وأوروبا والعالم الإسلامى. وعمل لبضع سنوات أستاذا للفلسفة والعلوم الشرقية فى الكلية الحكومية بلاهور (الكلية الشرقية فى جامعة البنجاب) وألقى العديد من الخطب فى حياته ومارس المحاماة فى محكمة لاهور العليا ما عدا فى السنوات الأربع الأخيرة من حياته، وكان يقابل الزائرين بكل حرية وكان بوسع كل فرد المجيء إليه والاستماع لما يقوله. وعلى الرغم من كل ذلك، فقد كان يجد وقتا للشعر حيث ان شعره ملىء بالمعنى، ومفعم بالأسلوب الأدبى. وفى الواقع إن شعره جعل الفلسفة موسيقية النغمة.

محمد عبده، الإمام

١٨٤٩ - ١٩٠٥م

من أعلام النهضة الإسلامية ومن قادة الفكر العربى

الإمام محمد عبده من أعلام النهضة الإسلامية، وقائد من قادة الفكر العربى، وزعيم من زعماء الإصلاح المصرى، وهو فوق ذلك كله فيلسوف إنسانى، ومجدد دينى، وباحث اجتماعى.

عاش سبعا وخمسين سنة، قضى أولها فى التعليم، ووسطها فى التعليم، وآخرها فى إعلاء شأن الدين ونفع المسلمين. ولكن رسالته الدينية لم تشغله عن الجهاد القومى. فكان فى مقدمة الزعماء الذين أيقظوا مصر من سباتها الذى أسلمها إليه المستعمرون.

وكان أول صوت ارتفع فى مصر الحديثة يدعو إلى نشر العدالة الاجتماعية بين الطبقات، ونشر الثقافة بين الفقراء. وكان يرى أن التربية هى السبيل القويم للإصلاح السياسى، وأن لابد من تطهير المناصب الحكومية من ضعاف النفوس ومحترفى السياسة، لكى يقدر للأمة أن تنهض نهضة حقيقية شاملة.

وصفه مستشرق أمريكى فقال:

«كان محمد عبده فلاحا صميما، وليد تربة مصر العريقة قبل أن يغدو مفتيا وإماما للمسلمين. وإننا لنلمح فى إخلاصه لهذه التربة، وفى دعوته إلى الوطنية، مزاجا عجيبا من الوفاء للماضى المجيد، والاستمساك بيقين الدين، والولاء لوطنية الفلاح».

وكانت حياته - مثل شخصيته - خصبة حافلة، إذ صنعها بقلبه ورأسه ويده، كما يصنع الفنان الموهوب تحفة رائعة، وكانت أعماله وفيرة منوعة، إذ لم يكل يوما عن الفكر والعمل، منذ شبابه الباكر إلى أن صار شيخا اقترب من الستين: فكان يطالع، ويعلم، ويحرر «الوقائع المصرية»، ويلهم الثورة العرابية، وينشر دعوة «العروة الوثقى»، ويشتغل بالقضاء فى المحاكم، ويعلم فى الأزهر، ويصدر الفتأوى فى الشئون الدينية والاجتماعية، ويشترك فى جلسات مجلس شورى القوانين وفى مجلس الأوقاف الأعلى، ويشرف على أعمال الجمعية الخيرية الإسلامية، ويضع مشروعات لإصلاح الأزهر والمحاكم الشرعية، ويؤلف الرسائل الدينية، وينشر المقالات الفلسفية، ويفسر القرآن الكريم، ويدافع عن الإسلام، ويرد على منتقديه، ويراسل علماء المسلمين، ويصادق أفاضل الغربيين، ويسعى إلى البر وإغاثة المنكوبين، باذلا من جهده الشخصى منفقا من ماله الخاص.

وكان حر الفكر، واسع الأفق، محيطا بأهم ما تنتجه قرائح المفكرين الغربيين. وقد استكمل ثقافته برحلات عديدة فى أفريقيا وأوروبا. وكان له أصدقاء عديدون، شرقيون وغربيون، كما كان يراسل بعض المفكرين الأوروبيين مثل «جوستاف لوبون»، و«هربرت سبنسر»، و«تولستوى». وقامت بينه وبين «ولفرد بلنت» صداقة متينة، وكان المستشرق البريطانى «إدوارد برأون» شديد الإعجاب به حتى أنه قدم إلى مصر ليشهد دروس التفسير التى كان يلقيها الأستاذ الإمام فى الأزهر.

حياته خصبة حافلة

ولد محمد عبده بقرية «محلة نصر» بالوجة البحرى فى مصر، من أبوين متوسطى الحال. وتعلم القراءة والكتابة بمنزل والديه، دون ان يذهب إلى «كتاب» القرية. وبعد ان جأوز العاشرة من عمره، وأتم حفظ القرآن الكريم، ذهب إلى «الجامع الأحمدى» فى طنطا، ليتم تجويد القرآن ودراسة قواعد اللغة العربية. بيد أن منهج التعليم بالجامع الأحمدى كان وعرا شاقا، حتى كاد الصبى يصاب بإليأس، ويشتغل بالزراعة، لولا أن التقى بأحد أخوال أبيه - وكان اسمه الشيخ درويش - فاستطاع أن يروض جماحه، وأن يوجهه إلى المعانى القدسية واللذائذ الروحية، لأنه

كان صوفيا طيب القلب، وقد وصف محمد عبده الأثر الذى تركه «الشيخ درويش» فى نفسه فقال: «تفرقت عنى جميع الهموم، ولم يبق إلا هم واحد، وهو أن أكون كامل المعرفة، أدب النفس. ولم أجد إماما يرشدنى إلى ما وجهت إليه نفسى سوى ذلك الشيخ الذى أخرجنى فى بضعة أيام من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة».

وكان الحادث الجلل فى شباب محمد عبده هو التحاقه سنة ١٨٦٦ بالجامع الأزهر - أهم مركز للثقافة الاسلامية - حيث قضى زهاء ثلاث سنين دون أن يجنى فائدة تذكر من الدروس التى كان يستمع إليها هنالك فما لبث ان انصرف عن «العلوم الأزهرية»، وتطلعت نفسه إلى علوم جديدة.

وألمت به، فى ذلك الحين، أزمة نفسية جعلته ينقطع عن الدرس، ويحأول أن يعتزل العالم، وأن يمارس ضروب الزهد والرياضة ولكنه اجتاز هذه الأزمة بفضل الشيخ درويش أيضا.

وكان من حسن حظه أن التقى بالسيد جمال الأفغانى، رائد الحرية الدينية والسياسية فى نظر الشعوب الشرقية. واستطاع محمد عبده، بفضل ما تلقاه عن أستاذه الأفغانى من هداية روحية، أن يتحول نهائيا عن طريق الزهد، وأن يقبل على الحياة العامة إقباله على دراسة العلوم العصرية المختلفة. كالفلسفة والرياضيات، والكلام، والأخلاق، والسياسة، والفن، وغيرها مما لم يكن له مكان فى مناهج الأزهر ووجد الشاب المصرى عند السيد الأفغانى روحا جديدة لم تكن مألوفة فى التعاليم الأزهرية: وجد عنده مذهبا فلسفيا واحدا، ونظرة إلى الحياة عميقة، وصورة عن الكون منظمة. وقضى التلميذ فى صحبة الأستاذ شهورا، يحيا حياة الروح والفكر وهو مبتهج نشوان، متعطش إلى ارتشاف المعرفة من ينابيعها الصافية.

ومنذ اتصال محمد عبده بأستاذه الأفغانى اتجهت حياته اتجاها جديدا أخذ الشاب الأزهرى يبذل جهده للتحرر من سلطان العرف السائد والتقاليد الموروثة وشرع يقرأ ما ينقل إلى العربية من ثمرات الثقافة الغربية، وينشئ المقالات للصحف المصرية، فنحس فيها أنه يحاول، فى شىء من المشقة أحيانا أن يتخلص من العقلية المسيطرة إذ ذاك على البيئة الأزهرية.

وفى سنة ١٨٧٧ تقدم محمد عبده لامتحان «العالمية» فى الأزهر، وظفر بالشهادة، رغم الشكوك التى حامت حول اسمه، لاتصاله بالسيد جمال الدين الأفغانى، ولكتابته الفصول التى يدعو فيها إلى التجديد وترك الجمود والتقليد.

وأصبح من حق محمد عبده أن يقوم بالتعليم فى الأزهر، فأخذ يلقى فيه دروسا فى التوحيد والمنطق والأخلاق، ثم عين مدرسا للتاريخ فى «مدرسة دار العلوم» ومدرسا للغة العربية فى «مدرسة الألسن»: فبدأ التعليم فى دار العلوم بمحاضرات عن «فلسفة ابن خلدون». ومضى الشيخ فى التدريس حتى تولى الخديو توفيق، فأمر بنفى جمال الدين الأفغانى من مصر، وعزل محمد عبده من دار العلوم.

ولكن «رياض باشا» أراد إصلاح جريدة «الوقائع المصرية» - وكان لسان الحكومة الرسمى - فعين الشيخ محمد عبده محررا بها، ثم جعله رئيس تحريرها. فكان الشيخ فيها - بحق - مصلحا ومعلما فى آن واحد: كانت غايته رفع مستوى الأمة، وتقويم أخلاقها، والنهوض بها نهضة اجتماعية أخلاقية، فى تدرج وأناة وتطور، ومن غير عنف ولا طفرة. وكان يعتقد أن ذلك يتم إذا سلك قادتها سبيل التثقيف والتربية ونشر التعليم، لا سبيل تقليد الغرب من غير فهم ولا إدراك عميق أو التمسك بظواهر المدنية المادية، مع الغفلة عن صميم المدنية الروحية الصحيحة وسار الشيخ فى تحرير «الوقائع المصرية» تلك السيرة الإصلاحية، فكان عجيبا حينئذ أن ترى صاحب عمامة أزهرية، يشرف من غرفة تحرير الجريدة الرسمية على الأمة، فيقوِّم من أخلاقها، ويصلح ما فسد من عاداتها، ويعلم جرائدها حسن التحرير، ويربيها على الصدق فى القول والإخلاص فى العمل.

واتهم محمد عبده - بعد هزيمة عرابى - بالتآمر مع رجال الثورة، فحكم عليه بالجسن، ثم بالنفى ثلاث سنوات، فاختار الشيخ سوريا منفى له، ورحل إليها عام ١٨٨٣. ولكن إقامته لم تطل فيها، اذ دعاه الاستاذ جمال الدين الافغانى إلى اللحاق به إلى باريس، فلبى الدعوة، وهبط أرض فرنسا أول مرة فى مستهل عام ١٨٨٤. وهنالك عمل مع أستاذه على تأسيس جمعية وصحيفة باسم «العروة الوثقى»، للدعوة لتقوية أواصر الجامعة الإسلامية، ودفع عدوان الغرب على الشرق بوجه

عام.. ومكافحة التسلط الأجنبى والطغيان الداخلى، وإنقاذ مصر من الاحتلال البريطانى بوجه خاص.

وعاد محمد عبده إلى مصر عام ١٨٨٨، فعين قاضيا بالمحاكم الشرعية، ثم مستشارا فى محكمة الاستئناف. وقد عرف فى هاتين الوظيفتين باستقلال الفكر.. وكان يتوخى فى أحكامه تربية الجمهور وإيقاظ ضميره، وإصلاح ذات البين بين الأسر.

ثم عين الشيخ عضوا بمجلس إدارة الأزهر، فدأب على السعى إلى رفع المستوى الثقافى والمادى والأخلاقى لهذه الجامعة. ووضع لذلك مشروعه الإصلاحى المشهور، الذى لم يستطع تنفيذه لكثرة ما وضع من عقبات.

وما لبث أن عين مفتيا للديار المصرية، سنة ١٨٩٩، فأضفى على ذلك المنصب سناء ومهابة، ولم يقتصر على الإفتاء فيما كان يحال إليه من مسائل. بل وسع اختصاصه وزاد من نفوذ المنصب الكبير.

وامتازت فتأوى الأستاذ الإمام بالميل إلى التسامح، واستقلال الرأى، والبعد عن التقليد، والملاءمة بين روح الإسلام ومطالب الحداثة. وأشهر الفتأوى التى أصدرها ثلاث: الأولى تبيح للمسلمين ادخار أموالهم وأخذ الفوائد والأرباح عليها، والثانية تبيح لهم أن يأكلوا من ذبائح غير المسلمين عند الضروره والثالثة تبيح لهم أن يتزيوا بزى غير زيهم التقليدى، تيسيرا لهم فى أمور معاشهم. وقد سببت هذه الفتأوى كثيرا من المجادلات، وأثارت سخط الشيوخ المتزمتين، وجلبت على المفتى ضروبا من القدح والتشهير لم تكن الدوافع إليها دينية خالصة فى أكثر الأحيان.

وفى ٢٥ يونيو سنة ١٨٩٩ عين محمد عبده عضوا فى «مجلس شورى القوانين»، فسار على سياسة ترمى إلى تربية الرأى العام فى مصر، وتعويد الأمة دقة النقد والتمحيص، والسمو عن الأشخاص والأغراض الخاصة، واستهداف المصالح القومية الكبرى.

وقد عمل الشيخ، عن طريق «الجمعية الخيرية الإسلامية»، التى كان من أوائل مؤسسيها، على تحقيق إصلاح أخلاقى اجتماعى، يذكى فى الناس روح الاعتماد على النفس، والتعأون بين الأفراد، وإشعار قلوب الأغنياء عاطفة الرحمة والإحسان

إلى الفقراء.. وكان صوته أول صوت ارتفع فى مصر الحديثة مناديا بنشر مبادئ العدالة الاجتماعية حتى يستتب السلام بين الطبقات.

وإلى الأستاذ الامام يرجع الفضل فى انشاء «مدرسة القضاء الشرعى»، والعمل على إصلاح المحاكم الشرعية، كما أسس «جمعية إحياء الكتب العربية القديمة».

وفى سنة ١٩٠٥، أخذ محمد عبده ينشر الدعوة لإنشاء جامعة مصرية إلى جانب الجامعة الأزهرية ولم يقنع بالتفكير، بل خرج بالمشروع إلى التنفيذ، فأقنع «احمد المنشأوى باشا» بأن يوقف البناء لجامعة قطعة أرض فى إحدى ضواحى القاهرة، ولكن موت المنشأوى باشا أوقف المشروع.

وفى ١١ يولية سنة ١٩٠٥ توفى الشيخ محمد عبده فى أوج نشاطه، وكانت وفاته حدادا عاما للبلاد العربية والإسلامية جميعا.

* * *

وصورة محمد عبده، كما تتبدى لنا بعد الإلمام بشخصيته وسيرته، لا تختلف عن الصورة التى سجلها عنه من قدر لهم ان يعرفوه أو أن يروه فى حياته.

قال عنه تلميذه ومريده رشيد رضا فى «المنار»: «إنه سليم الفطرة، قدسى الروح، كبير النفس وصادف تربية صوفية نقية، زهدته فى الشهوات والجاه الدنيوى، وأعدته لوراثة هداية النبوة، فكان زيته فى زجاجة نفسه صافيا يكاد يضىء ولو لم تمسسه نار».

وقال شيخ الأدباء عباس محمود العقاد فى كتابه «عبقرى الإصلاح والتعليم»: «رأيت الشيخ محمد عبده مرات معدودة، ورأيته مرات لا تحصى فى صورة شمسية التى لا تلتبس إحداها بملامح صورة أخرى، فكانت النظرة الأولى كالنظرة الأخيرة إلى تلك الملامح فيما تنم عليه وتشير إليه: قوة وطيبة متفقتان لا يبين لك انهما تنازعتا يوما أو تتنازعان.. وهو أقرب الناس سمة بما يرتسم فى أخلادنا من سمات النبوة، وهى فى طلعتها الإنسانية بشر مثلنا، وإن لم نكن نحن بشرا مثلها فيما نتلقاه من وحى الله».

المرزبانى

٩١٠ - ٩٩٤م

المؤرخ والأديب العربى الذى أوقف حياته على العطاء العقلى والسخاء العلمى

هو أبو عبد الله محمد بن عمران المرزبانى واحد من ألمع العلماء الأدباء الذى أثروا المكتبة العربية بكل نفيس جليل من فيض العقل العربى. وإن كان الرجل فارسيا كما هو باد من لقبه، غير أن المرزبانى لم تكن تربطه بالفارسية إلا رابطة النسب، وأما العقل والفكر والنتاج والولاء الثقافى فعربى محض.

إن أشهر كتب الطبقات التى ألفها المرزبانى ولا زالت بين أيدينا نرجع إليها ونعتمد عليها وننهل من فيض عطائها كتاباه «معجم الشعراء» و«الموشح». كما أن له كتابا آخر على جانب كبير من الأهمية هو «أشعار النساء» غير أنه لا يزال مخطوطا لم تمتد إليه يد التحقيق والإخراج والطبع والنشر.

والمرزبانى صاحب كتب كثيرة فى الأدب والتاريخ والنوادر والثقافة بصفة عامة، والشعر بصفة خاصة. ووضع على قدم المساواة مع كل من العالمين الكبيرين الجليلين الجاحظ وابن قتيبة. بل إن بعض العلماء قال: إنه أحسن تصنيفا من الجاحظ وكان أبو على الفارسى يقول: إن أبا عبد الله المرزبانى من محاسن الدنيا.

وكان المرزبانى صاحب منهج دقيق يلتزمه حين يقبل على تأليف أحد كتبه، فقد كان يجمع المادة العلمية للكتاب كما نفعل فى عصرنا، ومن هذه المادة ينتقى ما

يصلح لأن يضمه بين دفتى الكتاب. فقد ذكر أنه سود ذات مرة عشرة آلاف ورقة صح له منها ثلاثة آلاف.

وكان المرزبانى يعيش مع العلم وأهل العلم. وقد ذكر أنه كان عنده خمسون لحافاً ودواجا - والدواج هو اللحاف الذى يلبس - لأهل العلم الذين كانوا يبيتون فى داره. وليس من شك فى أن هؤلاء جميعا كانوا إما أدباء أصدقاء أندادا وإما تلامذة كبارا يساعدون شيخهم نسخاً أو إملاء. فإن العدد الكبير الذى تركه من الكتب يدفع بنا إلى الاستنتاج أن الرجل كان يستعين ببعض تلامذته.

وكان المرزباى من سمو المكانة بحيث كان عضد الدولة الملك البويهى الأديب يزوره بين الحين والحين سائلا عن حاله، وقد سأله ذات مرة: كيف الحال؟ فأجابه بصيغة الاستفهام الاستنكارى الفكه: كيف حال من هو بين قارورتين!! يعنى المحبرة وقدح النبيذ.

وأما مؤلفات المرزبانى فمن الكثرة والتنوع والقيمة بمكان. لقد كتب المرزبانى فى موضوعات الأدب وأخبار الأدباء من كتاب وشعراء. وكتب فى التاريخ وكتب فى اللغة وكتب فى الزهد وعلم الكلام والدين والأخلاقيات، كما كتب فى الموضوعات العامة التى تتصل بالثقافة فى شتى فروعها ومختلف ألوانها.

أولاً: ففى مجال الشعر والشعراء ترك لنا المرزبانى هذه الكتب:

١- كتاب أخبار الشعراء المشهورين والمكثرين من المحدثين.

٢- كتاب أخبار أبى تمام.

٣- كتاب أخبار عبد الصمد بن المُعَذَّل.

٤- كتاب أشعار النساء. ويقع فى ستمائة ورقة.

٥- كتاب أشعار الجن المتمثلين فى من يتمثل منهم بشعر.

٦- كتاب المعجم. وهو معجم الشعراء المعروف لدينا.

٨- كتاب أشعار الخلفاء.

٩- ديوان يزيد بن معأوية الأموى.

١٠- كتاب المفيد فى أخبار الشعراء فى الجاهلية والإسلام ودياناتهم ونحلهم، ويقع فى نيف وخمسة آلاف ورقة.

١١- كتاب المونق فى أخبار الشعراء «الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين على طبقاتهم» ويقع فى خمسة آلاف ورقة.

١٢- كتاب الرياض فى أخبار المتيمين من الشعراء الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين.

١٣- كتاب المراثى. ويقع فى خمسمائة ورقة.

١٤- كتاب أخبار شعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠هـ، وهو عالم الأدب والشعر وشيخ المحدثين بالعراق.

ثانيا: ما كتبه المرزبانى من كتب تجمع بين الأدب والحياة الاجتماعية والنوادر والطرف:

١- كتاب أخبار الأولاد والزوجات والأهل وما جاء فيهم من مدح، وذم.

٢- كتاب الأنوار والثمار فيما قيل فى الورد والنرجس وجميع الأنوار من الأشعار.

٣- كتاب الشباب والشيب، ويقع فى ثلاثمائة ورقة.

٤- كتاب نسخ العهود إلى القضاة، ويقع فى مائتى ورقة.

٥- كتاب المديح فى الولائم والدعوات، ويقع فى خمسمائة ورقة.

٦- كتب المستطرف فى الحمقى والنوادر، ويقع فى ثلاثمائة ورقة.

٧- كتاب المزخرف فى الإخوان والأصحاب ويقع فى أكثر من ثلاثمائة ورقة.

٨- كتاب الرائق فى أحوال الغناء وأخبار المغنين والمغنيات.

ثالثا: وفى مجال التاريخ ألف المرزبانى الكتب الآتية:

١- كتاب أخبار أبى مسلم الخراسانى، ويقع فى مائة ورقة.

٢- كتاب أخبار البرامكة، ويقع فى خمسمائة ورقة.

٣- كتاب الأوائل فى أخبار الفرس القدماء وأهل العدل والتوحيد وشىء من مجالسهم ويقع فى ألف ورقة.

٤- كتاب المغازى، ويقع فى ثلاثمائة ورقة، وهو نمط من التأليف درج على الكتابة فيه الكثير من العلماء السابقين.

٥- كتاب أخبار ملوك كندة.

رابعا: وفى مجال اللغة والنقد كتب المرزبانى الكتُب الآتية:

١- كتاب المفصل فى البيان والفصاحة، ويقع فى ثلاثمائة ورقة.

٢- كتاب المقتبس فى أخبار النحويين.

٣- كتاب الموسع فى ما أنكره العلماء على بعض الشعراء من كسرٍ ولحنٍ وعيوب فى الشعر.

٤- كتاب الشعر: محاسنه وعيوبه وأوزانه وأجناسه وضروبه ومختاره وأدب قائليه ومنشديه ومنحوله ومسروقه.

خامسا: موضوعات الزهد والعبادة والعلوم الدينية وأعلام العلماء:

١- كتاب الدعاء ويقع فى مائتى ورقة.

٢- كتاب ذم الحجَّاب ويقع فى مائتى ورقة ويدخل فى باب الأخلاق والاجتماع وهما موضوعان مرتبطان بالعنوان الذى اخترناه لهذه المجموعة.

٣- كتاب ذم الدنيا. ويقع فى خمسمائة ورقة.

٤- كتاب الزهد وأخبار الزهاد.

٥- كتاب العبادة، ويقع فى أربعمائة ورقة.

٦- كتاب الفرج ويقع فى مائة ورقة.

٧- كتاب المحتضَرين، ويقع فى مائة ورقة.

٨- كتاب المرشد فى أخبار المتكلمين، ويقع فى مائة ورقة.

٩- كتاب المشرَّف: فى حِكَم النبى ﷺ وآدابه، ومواعظه ووصاياه.

١٠- كتاب المنير: فى التوبة والعمل الصالح، ويقع فى أربعمائة ورقة.

١١- كتاب المتوج: فى العدل وحسن السيرة.

١٢- كتاب أخبار محمد بن حمزة العلاف، ولعله قصد من وراء ذلك التحدث عن المعتزلة.

١٣- كتاب أخبار أبى حنيفة النعمان بن ثابت ويقع فى خمسمائة ورقة.

سادسا: كتب فى موضوعات المعرفة العامة.

١- كتاب تلقيح العقول.. ويقع فى ثلاثة آلاف ورقة. مقسم على مائة باب.

٢- كتاب الأزمنة ويقع فى ألف ورقة.

لقد كانت حياة المرزبانى المديدة موقوفة على العطاء العقلى والسخاء العلمى. التزم بيته حيث يفد إليه العلماء والباحثون عن المعرفة. بل كان الملك البويهى يسعى إليه بنفسه تكريماً لعلمه وتبجيلا لقدره. فإن من هذا عطاؤه جدير بالتوقير والتكريم.



المسعودى

٨٩٣ - ٩٥٧م

العالم الموسوعى

من ميزات المؤلفات التاريخية التى دونتها أقلام المؤرخين العرب الذين عاشوا وكتبوا فى العصر العباسى الثانى وما تلاه، اتجاهها نحو المنهج العلمى وميلها إلى الدقة التى تتطلبها كتب التاريخ بشكل عام. ويمثل هذا الاتجاه الجديد فى التأليف التاريخى ثلاثة هم: الطبرى والمسعودى ومسكويه.

المسعودى واسمه الكامل أبو الحسن على بن الحسين لا تبدأ حياته بسنة مولد ومكان ولادة. بل يكتنف الغموض سنة مولده وفى المصادر أكثر من رواية حول مكان ولادته. أما زمان ولادته فتهمله المصادر التى بين أيدينا ولا تتعرض له بذكر وهذا أمر طبيعى، لأن أحدا لم يكن يتوقع له الشهرة وذيوع الصيت حين ولد: ولكنه حين نبغ واحتل بين رجال عصره مكانا مرموقا سلطت الأضواء عليه وتناقلت اسمه الألسن فحرص رجال التراجم على تدوين سنة وفاته، والمصادر، إلا أن بعضها القليل، كما أن فى بعضها ما يدل على أنه دخل الحياة العامة واخذ يجول الاقطار طلبا للعلم والمعرفة فى مطلع القرن الرابع للهجرة.

أسفار المسعودى

وقد أحب المسعودى الأسفار منذ شبابه فسافر سنة ٣٠٥هـ إلى اصطخر فى فارس وزار فى السنة التى تلت بعض مناطق الهند وسيلان وبلاد سيمور، وانضم إلى فريق من التجار فى رحلة فى بحر الصين وعبر البحر الأحمر وزار مدغشقر

كما زار زنجبار وعمان. وحوالى سنة ٣١٤ نجده يجوب بحر الخرز (بحر قزوين) ومناطقه، وينتقل بعدها لزيارة طبرية وفلسطين، وقد قام سنة ٣٣٢ بزيارة لأنطاكية، وبعض مدن الحدود السورية. واستقرت زيارته لهذه المناطق مدة سنتين أقام أثناءها فى بعض مدن الثغور الشامية والبصرة. حتى كان العام ٣٢٤ فتوجه إلى دمشق وأمض فيها بعض الوقت. وانتقل منها إلى مصر ليعيش متنقلا بينها وبين سوريا حتى آخر حياته. وقد توفى سنة ٣٤٦ وهو مقيم فى الفسطاط بمصر.

وقد دفع المسعودى للقيام بهذه الرحلات الطويلة المتنائية حبه للعلم ورغبته فى طلبه والاستزادة منه. فهو بهذا يشبه المقدسى والبيرونى. وقد أتاحت له هذه الأسفار ان يعنى بمعارفه الجغرافية والتاريخية والاجتماعية، وان يتعرف على لغات وعادات وتقاليد وأخلاق وسياسات الأمم المختلفة التي زارها. وهو فى جمعه بين المعرفة الجغرافية الواسعة نتيجة الرحلات والأسفار وشغفه بالحقيقة التاريخية والأخبار بوجه عام، يلتقى بهيرودوت أبى التاريخ عند إليونان فكلاهما رحالة زار البلاد وجاب الأقطار، وكلاهما مزج بين التاريخ والجغرافيا فى مؤلفاته. وقد دعا هذا بحق المستشرق فون كريمر أن يشير إلى المسعودى فى كتابه «تاريخ الثقافة فى الشرق» باسم هيرودوت العرب.

والمسعودى موسوعى لا يؤمن بالموضوع الواحد ولا يقنعه الاختصاص الضيق فيما يكتب وإذا كان لهذا النهج مسأوئه، فهو لا يخلو من محاسن تدل على سعة أفق المؤلف وشمول نظراته وتعدد جوانب ثقافته ويحدثنا هو عن تنوع الموضوعات التى يضمها المؤلف الواحد من مؤلفاته فيقول فى الباب الذى يذكر فيه جوامع أغراض كتابه المسمى «مروج الذهب ومعادن الجوهر» ما يلى مما يستدل منه على تضمينه هذا الكتاب أبحاثا فى التاريخ والجغرافيا والعادات والتقاليد والأخلاق والأدب وأخبار الملوك وسياستهم وغير ذلك. يقول المسعودى: «أما بعد، أننا صنفنا كتابنا فى أخبار الزمان وقدمنا القول فيه فى هيئة الأرض ومدنها وعجائبها وبحارها وأغوارها وجبالها وانهارها وبدائع معادنها.. ثم أتبعناه بأخبار الملوك الغابرة والأمم الداثرة.. ثم أتبعناه بكتابنا الأوسط فى الأخبار عن التاريخ ومن درج فى السنين الماضية.. ونعتذر عن تقصير إن كان ونتنصل من إغفال إن عرض لما قد

شاب خواطرنا وغمر قلوبنا من تقاذف الأسفار وقطع القفار تارة على متن البحر وتارة على ظهر البر مستعلمين بدائع الأمم بالمشاهدة عارفين خواص الأقاليم بالمعاينة فتارة بأقصى خراسان وتارة بأواسط أرمينيا وأذربيجان وطورا بالعراق وطورا بالشام.. نسرى فى الآفاق سرى الشمس فى الإشراق.

وفأوضنا أصناف الملوك على تغاير أخلاقهم وتباين هممهم وتباعد دارهم..»

وهكذا يصنف لنا الموضوعات التى تطرق إلى بحثها فى كتابه وينقلنا معه فى أسفاره واصفا متاعبه فى رحلاته واطلاعه الواسع على ما ألف من قبله ومعددا بعضا مما دبج قلمه من مؤلفات فى التاريخ والجغرافيا وغيرها. وهو كغيره من المؤرخين العرب لا يتبع نظاما موحدا فى عرض مادته ونراه فى كثير من الأحيان يخرج عن جادة الموضوع الأصلى ليذكر أشياء لا تمت إلى ما يبحث بصلة أو نسب. ولكنه يهتم ببحث جميع الأشياء التى يعتبرها المتعلم فى عصره أساسية؛ لذلك جاءت مؤلفاته جامعة لكثير من المعلومات المتشعبة المتفرعة. وهو يلتفت بشكل خاص إلى الأمور الاجتماعية والدينية والعلمية التى تميز بها العرب قبل إسلامهم ويقارن بينهم وبين العجم وغيرهم من الأمم، محأولا إظهار فضل العرب وتقدمهم فتراه عند ذكر سير الملوك والخلفاء يستقصى أدق أخبارهم الخاصة فيدخل بيوتهم ويعيش معهم فى مجالسهم ويصف ملامحهم وعاداتهم فى المأكل والمشرب والملبس مما لا تجده عند غيره. وقل الأمر نفسه عن اهتمامه بما كانت عليه أمة العرب من معتقدات دينية وإيمان بآلهة وأوثان وزجر الطير وسوانحه وبوارحه والكهانة والعرافة، حتى يصل إلى علومهم ومجالس أنسهم وقيانهم (الإماء المغنيات) وآلات طربهم التى ضاع أغلبها ولم يصل إلينا منها إلا القليل.

تصانيف المسعودى

ومن تصانيفه: مروج الذهب ومعادن الجوهر، أخبار الزمان ومن أباده الحدثان، التنبيه والاشراف، أخبار الخوارج، ذخائر العلوم وما كان فى سالف الدهر، الرسائل، الاستذكار بما مر فى سالف الأعصار، أخبار الأمم من العرب والعجم، خزائن الملوك وسر العالمين، المقالات فى أصول الديانات، البيان فى أسماء الأئمة،

المسائل والعلل فى المذاهب والملل، الإبانة عن أصول الديانة، سر الحياة، الاستبصار فى الامامة، والسياحة المدنية فى السياسة والاجتماع، ويبدو أن أوسع كتبه كان كتابه «أخبار الزمان ومن أباده الحدثان». وهو كتاب فى التاريخ العام والجغرافيا بدأ فى تأليفه سنة ٣٣٢هـ - ٩٤٢م. وقد بلغ عدد أجزاء هذا الكتاب ثلاثين مجلداً، عرض فيها المسعودى الحوادث حتى سنة تأليفه.

وللمسعودى كتاب مطبوع آخر هو كتاب «التنبيه والاشراف» الذى ألفه قبل وفاته بقليل، وهو على حد تعبير المؤلف نفسه مقدمة لكتبه وتكملة لها. وهذا الكتاب عظيم الأهمية؛ لأنه يحوى كل ما حصله المؤلف من الأخبار بعد أن كتب «مروج الذهب». وهو كتاب جغرافى أودع المؤلف فيه لمعا من ذكر الأفلاك وهيئاتها والنجوم وتأثيراتها وتراكيبها وأقسام الأزمنة والفصول السنوية ومنازلها والرياح ومهابها والأرض وشكلها ومساحتها وتأثير النواحى والآفاق على السكان والعروض والأطوال والأقاليم السبعة والأنهار ومصابها. كما يذكر فى هذا الكتاب الأمم السبع القديمة ولغاتها ومساكنها، كما يذكر ملوك الفرس والروم وأخبارهم وأخبار الأنبياء وسيرة الخلفاء حتى سنة ٣٤٥ للهجرة. وميزة هذا الكتاب انه يحوى الكثير من المعلومات الجديدة التى لم يضمنها المسعودى مؤلفاته الأخرى.

وإذا كان لحرص المستشرقين والمهتمين بتاريخ العرب والإسلام على ترجمة كتب المسعودى إلى اللغة الأجنبية وطبعها ونشرها من دلالة، فهى تقديرهم البالغ لآثار هذا المؤلف وحرصهم على الإفادة منها ويلخص فازيليف فى كتابه «العرب والروم» إعجاب المؤلفين الغربيين بكتب مؤرخنا المسعودى بقوله: «وكتب المسعودى مما يقرؤه المسلمون والأوروبيون على السواء فيجدونه ممتعا طليا وذلك راجع إلى تنوع الأخبار التى يسوقها المؤلف وإلى قدرته على جعل سرده حيا فى كتبه».

ملك حفنى ناصف

١٨٨٦ - ١٩١٨م

باحثة البادية

ولدت بالقاهرة سنة ١٨٨٦ بدأت دراستها فى المدارس الفرنسية ثم التحقت بالمدرسة السنية وكانت أول من فتح الباب لمن بعدها فى هذه المدرسة بالذات. إذ كان الآباء لا يخاطرون بإدخال بناتهم فى هذه المدرسة ان لم تضطرهم الحاجة المادية.

وهى أول فتاة حصلت على الشهادة الابتدائية سنة ١٩٠٠ وكانت وقتئذ فى سن الثالثة عشرة (كانت الشهادة الابتدائية مقصورة على البنين).

التحقت ملك بالقسم العإلى بالسنية وكان التدريس فيها بالانجليزية والفرنسية فضلا عن العربية.

وفى سن السادسة عشرة أى بعد ثلاث سنوات حصلت على دبلوم السنية.

تعرفت ملك بالكاتبة (مى زيادة) عن طريق المراسلة بالصحف وتجأوبت روحاهما على البعد وتآلفا على غير لقاء، وتقول مى إنها تعلمت اللغة العربية من القرآن ومن كتابة ملك.

وملك مصلحة اجتماعية أولا وقبل كل شىء ولها شعور الشاعرة المرهفة الحس التى تشعر بآلام الكون فتمد له يدها الحانية لتضمد جراحه وتمسح من دموع فؤاده وهذا هو السر الكامن وراء نجاح مشروعاتها الاجتماعية ولأنها شاعرة تحس بالألم فترسم طريق الخلاص منه. ومن غير الشاعر يفكر بقلبه لينقذ البائسين من

ويلات البشرية.

وانشغال ملك بالناحية الاجتماعية ربما يكون هو السبب فى قلة ما لدينا لها من نصوص أدبية.

فقد كانت منصرفة إلى الصحف تعالج مشاكلنا وإلى المنابر تدعو للإصلاح وإلى السفر والرحلات تنادى، من أجل حقوق المرأة المصرية المهضوم حقها.

والشعر كما نعرف يتطلب وقتا وتفرغا.

نثرها

وكانت ملك حتى فى نثرها شاعرة رقيقة ففى وصفها للبحر تقول:

(أيها البحر إنك كأطماع الإنسانية لا تنتهى إلا إذا عبر الإنسان جسر الحياة كذلك أنت. لا يعرف لك حد إلا عند الخروج منك، إنك كقلب الرجل مرة تصفو ومرة تغضب. لا أمان لك فى الأولى ولا أمان لك فى الثانية.

إذا رضيت كنت نكالا يصطخب الموج بين أحشائك ويتلاشى كألفاظ الحسان تمر بسمع الحليم. وتشق البواخر جوف عبابك فتصبر عليها صبر الكليم.

تحمل من الأثقال والأكوار ما لو حملته الجبال لخرت هدا - طاق صوتك الهادى تموجات لحن شجى وكأن أمواجك المزبدة متتابعة متقابلة سرايا جيش منظم يحمل رايات السلام).

وهكذا تمضى ملك فى وصف البحر فى نثر هو الشعر وفى خيال هو خيال الشاعرة الأصيلة حين تصف ما تريد بلفظ رقيق وأسلوب جذاب يرسمه خيال واسع.

بعض القضايا التى عالجتها ملك:

كانت ملك مؤمنة إيمانا قويا بأن المرأة هى التى تستطيع أن ترفع من مستوى الجماعة باعتبارها أما أولا وقبل كل شىء.

وكانت تعبر عن آرائها إما على صفحات الصحف وإما عن طريق الخطب فى

النوادى والمجتمعات وقد عالجت ملك كثيرا من الموضوعات التى تهم المرأة بصفة خاصة والتى ترقى بالمجتمع بصورة عامة فمن هذه الموضوعات:

الحجاب والسفور. الزواج بغير المصريات ومن رأيها ألا يتزوج الشاب بغير مصرية وإلا فإلى أين تذهب بناتنا.. وفى تربية الفتيات وفى الزواج وتعدد الزوجات. وفى طلاء الوجوه وفى زواج الأختين.

ومن الموضوعات الاجتماعية:

المدن والقرى وكيف ننهض بالقرية ومن أهم ما يسجل لملك بالفخر تشجيعها المرأة على التعلم فهى فضلا على أنها بدأت بنفسها فالتحقت بالسنية لتشجيع غيرها ممن كن يعرضن عن الإلتحاق بها. وكانت تطوف ببيوت الصديقات وتشجعهن على إلحاق بناتهن بالمدارس. فهى تعتبر الرائدة الأولى حقا فى إقبال المرأة على التعليم والوظيفة.

شعرها:

كانت ملك شاعرة مقلة ويرجع ذلك كما قلنا لانشغالها بالناحية الإصلاحية وانصرافها إلى الكتابة فى الصحف بصفة دائمة حتى تسهم مساهمة فعالة فى إصلاح مجتمعها.

وكانت ملك تدون شعرها فى كراسة على حسب الترتيب التاريخى.

وقد ضاع معظم شعرها فى بيت الزوجية وأول قصيدة لها قالتها:

بشرى لمصر فقد نالت أمانيها

وأنجح الله بالحسنى مساعيها

ومعظم أشعار ملك قصائد ثائرة فضلا عن المواعظ والإرشادات فى الخلق والدين حيث كانت مصلحة اجتماعية تشارك فى أحداث وطنها السياسية والاجتماعية بشعرها ونثرها وخطبها.

موتها:

كانت ملك تجاهد فى سبيل المرأة ما استطاعت لذلك سبيلا. بمالها، وصحتها، وأعصابها، كانت مؤمنة بحقها فى الحياة الكريمة والمؤمن لا يعرف غير الجهاد سبيلا لتحقيق ما آمن به.

فضعفت صحتها فى أواخر سنى الحرب الكبرى وكانت ملك حينئذ فى سن الثانية والثلاثين وكانت أمها حينئذ مريضة وأبوها يعانى ضعف الشيخوخة وأكثر من هذا وذاك اتهام أخيها مجد الدين بتهمته السياسية التى كانت ستودى به إلى الإعدام.

كل هذه الآلام مجتمعة تحملتها ملك ولكنها لم تستمر فى المقاومة فأصيبت بالحمى الاسبانيولية وهى بالفيوم فنصحها الطبيب بالاعتكاف ولكنها لما سمعت بخبر قضية أخيها نسيت مرضها. وآلامها وخاطرت بحياتها وسافرت إلى القاهرة لتكون بجانب والديها حينئذ. وكيف تستقر وهى الشاعرة التى لا تعيش لنفسها وإنما آلام الآخرين هى آلامها، وسمعت ببراءة أخيها ولكن بعد أن كان قد تمكن المرض من جسمها وضعف تنفسها وأحضروا لها الأوكسجين لمساعدتها على التنفس ولكن حالتها ازدادت سوءا وصعدت روحها الطاهرة إلى بارئها.



المنفلوطى ـ مصطفى لطفى

١٨٧٦ - ١٩٢٤م

الأديب الرقيق الصادق الوطنية

ودع المنفلوطى هذا العالم على غرّة، يوم حادث الاعتداء على الزعيم الكبير سعد زغلول باشا (فى يوليو سنة ١٩٢٤) فلم يحمل نعيه الا هفيف النسيم، وباكيات الحمائم، ولم ينهض لتوديعه من هذا الجمهور المعجب بآثاره، إلا محبوه من أهله وصفوة أصدقائه..

وكأن القضاء أراد أن يُديل منه فى كاتبه البليغ الذى كان يعزه ويقدمه على قرنائه، فسدد إليه سهمه الصائب، وانتزع تلك النفس السماوية طائرا بها إلى الملأ الأعلى حيث يلائمها هذا المقام. فذهب المنفلوطى فداء لزعيمه، راضيا بتضحيته أمام الأقدار التى تنوش الناس بسهمها وتنتقى منهم الأعزاء والأخيار، غير عابئة بما يكون وراءهم من اكباد محترقة، ونفوس مشبوبة بنار الحسرات، فخسرت مصر بموته خسارة أدبية تتلفت حولها فلا تجد من يعوضها.

نشأ كاتبنا القدير نشأة شعرية منذ كان يتردد على منزل أبيه الأستاذ عبد الله هاشم الذى كان يعجب به المنفلوطى فى صغره لما كان عليه من أدب جم ونزعة شعرية حببت إليه الأدب العربى والإكباب على استظهار القصائد وهو بعد تلميذ لم يتجأوز حد البلوغ فى مكتب جلال الدين السيوطى الذى كان يرأسه الشيخ محمد رضوان أحد الفقهاء الذى كان له الفضل فى تربية كثير من علماء أسيوط وأدبائها.

وما بلغ السيد مصطفى السنة الحادية عشرة من عمره حتى أتم حفظ القرآن الكريم جملة واحدة بانتظام دون إعادة مرة أو اثنتين لبعض أجزائه كما يفعل كثير من الحفظة والمستظهرين، ثم انتقل على إثر ذلك إلى القاهرة فدخل الأزهر الشريف، ولكنه وجد من طريقة تعليمه ما لا يتلاءم ورغبته الأدبية التى كان يريد تغذيتها بثمرات قرائح الكتاب والشعراء العربيين الذين خلفوا من التراث الأدبى ما يعد مفخرة للشرق عامة. لذلك لما يئس من إرواء غلته بما كان يدرس صباح مساء فى الأزهر أخذ يتحين الفرص لمطالعة الكتب الأدبية، ويختلس قراءتها وسط دروسه فى خفية من أساتذته الذين كانوا يعنفونه ويضربونه إذا ظفروا بكتاب أدبى معه، ولكنه على الرغم مما كان يلقاه من تعنيف اساتذته وجفاء الجو الذى كان يحيط به، لم تنثن عزيمته عن مواصلة الجد فى الاطلاع على أحسن ما خلفه العرب من منظوم ومنثور فى المنزل والشارع، وفى الحدائق الغناء، وعلى ضفاف الغدائر الحسناء، وبين منعطفات الأشجار، وثنايا الورود والأزهار، مؤتنساً بسجعات الحمائم، ونغمات البلابل، مردداً تغريدها، مستعيدا حنينها، وهو منفرد فى غربته يعالج من نشيجه وآلام بعاده عن وطنه وأهله ما هذب نفسه، ورقق قلبه، فتكوَّن له أسلوب هو بتغريد الطيور أشبه.

ولما بلغ المرحوم المنفلوطى السادسة عشرة قرض الشعر، فكان أول ما ظهرت فيه بوادر نبوغه لكثرة ما كان يطالعه ويحفظه من قصائد كبار الشعراء المشهورين، ولكنه ما لبث أن هجر الشعر ولزم النثر فكان شأنه فيه شأن الخالدين.

ولما صار عمره ١٨ سنة نظم قصيدة طويلة يبلغ عدد أبياتها مائة وخمسين بيتاً ندد فيها بالاحتلال وضمنها كتابا جعله بإمضاء «عدو الاحتلال» وكان مطلعها:

الا راية للعدل فى مصر تخفُق لعل مساعى دولة الظلم تخفق

الا صدمة للجو توقف سيره فيجبر ذاك الكسر والفتق يرتق

وقد عرّض فى هذه القصيدة بمصطفى باشا فهمى، ولذلك لما صدر كتابها هاجت الدنيا وأخذوا يبحثون عن ناظمها، ولكنه أفلت منهم فى هذه المرة ولم تعرف أنها له قبل الآن.

يظهر مما أسلفنا للمنفلوطى من الشعر أنه كان وطنيا صميما يمقت الاحتلال، ويطعن فيه من وراء ستار، غير أن هذه الوطنية دفعته فى بعض الظروف إلى تطرف كبا فيه جواده، وأودع أعماق السجون، وذلك أنه لما عاد الخديوي عباس من الأستانة بعد سفره إليها فى بعض المناسبات، أبى السيد مصطفى الشاب المتأجج حماسة ووطنية إلا أن ينظم قصيدة فى استقبال سموه كان مطلعها:

قدوم ولكن لا أقول سعيد   وعود ولكن لا أقول حميد

فلما نشرها واطلعت بها الحكومة أمرت بالقبض عليه ومحاكمته أمام القضاء فحكم عليه بالحبس ستة أشهر قضاها فى غياهب السجن.. غير أنه لما حكم عليه بهذا العقاب لم يجد من الكُتاب من تجرأ للدفاع عنه غير المرحوم الشيخ نجيب الحداد الذى دافع عنه فى جريدته لسان العرب.

بعد ذلك اتصل بالأستاذ الامام الشيخ محمد عبده إذ كان فريد عصره فأنزله بين تلامذته منزلة رفيعة لما رآه من نبوغه وعبقريته، وكان السيد مصطفى من الشبان المولعين بفضل الأستاذ الإمام وله فيه قصائد من أجود الشعر نشرها فى المؤيد وغيره وظل ملازماً له إلى أن توفى، فانتقل السيد مصطفى بعد ذلك إلى منفلوط ومكث بها سنتين صار يراسل أثناءها جريدة المؤيد بمقالاته «الأسبوعيات» التي أسماها فيما بعد «النظرات» ولما رجع إلى القاهرة استمر فى الكتابة والتأليف واقتصد فى نظم الشعر فألف سائر كتبه المشهورة فى خلال ست عشرة سنة ومعظمها فى المآسى الحزبية، وقد كان يقول: «ما أشبهنى بالحمام يغرد وهو باكى».

وقبل أن ينتقل إلى جوار ربه ببضعة أشهر ألف رواية قد سماها «البعث» شرح فيها «لزوم ما لا يلزم» للمعرى بطريقة قصصية خيالية، إذ حسب عمر أبى العلاء المعرى فوجده ثمانين سنة، فبنى روايته على أنه قابلة ثمانين مرة فى ثمانين يوماً، وصار يحادثه عن فلسفته وآرائه الدينية والاجتماعية، وأخذ يستشهد فى خلال ذلك بأبيات من اللزوميات دون ان يؤدى ذلك إلى سأم أو ملل. وهذه الرواية ثمينة فى بابها، وهى من خير ما ألف المنفلوطى.

ولا شك ان كبار «الرواد» الذين أقاموا صرح الأدب العربى المعاصر قد فتحوا

عيونهم فى مطلع الشباب على أدب هذا الكاتب.

هذا اللون الجديد الذى ابتدعه فى مطلع القرن الماضى، حتى كان الثالوث «طه حسين وأحمد حسن الزيات ومحمود زناتى» ينتظر المؤيد كل خميس ليقرأ له فى اعجاب.

أشرق اسلوب المنفلوطى على وجه المؤيد إشراق البشاشة، وسطع فى أندية الأدب سطوع العبير، ورن فى أسماع الأدباء رنين النغم، ورأى القراء الأدباء فى هذا الفن الجديد ما لم يروا فى فقرات الجاحظ وسجعات البديع وما لا يرون من غثاثة الصحافة، وركاكة الترجمة فأقبلوا عليه إقبال الهيم على المورد الوحيد العذب ويبدو المنفلوطى فى رسائله وقصصه فى صورة قاتمة حزينة فهو قادر على أن يرسم صورة الألم الممض، فيحول الاجواء كلها إلى عواصف ودموع وآلام وبكاء ونواح.

ولا يزال أدب المنفلوطى - قويا حيا يبعث فى النفس آثاره دون ان تقضى عليه الالوان الجديدة التى جاءت بعده وإن لم يكن أدب القوة إلا حين يتصل بالسياسة والوطنية فله فيها آيات من القوة والجرأة الحاسمة.

والمنفلوطى من المنشئين الذين تبدو عاطفتهم واضحة وراء إنتاجهم، فهو ليس من الكتاب العقليين أو أصحاب المذاهب الفكرية بقدر ما هو من كُتاب المعانى التى تتصل بالحب والحرمان والألم والبؤس.

وبعد فالمنفلوطى يأخذ مكانه هنا لأنه علم على رأس مرحلة من مراحل الإنشاء الأدبى وعلى رأس «طريقه» فى الأدب وأسلوب التعبير ومدرسة فى البؤس والحزن والحرمان. والأرجح ان يكون مرجع هذه الوجدانية التى نراها فى «ماجدولين» و«الشاعر» إلى أشواق نفسية فى أعماق الكاتب نفسه وجدت مكان الإفضاء عنها فى تلك الصور الشعرية التى رسمها بقلمه بعد أن ترجمت له.

ليس من شك أن المنفلوطى شاعر النفس، وأنه أحب وهذا هو سر قوته الوجدانية ويبدو أن المنفلوطى لم يجد فى مقدوره الكشف عن صور حبه فى صراحة فاختار أن يصورها على هذه الطريقة، وجملة القول فيه أنه أديب الآلام والحزن والحرمان يصورها بأسلوبه البليغ فتجد لها فى كل نفس صدى وفى كل

قلب أثر.

خرج المنفلوطى عن الأسلوب التقليدى، فأدخل إلى الأدب المعانى والصور بعد أن كان الزخرف هو كل شىء، فهو مرحلة بين المويلحى من ناحية وبين الزيات والرافعى من ناحية أخرى. وهو وإن كان قد عاصر المدرسة المهجرية إلا أنه تحرر منها وظل محتفظا بطابعه الخاص.

وهو يحرص أحيانا على أن يكون ضخما فخما فى أسلوبه وقاسيا مؤثرا فى معانيه، يبعث الألم والحزن، حتى لتضيق به أحيانا، ولا تحتمل قسوته حين يصل بأبطاله إلى أبعد حدود الآلام المتخيلة، فيجمع عليهم الفقر والبأساء والجوع والعرى والحرمان، وهو إلى ذلك كاتب وطنى واجه الإنجليز بقلمه فى عنف ومقاله فى الرد على روزفلت حين جاء مصر مشهور وقصيدته فى هجاء الخديو معروفة.



مى زيادة

١٨٨٦ - ١٩٤١م

صاحبة أشهر المنتديات الأدبية

كانت قصة «مى» فريدة فى موضوعها، لم يتح لها أن تتكرر فى تاريخ الأدب العربى المعاصر، فهى مرتبطة أشد الارتباط بالنهضة الجديدة التى جاءت على أثر صيحة قاسم أمين حتى يمكن أن يقال ان «مى» فكرة أكثر منها أنثى، وعلامة من علامات الطريق أكثر من أنها كاتبة عاشت فى القاهرة، وكان لها صالون تستقبل فيه أعلام الأدب أمسيات الثلاثاء.

برزت فى الوقت الذى كانت المرأة فيه مازالت محجبة، وكان إلهامها لأرباب الفكر وأهل الأدب يكاد يكون معدوما ... فكانت «درة» مفردة، يلتقى فى مجلسها طه حسين والعقاد والزيات ومصطفى الرافعى، وإسماعيل صبرى ويعقوب صروف وولى الدين يكن.

ولعلنا لا نستطيع ان نخلى آثار هؤلاء الأدباء من طيف «مى» وروحها اللطيفة فقد أجمع هؤلاء جميعاً فيما كتبوا عن «مى» انها كانت محدثة لبقة موفورة الثقافة بارعة الحديث، سيدة صالون بحق، قد أعادت فى قاهرة المعز صورة مجددة من مجالس الولاّدة بنت المستكفى حيث كانت تثار بين يديها مسائل الفكر والأدب والشعر والفن وهى بشبابها وجمالها وعبقريتها تدير الحوار فى براعة، وتنقل المحدثين من فن إلى فن.

قرأت آيات الأدبين الفرنسى والعربى اذ فتحت عينيها على مكتبة والدها

الأديب الصحفى، وأكسبتها عاطفتها الحادة اتجاها فنيا فأنشأت لونا جديدا من الكتابة النسوية وأسلوبا يدل عليها وتعرف به فكان أدبها صورة نفسها فى أحزانها وأفراحها وآمالها وآلامها.

وكان أدبها إلى ذلك صورة الأدب النسوى العربى فى طوره الجديد بعد باحثة البادية وعائشة التيمورية، وقد كانتا شاعرتين أكثر منهما ناثرتين. ولذلك عدت «مى» الرائدة الأولى للأدب النسوى الخالص.

وقد أتاحت لها هذه الحرية فى الكتابة والحياة والانطلاق بيئتها اللبنانية الأولى التى تفتحت عليها نفسها وعواطفها، فهى قد ولدت فى الناصرة، وقضت أيام طفولتها فى كسروان وعين طورى، ثم جاءت إلى مصر فجمعت بين روح الجبل وروح النيل، وبين أدب الإنجيل وأدب القرآن، وبين بيان الضاد وبين الفرنسية، فكان لها من هذا كله مزاج جميل هو الذى أتاح لها هذا القلم الرشيق الأنيق وذلك اللسان اللبق البليغ وهما قلما يجتمعان لأحد إلا فى النادر فقد عرف ان الكُتاب البارعين لا يكونون محدثين إلا فى القليل.

ونحن إذا عدنا إلى «مى» وتصورناها تعيش فى القاهرة، وقد أخذت تذيع أدبها فى الهلال والمقتطف والأهرام وتفتح صالونها للأدباء والأقطاب رأيناها أشبه بروح جميل تنشر الضياء والشذى من حولها إلى كل مكان يمكن أن يصل إليه، وإلى أبعد مكان يمكن أن يصل إليه، فقد كان جبران خليل جبران يعيش فى المهجر ومع ذلك كان قلبه يفيض بلون من الحب الروحى الغامض لمى، وكان الرافعى وهو يعيش فى طنطا يحس أنه مرتبط الأواصر بها، بل إن الأمر ليبلغ بالرافعى حد أن تكون هذه الرابطة أعظم خطرا من علاقة صداقة مجردة، فقد لونت «مى» أدب الرافعى كله، وأثرت فى أيام حياته كلها منذ عرفها إلى أن قضى.

والحق أن «مى» قد أوحت إلى الكثير من الأدباء المعاصرين، وأمدت أدبهم بإلهامها وتركت روحها وراء كلماتهم.

ولكن «مى» التى كانت تلتقى بالأدباء وتفتح صالونها لأقطاب مصر ومفكريها كانت فى صميم حياتها الخاصة منطوية على نفسها، كانت حريصة على أن تعيش

طويلا فى «برجها» الخاص لا تبرحه. كانت محافظة كثيرة الحيطة والكتمان والاحتراس تؤثر الاعتكاف ولا تغشى دور اللهو ولا تشارك فى مرح الرجال.

ولعل مصدر ذلك غلبة الطبع الشرقى البعيد المدى، الذاهب فى جذور النفس، والذى لم تتخلص منه حين تخلصت من مظاهره، ولكنها إلى هذا كانت مصرة على أن يظل لها جوها الخالص، وكانت لا تقبل النصح أو التوجيه فى تغيير أسلوب الحياة، وفى رحلتها إلى أوروبا وعودتها كانت تعكف على نفسها وتنزوى فى ركن من أركان المركب، لا تشارك فى رقص ولا طرب ولا مرح.

إنها من هذه النفوس الحذرة المتشائمة المنطوية، التى استقبلت الحياة على صورة لم تسبقها إليها انثى فى زمنها، ثم مضت كالطير الغريب لم تستقر فيه على شجرة أو فنن.

كان الجو حولها على هدوئه صاخبا، هناك نفوس حيرى كانت تتصل بها وتكاشفها بالعاطفة، ونفوس أخرى طوت أضالعها على شوق أو إعجاب، وتلقت هى رسائل جبران وولى الدين يكن والرافعى وعشرات آخرين. ووجدت فى هذه الرسائل آمالا ومعانى تتصل بالنفس الشاعرة. وكتبت «مى» إلى هؤلاء ولكن إلى أى حد مضت هذه الخطوط؟

من أحبت «مى» صادقة من هؤلاء؟ وكيف رسمت فى نفسها صورة المستقبل؟ هذا هو الجانب الغامض فى حياة «مى» وهنا سر حياتها وموتها ومصدر أزمتها التى أنهت حياتها بمأساة.

هذه قصة حياة «مى» أما أدبها فقد كان لوناجديدا، ولا شك أن «مى» أنشأت مدرسة أدبية نسوية فى الأدب العربى المعاصر، تتلمذت عليها الكثيرات.

وأبرز ما يتميز به أدب مى هو الحزن العميق الذى يبدو من وراء هذه الصور الشعرية المشرقة.

كانت حياتها تجهما وعبوسا.. كانت حادة صارمة فلم يكن أدبها إلا وسيلة للتنفيس عن النفس المكتبئة على صورة تريح الأعصاب.

بدأت مى حياتها الأدبية بتحرير فصول فى جريدة أبيها «المحروسة» تحت عنوان «يوميات فتاة».. كان ذلك سنة ١٩١٥ ومن أجمل هذه الفصول مقال «غرفة فى مكتبة» تحدثت فيه عن فترة قضتها بين صور مشاهير الكتاب فى إحدى غرف الجامعة المصرية.

فى سنة ١٩١١ كانت تكتب بالفرنسية، غير ان بعض المحيطين بها نصحوها بدراسة اللغة العربية ومطالعة الكتابات العربية الفصحى ثم اخذت تقرأ ما يكتبه الكتاب حتى تكونت لها ملكة عربية شجعتها على الترجمة، فترجمت ابتسامات ودموع.. وغيرها.

«وبعد ذلك، بدأ يجتمع عندنا شبه «صالون أدبى» كل يوم ثلاثاء مكث أعواما تحت رئاسة المرحوم إسماعيل باشا صبرى فاقتبست منه تهذيبا عربيا بما كان يلقى فيه اثناء الحديث باللغة العربية الفصحى.

.. وقال لى الأستاذ لطفى السيد أثناء الحديث معى لابد لك يا آنسة من تلاوة القرآن الكريم، لكى تقتبسى من فصاحة أسلوبه وبلاغته، فقلت له: ليس عندى نسخة من القرآن، فقال، أنا أهدى لك نسخة منه، وبعث لى به مع كتب أخرى فابتدأت أفهم اتجاه الأسلوب العربى وما فى القرآن من روعة جذابة ساعدتنى على تنسيق كتابتى».

وفى خلال الحرب التحقت بالجامعة المصرية ودرست تاريخ الفلسفة وعلم الأخلاق على المستشرق دى جلارزا كما درست تاريخ الأدب العربى والدول الإسلامية ثم أمدتها الحركة الوطنية سنة ١٩١٩ باليقظة الأدبية والخلق الجديد.

وكان أول كتبها فى اللغة العربية عن «باحثة البادية» الذى صدر سنة ١٩٢٠.

لقد تركت «مى» عددا من المؤلفات والكتب والآثار المنشورة فى عدد من الجرائد والمجلات، وهى فى مجموعها تعطى صورة واضحة للأدب النسوى الجديد فى أولى صوره الكاملة.

وتعد «مى» بحق رائدة الأدب النسوى المعاصر، وما أظن إلا أن الكثيرات ممن جئن بعدها قد اتبعن طريقتها فى تصوير النفس ورسم صورة العاطفة، لقد كان أدب «مى» خالصا للفن لم تعتوره عيوب المناسبة السريعة أو النزعة الصحفية.

نجيب محفوظ

١٩١١ - ...م

أول من حصل على جائزة نوبل من الأدباء العرب

ربما يقول النقد والتاريخ الأدبى معاً إن الفن الروائى قد استنفد السيرة الذاتية لنجيب محفوظ، أى أن الكثير من صور حياته فى مراحلها المختلفة قد انتقلت إلى هذا الحد أو ذاك إلى ادبه، ومن ثم لم يجد داعياً لأن يكتب سيرة ذاتية مستقلة عن الأدب.

وربما يقال أيضاً إن نجيب محفوظ، الاجتماعى إلى اقصى حد مع أصدقائه وزملائه ومعارفه فى المقاهى والندوات الضيقة والمكتب هو فى الحقيقة رجل محافظ لا يدخل بيته أحد، وبالتإلى فهو لم يكتب سيرته الذاتية لأنه لا يرغب فى إطلاع الآخرين على تفاصيل حياته.

ولد نجيب محفوظ عام ١٩١١ أى فى حقبة شهدت اكتمال تحول القاهرة من مدينة قديمة كانت لا تزال محتفظة بطابع العصور الوسطى إلى مدينة حديثة أوروبية الطابع.

وتبع ذلك إنشاء أحياء سكنية جديدة وظهور مناطق جديدة للسكن مثل منطقة الحلمية الجديدة والعباسية وتبع ذلك التغير الجغرافى توزيع شبه طبقى فقد بدأت الأسر الثرية تنتقل إلى الامتدادات الحديثة وكانت الجمالية فى القرون الوسطى مقرا لسكن الأمراء والطبقة الوسطى وأيضا الحرفيين والعمال وكانت مقسمة إلى خطط وحارات ودروب وأزقه وعطف وكانت الحارة تطلق على اسم منطقة متكاملة

تضم عدة أزقة ودروب وكانت أيضا تضم عدة مستويات اجتماعية مختلفة.

ولكى تظل الحارة هى محور ما كتبه من أعمال عبر سيرته الطويلة غير أن الحارة فى روايته تتخذ أبعادا أخرى لتصبح ملخصا للعالم كله.. فهو لم يصور الحارة تصويرا فوتوغرافيا سطحيا إنما يمكن القول أنه استوعب جيدا عناصرها ثم عكسها واعاد ترتيبها من جديد خلقها مرة أخرى ولذلك تتضمن حارة نجيب محفوظ مستويين الأول واقعى والثانى رمزى فلسفى، فالحارة أو ملامح القاهرة القديمة خاصة فى زقاق المدق وخان الخليلى والثلاثية محددة الملامح، الوصف الفنى مطابق تماما للوصف الواقعى ولو تتبعنا حركة الشخصيات فى هذه الروايات سوف نجدها تتحرك فى المكان نفسه ما من خطأ فى الوصف الدقيق حتى يمكن بحق اعتبار هذه الأعمال تسجيلا أمينا لمعالم المكان خاصة فى الزمن الذى دارت فيه الأحداث أنه يصف مثلا مقهى سى عبده الذى كان يقع تحت الأرض وتوجد به نافورة وكان على مقربة من ضريح مولانا الحسين.. هذا مقهى حقيقى تماما أزيل.. فى زقاق المدق لا يزال المقهى قائما ودكان العطارة.. ودكان الحلاق.. إلا أن انشغال كاتبنا بالمصير الإنسانى وبتطور الزمن وتتابعه تتخذ الحارة أبعادا أشمل لتصبح رمزا للعالم ولكن هذا الرمز يتجسد أكثر فى رواية أولاد حارتنا التى تعتبر من أعماله الفذة بحق.

وفى أولاد حارتنا تطالعنا حارة أخرى لا تحمل لافته تشير إلى مكان واقعى.. حارة لها مفرداتها المستوحاة من الواقع ولكن صيغت من جديد وفقا لرؤية الكاتب.. ستجد البيوت المتجاورة وشجر اللبلاب والمقاهى والقبو والخلاء والتكية التى تتصاعد منها أناشيد الدراويش الغامضة المبهمة حيث الرجال قابعون يذكرونه دائما أحيانا فيظهرون واحيانا يحتجبون ولكن يظل الإحساس بهم بوجودهم دائما أما الخلاء أو جبل المقطم فهو نهاية هذا كله نهاية المكان وليس نهاية الحياة المتصارعة والأجيال المتعاقبة.. فداخل الحارة ذاتها تتوإلى الأيام ويتعاقب الزمن أحد الهموم الرئيسية لنجيب محفوظ.

تظهر شخصيات وترحل شخصيات ويختفى البعض إلى الأبد وتنشب خناقات وتشج رؤوس ويحل الجيل مكان الجيل ويتوه الشيخ متولى عبد الصمد بعد أن بلغ

من الكبر عتيا فلا يعرف أقرب الناس إليه ويتساقط فتوات الزمن القديم. إنها صورة مضطربة لهذه الدنيا وعبقرية كاتبنا الفذ أنه نفذ إلى صميم المكان والزمان فجعل من حوارى القاهرة رمزا وملخصا ليس لعالمنا فقط ولكن للكون كله.

البيت والحارة والمدرسة، عناصر «البيئة» الأولى التى عاشها فى طفولته بين اللعب واحترام الكبار ومظاهرات ثورة ١٩١٩. وبقيت الحارة فى أدب محفوظ وخياله، بأعيانها وفقرائها وفتواتها وتجارها وكأنها «ثقب الإبرة» الذى يرى منه هذا الكاتب العالم، وفيه يضع الخيط الذى ينسج به رؤياه.

والدته على عكس «امينة» فى الثلاثية هى التى خرجت به إلى الدنيا وزار برفقتها الكثير من معالم القاهرة. وكان والده هو الذى عرفه على سعد زغلول ومصطفى كامل ومحمد فريد، ولكن الحماس الأكبر والحرارة السياسية القصوى كان مبعثها اسم سعد زغلول، كانت حياة الأسرة طبيعية، لم تعرف تعدد الزوجات ولا إدمان الخمر أو القمار أو المخدرات. بل كان الأب يعرف المويلحى معرفة شخصية. وكان كتابه هو الكتاب «الأدبى» الوحيد، وسواه كان هناك القرآن فقط، فالثقافة هى «الدين» فى البيت. وكانت الأسرة قد انتقلت عام ١٩٢٤ من الجمالية إلى الحى الأرقى: العباسية. ولكن هذا الانتقال لم يمح الجمالية من ذاكرة محفوظ، بل كان الحى العتيق يشده إليها فتى وشابا وكهلا. بل إنه عمل موظفا فى حى الجمالية حين انتقل إلى مكتبة الغورى فى أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات. وفى هذه الوظيفة قرأ أكثر وأكبر وأهم الكتب.

ولكن «شلة العباسية» هى التى رسخت فى حياة نجيب محفوظ، وظلت علاقته بها إلى وقت قريب. ولم يكن فى الأسرة بالطبع من يستطيع مساعدته، فعانى كثيرا منذ اطلع من أحد اصدقائه على رواية عنوانها «ابن جونسون». كان ما يزال تلميذا فى الثالثة الابتدائية. وبحث عن سلسلة «جونسون» هذا فقرأها كلها بمتعة كبيرة. كانت أول روايات يقرأها فى حياته، وكان قد بلغ العاشرة من عمره. وقد توهم فى ذلك الوقت أن هذه الروايات هى حقائق، فكان يبكى ويضحك ويحزن لمصائر الشخصيات حسب الأحوال المتغيرة. وفى هذه المرحلة كان يعيد كتابة الرواية ويكتب

اسمه عليها. وحين كبر كان العقاد وطه حسين وسلامة موسى هم الذين تناوبوا على عقله ووجدانه، وأوقعوه فى تلك الحيرة العنيفة بين الأدب والفلسفة. كانوا هم أنفسهم من المفكرين، رغم أنهم جميعاً كتبوا القصص والروايات. ولكنه حوالى عام ١٩٣٠ قرأ كتاب درنك ووتر فى تاريخ الأدب. وكان هذا هو الكتاب الذى ارشده إلى الأدباء العالميين..

فى عام ١٩٤٣ بدأ نجيب محفوظ ينشر مؤلفاته مقابل أجر.

أما الخطوة الثانية فجاءت. وكان محفوظ قد أنتهى من كتابة ثلاثية «بين القصرين» فى أبريل عام ١٩٥٦.

كانت هذه الخطوة الثانية لنجيب محفوظ فى طريق الانتشار الواسع. أما الخطوة الثالثة فقد بدأت بنشر «أولاد حارتنا» وما تلاها فى جريدة «الأهرام». وأما الخطوات الرابعة والخامسة والسادسة وبقية الخطوات، فقد أنجزتها السينما والاذاعة والتليفزيون بإخراجها معظم أعمال نجيب محفوظ على الشاشتين الصغيرة والكبيرة ووراء الميكروفون.

الإبداع الفنى فى أدبه

يعد نجيب محفوظ، بلا منازع، اشهر روائى مصرى معاصر، بدأ حياته الأدبية فى سن العشرين سنة ١٩٣١، بكتابة المقالات الاجتماعية والفلسفية. وقد استمر هذا الإنتاج فى المجلات المختلفة إلى نهاية الأربعينات أثناء اتجاهه إلى التاريخ المصرى القديم، حيث قدم ثلاث روايات هى: «عبث الأقدار» ١٩٣٩، «رادوبيس» ١٩٤٣، «كفاح طيبة» ١٩٤٤.

ولكنه لم يلبث ان انتقل، دفعة واحدة، إلى «القاهرة الجديدة»، وهى اسم الرواية التى صدرت له فى العام التالى، ١٩٤٥، مقتحما بوعى كبير أحياءها الشعبية، ومشاكلها الاجتماعية، فى مرحلة من مراحل الشقاء واليأس والظلم، التى تضافر فيها الاستعمار مع الرجعية فى تمزيق الواقع المصرى.

أما بالنسبة للأسلوب أو الشكل فكان الاهتمام منصبا على التفاصيل

والجزئيات، سواء فى البعد الواقعى أو البعد النفسى، على نحو ما نجد بجلاء فى ثلاثية «بين القصرين» ١٩٥٦، «قصر الشوق» ١٩٥٧، «السكرية» ١٩٥٧، التى احتشدت بالشخصيات، أو روايته التحليلية السابقة «السراب» ١٩٤٨، التى توغل فيها فى أحراش النفس، متأثرا فيها بقراءاته فى علم النفس من جهة، وبرواية «سارة» للعقاد من جهة أخرى.

ثم تلا هذه المرحلة الطبيعية فى أدب نجيب محفوظ، التي غلب عليها المسح الاجتماعى، مرحلة جديدة فى الكتابة، تمثل نضج الكاتب الحق، بدأت برواية «أولاد حارتنا» التى لم تنشر فى كتاب الا سنة ١٩٦٧، وبدت أوضح ما تكون فى «اللص والكلاب» ١٩٦١ و«السمان والخريف» ١٩٧٢، «الشحاذ» ١٩٦٥، «ثرثرة فوق النيل» ١٩٦٦، بالإضافة إلى قصصه القصيرة التى جمعت فى «دنيا الله» ١٩٦٣، و«بيت سئ السمعة» ١٩٦٥.

فى هذه الأعمال وما بعدها لم يعد الكاتب مشغولا بظواهر الوجود، بل بالوجود فى ذاته، واصبح البناء الفنى لأعماله يخضع لأفكار الكاتب وانفعالاته إزاء الحياة والعصر، ولا يتحقق الاتجاه للواقع، وبمعنى أدق الوجود فى زمن، إلا بالقدر المحدود الذى يجعل منه وسيلة لإحكام التعبير الدرامى عن هذه الأفكار والانفعالات المجردة، حيث تغنى اللمحة الخاطفة عن التفصيل، أو الجوهر عن العرض، دون ان يطغى الواقع على الفكر، أو يطمس الفكر الواقع.

ومن يطالع هذه الأعمال يجد أن الأحداث تقل، والشخصيات تختصر إلى الحد الأقصى. ولا يلتزم المؤلف بالتسلسل الزمنى، كما فى الرواية الواقعية، التى يخاطب فيها الحرف الحواس، وإنما يحلق الكاتب فى الكليات، فى السموات الفلسفية، فيما وراء الواقع إن جاز التعبير، مستخدما الرموز على أكثر من مستوى.

قد يكون الرمز، فى دلالته الكامنة، البحث عن الله، من لحظة الميلاد إلى لحظة الموت، من خلال بحث الابن عن أبيه فى رواية «الطريق» ١٩٦٤. يؤكد هذا المعنى بعض الخيوط المتناثرة فى الرواية التى تصف هذا الأب بأنه لا حد لنفوذه - تهتز الدنيا لدى محضره - رحمته لا تنفد، وهى صفات تتجاوز بالطبع قدرات البشر.

وعلى نفس هذا الغرار يرمز أولاد الحارة أنفسهم إلى تاريخ البشرية، منذ آدم وحواء، وتنطلق المآسى التى يتعرضون لها مع ما حفل به التاريخ من مطامع، ومن أجيال اجهضت، بسبب الحروب الطاحنة.

ومع هذا فيمكن أن نجد فى المرحلة الواقعية بعض بذور هذه الأبعاد الميتافيزيقية، التي تبلورت فيما بعد، ممثلة فى شخصية السيد أحمد عبد الجواد، الذى يتسم بملامح الجبابرة، كما يمكن أن نرى فى هذه المرحلة الواقعية نفسها بقايا من الرصد التاريخى الدقيق، انحدرت من المرحلة الأولى.

يتجلى فى هذه المرحلة المتأخرة فى أدب نجيب محفوظ تأثره بصفة خاصة بالفلسفة الوجودية، التى تعبر عن يأس الإنسان العميق، وشعوره المتفاقم بالوحدة والغربة، والجنوح إلى التشاؤم، إلى جانب انتفاعه بكل التيارات الفنية الحديثة، من العبث. إلى اللامعقول.. التى تحطم الأشكال التقليدية فى الرواية.

أما اللغة فترف بالشاعرية المكثفة، التي تحوى فيها العبارات القصيرة الخاطفة عوالم بأكملها..

وأدب نجيب محفوظ، فى النظر الكلى، مجموعة غنية من الأنماط البشرية، ومن التيمات الأساسية، وإن فاضت بالتفريعات والتنويعات المختلفة النامية.

ونجيب محفوظ، كما يتبدى من إنتاجه الذى يتناول مشكلات اجتماعية وفكرية هامة، كاتب أصيل شجاع، ومواطن شريف، واجه بجلد، فى بداية حياته الأدبية وعلى مدى طويل، تجاهل النقاد التام لأعماله، وظل يتقدم إلى القراء بأعماله الجادة الواحدة بعد الأخرى سنين عديدة، إلى ان اعترفت به الحركة الأدبية برمتها، وتبوأ مكان الصدارة فى مجال الرواية على مستوى العالم العربى.

ويفوق ما كتب عن نجيب محفوظ من مقالات ودراسات ما كتب عن أى كاتب عربى آخر من المعاصرين. ذلك أن إبداعاته لا تقف عند حدود ما، سواء من ناحيتها الفنية، التى يرتفع فيها الاداء إلى إعلى درجات الشاعرية والبناء المحكم، أو مضمونها الفكرى المتصل بصراعنا الاجتماعى والسياسى المتقدم، الذى تعطى رواياته صورة واضحة شاملة عن تياراته فى غضون القرن الماضى، تتنبىء عن رؤية نافذة، تحيط بالظاهر والمضمر فى الحياة والنفس..

من الجمالية إلى نوبل

هل كنا نحتاج إلى جائزة نوبل حتى نعترف لأنفسنا بالعالمية؟

أم العكس، كانت الجائزة باحتياج حقيقى إلى أمثال نجيب محفوظ حتى تعترف لنفسها بالإنسانية؟

نخدع أنفسنا إلى غير حد إذا جرفنا الغضب أحيانا من الطابع السياسى لجائزة نوبل إلى حد القول بأنها فقدت قيمتها.. فرصيدها من عظماء الضمير البشرى مازال يجعل منها «معيارا» يخطئ ويصيب، ولكنه معيار العطاء الإنسانى الذى يقدمه العلم أو الأدب أو السياسة فى عالمنا.

وفى هذا الإطار نقول نعم، كنا بحاجة إلى جائزة نوبل حتى نعترف لانفسنا بالعالمية، وحتى تعترف الجائزة لنفسها بالانسانية.

اعترافنا لأنفسنا يختلف كليا عن اعتراف الآخرين بنا، فالثقة بأننا جزء من العالم، من همومه العميقة وأشواقه وطموحاته من الكنوز النادرة التى تتأسس فى حال الحصول عليها قدرتنا فى شحذ ملكاتنا وأحاسيسنا حتى «نعطى» أقصى ما فى طاقاتنا الخبيئة من خصوبة ورؤًى. أما اعتراف الآخرين بنا، فهو تال لاعترافنا بأنفسنا.

من هنا، فحصول نجيب محفوظ على الجائزة يعنى ضمن ما يعنيه أن الإبداع الثقافى لمصر وللعرب يملك ما يعطيه للعالم ويستحوذ على كل المؤهلات التى تزكيه لأن يكون جزءا لا يتجزأ من «إنسانية» هذا العالم.

ونجيب محفوظ الذى كشف للعالم أن إبداع مصر العربى هو احد ينابيع القيّمة والمعيار، جسد فى الوقت نفسه أننا من هذا المكان وفى هذا الزمان رغم كل ما يعتورنا من نقص وضعف جزء لا ينفصل عن الضمير البشرى العام والحضارة الانسانية المعاصرة.

وهكذا يجوز لنا القول أن نوبل قد فاز بجائزة نجيب محفوظ الذى أعاد إلى الضمير الأدبى للعالم، احد موازينه المفقودة.

النديم عبد الله

١٨٤٥ - ١٨٩٦م

الخطيب البارع ورائد من رواد الصحافة العربية

من حق عبدالله نديم أن يعرف له مكانه من تاريخ الخطابة فى مصر. فقد كان فيها رائداً عرف فضلها، والتفت إلى قيمتها فى الحياة العامة، فدعا إلى الاهتمام بها، وكان هو من فرسان حلبتها، بل كان سيد المنابر فى عصره. عرف له رجال الثورة العرابية خطره فحشروه فى زمرتهم، ووجد هو فيها مجالا يوافق طبيعة نفسه فأصبح خطيب الثورة ولسانها الناطق، حتى اقترن بها اسمه، واكتوى بنارها، وقضى حياته مغامراً، فكانت أيامه سلسلة من الكفاح الذى لا يعرف الهدوء، والجهاد الذى لا يعرف الاستسلام، وكأنما كانت نفسه ترتاح لمقارعة الخطوب ومصارعة الأحداث.

ولد عبد الله بن مصباح بن ابراهيم فى الإسكندرية فى العاشر من ذى الحجة سنة ١٢٦١هـ (١٨٤٥م) وكان أبوه من مواليد الشرقية وغادرها إلى الإسكندرية ليعمل نجارا للسفن بالترسانة، ولكنه لقى المتاعب من الرؤساء فترك عمله، واتخذ لنفسه مخبزاً لصنع الخبز وبيعه، وأعانه ذلك على الحصول على قوته وقوت أولاده، ولم يكن ذلك بالكثير.

هكذا نشأ «النديم» فى أسرة تعيش على الكفاف، وأرسله أبوه إلى الكُتاب كما يفعل الناس من مثل طبقته يرسلون أولادهم إلى الكُتاب زمناً ما، فإذا اشتد ساعدهم، أخذوهم إلى دكاكينهم فى مثل صناعتهم التى تتوارث كما يتوارث المال.

ولكن النديم تفوق فى الكُتاب، وظهرت عليه سمات النبوغ فأراد أن يستمر فى دراسته، ولم يمانع أبوه، ففكر فى إرساله إلى الأزهر ولكن ضيق ذات إليد جعله يكتفى بإرساله إلى مسجد الشيخ إبراهيم باشا، وكان هذا المسجد فى الإسكندرية صورة مصغرة من الازهر يدرس فيه المشايخ ما يدرس فى الأزهر، ولم ترض تلك الدراسة الجافة النديم، فسرعان ما ملها وازداد إعراضه عنها يوما بعد يوم، وكانت نفسه ميالة إلى الأدب إذ وهب له الله بديهة حاضرة وميلا إلى نظم الشعر والزجل، فأخذ يغشى مجالس الأدب ويخالط فيها الأدباء ويستمع إليهم وهو يرنو إلى ذلك اليوم الذى يصبح فيه أديباً مثلهم، وكانت له حافظة قوية إلى جانب بديهته الحاضرة وحسه المرهف مما ساعده على حفظ الشىء الكبير إلى أن تبلورت شخصيته ووجد فى نفسه القدرة على نظم الشعر والزجل وتحرير المقالات.

بيد أن الأدب ليست مهنة تدر الربح وتقيم الأود، وسرعان ما وجد النديم نفسه مرغما على صناعة تكفل له الرزق، فتعلم فن الإشارات التلغرافية، واشتغل بمكتب التلغراف ببنها، ثم نقل إلى مكتب القصر العالى حيث تسكن والدة الخديو إسماعيل، وكان قصرا ضخما يقع على النيل فيما يسمى الآن «بجاردن سيتى». وقد عاش النديم فى ربوعه فترة تعلم فيها كيف يعيش الأمراء والسادة، كما تعلم في بيته بالإسكندرية كيف يعيش الفقراء والأقنان، مما كان له أثر كبير فى صقل نفسه وتوجيهها الوجهة الشعبية التي قدر له أن يتبعها فى مستقبل حياته.

وعاد إليه فى القاهرة شوقة إلى الأدب ومجالس الأدباء، وكان حظ القاهرة فى ذلك أوفى، ففيها مثلا مجلس محمود سامى البارودى، وكان مجلسا عامرا يعرض فيه الأدب القديم والحديث على السواء، ونقد هادف لهذا وذاك، يتخلله نوادر فكهة، اتصل النديم بهذا المجلس وأمثاله، وتوثقت الصلة بينه وبين كثير من أدباء مصر اذ ذاك.

فأتم على هؤلاء الأدباء وأمثالهم دراسته، وارتوى من ينابيعهم وازداد عن طريقهم معرفة الأدب.

وفى سنة ١٨٧٩ عاد النديم إلى الأسكندرية، وقد صهرته الأيام فى بوتقة

التجارب فأصبح أكثر خبرة بالدنيا، عاد النديم إلى الإسكندرية فوجدها قد تغيرت، كانت المجالس الأدبية يوم تركها تتحدث فى غزل أبى نواس، ووصف البحترى، وهجاء ابن الرومى ومديح الشعراء فى الخديو إسماعيل، وفكاهات الشيخ على الليثى.. ولكنه وجد المجالس يوم عاد تتحدث فى حالة البلاد ووقوعها فى أسر الدَّيْن، فاضطربت الحالة الاقتصادية، وأرهقت الضرائب الناس. وأحس النديم أن الموقف يتطلب منه التدخل، فلا بد من مشاركة الناس فى آمالهم وآلامهم، والتفكير فى العثور على مخرج للبلاد مما هى فيه من فوضى واضطراب، ورأى جمعية «مصر الفتاة» يجتمع اعضاؤها فينقدون هذا كله فى وضوح وصراحة، واجتمع النديم ببعض أصدقائه ممن يلمس فيهم الإخلاص والرغبة الصادقة فى العمل لصالح البلاد، وكان من بين هؤلاء نائب رئيس جمعية «مصر الفتاة» وكاتم أسرارها، وعن طريقها تعرف على أديب إسحق وسليم النقاش صاحبى جريدتى مصر والتجارة، كما تعرف بكثير من أعضاء الجمعية، وكانت تلك هى الخطوة الأولى التى خطاها للدخول فى معترك السياسة، ووجد النديم أن الأدب الذى كان يعشقه لم يعد مناسبا فقد كانت تعاليم جمال الدين الأفغانى قد سرت فى النفوس ووجدت صدى عميقا يتردد فى المقالات السياسية والنقدية. وأخذ يغذى الصحف بمقالاته مشاركة منه فى علاج الموقف المتأزم.

وفكر مع بعض أصحابه من أعضاء جمعية مصر الفتاة أن يحولوها من جمعية سرية إلى جمعية علنية تعمل جهارا وفى وضح النهار فى الأعمال المشروعة، وسموها الجمعية الخيرية الإسلامية، وهى غير الجمعية القائمة الآن بهذا الاسم، وكانت تستهدف تربية النشء، وبث روح المعارف بينهم، حتى ينشأ فى البلاد جيل جديد ينهض بالبلاد نهضة كبيرة، فقد كان النديم يؤمن كل الإيمان بأن العلم هو السلاح الذى تستطيع الأمة به أن تتبوأ به مكانا سامياً بين الأمم.

وأنشأت الجمعية مدرسة وعين النديم مديرا لها. وافتتحها بخطبة رن صداها فى الإسكندرية، وكان ذلك فى آخر أيام إسماعيل وأقبل عليها كثير من أبناء الشعب، ووضع لها برنامجا يحقق الهدف المنشود، وتكفل هو بتعليم الإنشاء فيها والأدب، وأخذ يمرن الطلبة على الخطابة والتمثيل حتى نبغ فيهما الكثيرون.

وألف النديم روايتين اسمهما «الوطن وطالع التوفيق» و«العرب» ومثلهما هو وتلاميذه على مسرح «زيزينيا» بحضور الخديو توفيق. ونجح فيهما نجاحا باهرا أعلى ذكره. ولكن هذا النجاح أوغر عليه صدور حساده فنسبوا إليه أخطاء ظهرت فى الجمعية الخيرية الإسلامية، ففصل من المدرسة ومن الجمعية.

عندئذ اتجه النديم إلى إنشاء صحيفة، أسماها «التنكيت والتبكيت» وفى هذا الاسم دلالة على هدفة وأسلوبه. فهو يستهدف تأنيب المصريين على ما وصلوا إليه فى أسلوب قد يكون لاذعاً، وقد يكون مضحكا.

ثم أنشأ مجلة الأستاذ «جريدة علمية تهذيبية فكاهية» التى اهتمت بنقد العيوب الاجتماعية فى المجتمع المصرى وكانت تحرر باللغة العربية الفصحى فى المقالات السياسية الإصلاحية وباللغة العامية فى الموضوعات الاجتماعية.

سافر النديم إلى يافا، حيث كان قبل العفو عنه، ورتبت له الحكومة المصرية خمسة وعشرين جنيها شهريا يعيش بها على شريطة ألا يكتب عن مصر شيئا، وما لبث أربعة أشهر حتى وشى به الوشاة بأنه يطعن فى سياسة الدولة العلية، فصدر أمر السلطان بإبعاده ويعود إلى الاسكندرية حائرا لا يدرى أين يتجه، ويقيم بضعة أيام لدى الغازى المختار باشا المندوب السلطانى العالى يشكو إليه أمره، فساعده مختار باشا وأرسلة إلى الآستانة بتوصية، وعين النديم هناك مفتشا للمطبوعات، وجد النديم نفسه فى قفص من ذهب، فهو رقيب للمطبوعات، وكان حر القلم لا يؤمن بالرقابة وهو بعيد عن الناس لا يكتب ولا يخطب. ولكن هل للقلم الثائر أن يغمد، واللسان الذرب أن يصمت؟ إنه لم يعرف للهدوء طعماً فى جميع مراحل حياته، لقد وقع فى خصومة مع أبى الهدى الصيادى، وكان سورياً تقرب إلى السلطان عبد الحميد واستأثر بالحظوة لديه وأصبحت له الكلمة المسموعة فى البلاد، وهو عدو كل إصلاح. والنديم لا يخشى بأس الرجل فوضع فيه كتابا سماه «المسامير» لم ينشر فى حياته، استعمل فيه أسلوبا وضيعا وهجا فيه خصمه هجاء مقذعا، وبلغ أبا الهدى أمر الكتاب فأبلغ السلطان عبد الحميد أن فيه أيضا هجاء له، فبحث عنه طويلا ولكن دون جدوى، واستطاع «جورج كرتش» الذى كان متصلا

بالنديم أن يحتفظ به ويخفيه ويفر به إلى مصر ثم يطبعه.

ولم يعمر النديم بالآستانة طويلا فقد استشرى فى جسمه (داء السل) ولم يطل مرضه، فمات فى العشر من أكتوبر سمة ١٨٩٦، واحتفل بمشهده احتفالا كبيرا سار فيه علية القوم وعلى رأسهم جمال الدين الأفغانى، ودفن فى مقبرة يحيى آفندى باشكطاش بعيدا عن الأهل والوطن، ودفن منه الجسد ولكن روحه ستظل أبدا ترفرف فوق أرض مصر تمجد الأحرار المناضلين عن حقهم فى الحرية والكرامة.



الهمذانى

٩٦٩ - ١٠٠٨م

صاحب المقامات البديعية

هو ابن الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمذانى المشهور ببديع الزمان. ولد فى همذان.

ويبدو أن أول من أطلق عليه لقب الهمذانى الإمام أبو منصور الثعالبى: «وهو أحمد بن الحسين بديع الزمان ومعجزة همذان ونادرة الفلك وبكر عطارد، وفرد الدهر، وغرة العصر، ومن لم يلق نظيره فى القريحة، وسرعة الخاطر».

ومن رسائله نفهم أنه من أسرة عربية استوطنت ديار العجم. وهو شديد التعصب للعرب على غيرهم.

ومن يتصل بنسبة إلى قبيلة مضر، وبنشأته إلى فارس لا شك سيكون نابغة عصره وزمانه. فبديع الزمان ورث الخلق العربى وعاش به فى بلاد العجم فظهرت عبقريته الخارقة وذكاؤه الوقاد، بالإضافة إلى تمازج واختلاط وتزاوج بين آبائه وأجداده العرب بين عائلات الفرس فى تلك المنطقة العجمية، كما أن أخاه الحسين ابن يحيى كان مفتى البلدة.

اهتم أبوه بتعليمه وتثقيفه فاختلف إلى دروس العلماء والأدباء فى بلدته، وتلقى على أيديهم العلوم الدينية واللغوية والأدبية.

كان معلمه الأول أبا الحسن أحمد بن فارس الأديب الكبير واللغوى العظيم فى

عصره، وقد تتلمذ بديع الزمان عليه ونهل من فيض علمه. كما تتلمذ على ابن بكر الفراء. وتعلم دراسة الحديث والرواية.

وبقى يختلف إلى حلقات هذا الأستاذ المشهور وغيره، حتى أتم دروسه وتحصيله من اللغة والشعر والنثر.

والأمر الذى لا شك فيه أن بديع الزمان لم تكن ثقافته عربية فقط بل كانت عربية وفارسية. وهذا التضلع فى الفارسية وآدابها أسدى إليه أكبر فائدة فى انتاجه العربى.

وما كاد يبلغ الثانية والعشرين من عمره حتى فارق مسقط رأسه همذان فقدم على الصاحب بن عباد فى الرى.

فأعجب الصاحب بذكائه وقدمه فى مجلسه وقربه منه ورأى فيه ذكاء شديدا وذاكرة قوية. ولعل هذا الذى حمل معاصريه أمثال الثعالبى على القول فيه: «هو من لم يلق نظيره فى ذكاء القريحة وسرعة الخاطر، وشرف الطبع وصفاء الذهن وقوة النفس ومن لم يدرك قرينه فى ظرف النثر، وملحه غرر النظم ونكته، ولم ير ولم يرو ان أحدا بلغ مبلغه من لب الأدب وسره، وجاء مثل إعجازه وسحره، فإنه كان صاحب عجائب وبدائع وغرائب».

لكن أواصر المودة اضطربت بين بديع الزمان والصاحب بن عباد وقد يكون مزد ذلك إلى الحسد. ولعل الصاحب تخوف من البديع. وهو المحدث اللبق فخاف على منزلته الأدبية من أن يصبح الهمذانى محور الحلقات والمجالس.

فما كان من بديع الزمان إلا أن اتجه إلى جرجان وهى بلدة مشهورة بالعلم والمعرفة، ففيها نشأ عبد القاهر الجرجانى صاحب دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة.

ولكن إقامة بديع الزمان فى جرجان لم تكن طويلة لخلاف نشأ بينه وبين أحد الإسماعيليين، فاتجه إلى نيسابور وهى تعد من أحسن مدن خراسان، وكانت مجمع العلماء والفضلاء حيث يأتون إليها من كل صوب.

وكان لبديع الزمان معركة أدبية مع شيخ كُتاب عصره أبى بكر الخوارزمى

الأديب الذائع الصيت الذى طرقت آدابه أسماع الناس برسائله وشعره، وكان بديع الزمان شديد الرغبة فى الاتصال به راغبا فى علمه. فكتب له رسائل فى هذا الموضوع. وقد دخل البديع إلى نيسابور رث الثياب خالى اليدين بعد أن سطا عليه اللصوص فى الطريق وسلبوه ما يملك.

وعندما التقى البديع بالخوارزمى لم يهتم به هذا ولم يحسن لقاءه كما أنه لم يعجب بكبريائه. فحصلت بينهما جفوة ومقاطعة وبغضاء واستغل بعض الناس هذه العداوة، فهيأوا لذلك مناظرة استعمل فيها بديع الزمان قريحته وسرعة بديهته، فبدا الخوارزمى منهزما أمام الناس!.

لمع أسم بديع فى نيسابور بعد المناظرة وذاع صيته فى الآفاق وأصبح له تلامذة كثيرون فأملى عليهم مقاماته المشهورة، حيث اصطنع فيها الأساليب المنمقة من سجع وتنميق. ولكنه لم يلبث أن ترك نيسابور رغم اشتهاره بها وعلو مكانته. فاتجه إلى سجستان وكان حاكمها فى ذلك الوقت الأمير خلف بن أحمد فلقى منه البديع كل تكريم فمدحه بقصائد وبست مقامات أشاد فيها بكرمه. ثم عاد يطوف فى البلاد حتى استقر فى هراة «وهناك تزوج فيها من ابنة ابن على الحسين بن محمد الخشنامى، أحد أغنيائها وساداتها وأنجب أولادا واقتنى مالا وضياعا».

صفاته واخلاقه

وصفه الثعالبى فى يتيمة الدهر، فقال: «مقبول الصورة، خفيف الروح، حسن العشرة، ناصع الظرف، عظيم الخلق شريف النفس، كريم العهد، خالص الود، حلو الصداقة، مر العداوة».

وكثرة أسفاره تدل على طموحه لتوطيد المجد وبناء الشهرة. وقد اجتمعت فيه الصفتان: طالب علم وطالب مال.

ولم يكن الدهاء ينقص الهمذانى، فهو واسع الحيلة وكان فى كل مقال يمزح ويتهكم، فهو أنانى والويل لمن يفضل الخوارزمى عليه.

كان سريع الحافظة: «انه كان ينشد القصيدة التى لم يسمعها قط وهى أكثر

من خمسين بيتا فيحفظها كلها ويؤديها من أولها إلى آخرها لا يخرم حرفا ولا يخل بمعنى. وينظر فى الأربع والخمس أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ثم يهذها عن ظهر قلبه هذا ويسردها سردا. وهذه حالة فى الكتب الواردة عليه وغيرها. وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو إنشاء رسالة فى معنى بديع وباب غريب فيفرغ منها فى الوقت والساعة والجواب عنها فيها».

مؤلفاته:

مؤلفات البديع ثلاثة أنواع:

١- أولها ديوان شعر.

٢- ثانيها مجموعة رسائل.

٣- ثالثها: المقامات المشهورة وهى اثنتان وخمسون مقامة.



هيكل، محمد حسين

١٨٨٨ - ١٩٥٦م

الكاتب السياسى وصاحب أول رواية مصرية

الأديب الكبير النابه يترك بصماته على عصره، ويشغل الحياة الأدبية والفكرية بنتاجه وإبداعه، ويخلف وراءه تراثا أصيلا باقيا يثرى وجدان الأجيال، ولم يكن صاحب هذه السيرة أديبا مبدعاً فحسب، بل كان كذلك سياسيا كبيرا عايش كل الأحداث الخطيرة التى مرت بها مصر خلال أكثر من خمسين عاما، وكان له دور إيجابى مؤثر فى مسيرة الحياة السياسية فى مصر.. إنه الأديب الكبير.. والمفكر النابه.. والباحث العظيم.. وأبو القصة المصرية.. والسياسى المحنك.. والصحفى العملاق.. الدكتور محمد حسين هيكل.

هذا كاتب وأديب اختطفته السياسة ولم يسترده الأدب مرة أخرى سوى أنه أذاع مذكراته السياسية فى خلال هذه الفترة.

وكاد أن ينطوى فى تاريخ الأدب المعاصر، الأديب الذى عرف بالإسهاب والمقالات المطولة فى صدر «السياسة الأسبوعية» زمنا.

فقد بدأ حياته بالمحاماة ثم أحب الأدب واتجه إلى الصحافة حينا فاستقر بها طويلا، وأنتج خلال هذه الفترة آثاره الأدبية المعروفة الآن، ثم انصرف إلى التاريخ، وأغرم بالتاريخ الإسلامى بوجه خاص، وأتيح له خلال هذه الفترة ان يجلى تاريخ الرسول ﷺ وأن يوغل في دراسة الدولة الإسلامية وأبطالها.

وفجأة توقف، فقد انتقل من الصحافة إلى السياسة، واتيح له ان يرأس مجلس الشيوخ بعد أن كان يرأس تحرير صحيفة يومية.

واستنزفت السياسة بصراعها ومناوارتها ومتاعبها قواه كلها، فتوقفت آثاره التى كان قد بدأها عن الإتمام، فلم يكتب ولم يكمل «الشرق الجديد» ولا تاريخ السيرة.

ولكن «هيكل» يريد أن يقول لنا فى أكثر من مناسبة: إنه لم يكن أديبا ولذلك فلا ضير عليه أن ينصرف عن الأدب يوما.

«.. وما أضيق بأسلوب ولم أتخذ الأدب يوما صناعة ولا أنا توفرت على دراسة الأدب، إنما أنا رجل درس القانون ودرس الاقتصاد والسياسة ومال إلى قراءة الفلسفة والأدب لا دراستهما دراسة انقطاع وتمحيص».

وقد كان هذا إرهاصا بأن هيكل يعود مرة أخرى إلى فنه الأول الاقتصاد والقانون.. وقد كان!

ولكن هيكل قد ترك آثارا قوية فى الأدب العربى المعاصر، لا يمكن أن تنسى وكان أبرز تحول فى تاريخه الأدبى هو دراسة السيرة والتاريخ الإسلامى.

كان هيكل «حفيا» بالتاريخ منذ بدأ حياته، فقد تناول الكثير من رجال مصر، كما تناول جان جاك روسو، وبعض كتاب أوروبا بالبحث والدرس، ثم تبلور هذا الاتجاه فى دراسة للتاريخ الاسلامى كان مفتاحها كتاب «أميل درمنجم» عن محمد ﷺ فقد لفت نظره هذا الكتاب، فإذا به فجأة يواجه قراء السياسة الأسبوعية فى شتاء سنة ١٩٣٢، بفصول جعل عنوانها «حياة محمد لاميل درمنجم: عرض وتعليق: محمد حسين هيكل، وقد وصف هذا الاتجاه فى مقدمة كتاب «حياة محمد» بقوله «بدأت أراجع تاريخ محمد وأعيد النظر فى سيرة ابن هشام ومغازى الواقدى، وعدت إلى كتاب سيد أمير على «روح الإسلام» ثم حرصت على أن أقرأ ما كتبه بعض المستشرقين، فقرأت كتاب درمنجم وكتاب واشنطون ارفنج ثم انتهزت فرصة وجودى فى الأقصر شتاء عام ١٩٣٢ وبدأت أكتب، ولقد ترددت يومئذ ان أجعل البحث الذى أطالع به قارئى من وضعى أنا خيفة ما قد يقوم به أنصار الجمود

والمؤمنون بالخرافات من ضجة تفسد علىّ ما أريد».

ولا شك أن كتاب هيكل عن حياة محمد، كان تحولا واضحا فى تاريخه الأدبى بل فى تاريخ الأدب العربى المعاصر كله فالرجل الذى عكف منذ شبابه على دراسة آثار الأدب الأوروبى، والذى كان يدعو بقوة إلى الحضارة الأوروبية وآثارها، يتحول إلى الشرق وإلى التراث العربى فيقرأه ويمعن فيه ويتناول على هذه الطريقة التاريخية الحديثة.

ولكننا نظلم «هيكل» إذا جعلناه من رواد الأدب الإسلامى الحديث دون أن نذكر له أثرا آخر كان به رائدا من رواد القصة ذلك هو قصة «زينب».

فقد وضع هيكل باكورة القصة المصرية ١٩١٧ ولكنه لم يواصل السير فى هذا الطريق، وإن كان قد أنشأ بعض القصص بعد ذلك.

وهيكل كاتب جزل العبارة، واضح الأداء، مستفيض، يقلب الفكرة على جوانبها، ويبحثها من جميع أطرافها، ويعرض لها عرضا فيه شمول وفيه أناة وفيه دقة، وهو يصف أسلوبه بأنه أسلوب قانونى «وطبيعى أن يكون أسلوبى أسلوب الذين درسوا القانون والذين يرون أن تؤدى المعانى بالألفاظ لاتزيد عليها ولا تضيق بها، والذين لا يعنيهم فى ذلك بهرجة اللفظ للفظ، وقد زادنى حرصا على هذا الأسلوب انى رأيت مثله موضع الإطراء من طائفة من كبار الكتاب والفلاسفة»

سافر هيكل إلى أوروبا فى مطلع الشباب فإلى أى مدى كان أثر ذلك فى أدبه وإنتاجه؟

يقول «سافرت إلى باريس وجعلت أدرس اللغة الفرنسية وأتصل بأدبها فأخذ إليه من هواى كأشد ما تأخذ حسناء إليها هوى مغرم بها، ودفعتنى هذه المطالعات المتصلة وما فتحت عليه عيناى من جمال البيئة المحيطة بى، إلى الإعجاب بالحضارة الغربية التى تنتج مثل هذه الثمار العذبة الشهية».

غير أن هيكل لم يلبث حين عاد إلى مصر أن بدأ اقرب إلى الاعتدال فهو لم يسرف فى الاندفاع وراء الأدب الأوروبى، وآية ذلك دعوته إلى الفرعونية وربط

الحاضر بالماضى، ومهما يكن من أمر هذه الدعوة وصداها ومصيرها فإنها قد تبلورت بعد ذلك فى نفس هيكل على صورة أخرى حين بدأ يكتب عن «الإسلام» فقد اتسع المعنى القومى الذى كان يدعو إليه إلى صورة أشد قوة وعمقا حين ربط تاريخ الشرق الحديث بالإسلام ودعوته ومدنيته وإمبراطوريته.

والحق أن هيكل كان فى حياته الفكرية أقرب إلى الاعتدال من زملائه زعماء المدرسة الحديثة، كان أشد رفقا، وأكثر اعتدالا، حتى أسلوبه فى الكتابة السياسية كان مثلا للرفق والأناة وإن لم يخل من قوة ورغبة فى الصراع.

فهو لم يُعرف بالخصومات الجريئة التى عرف بها طه والعقاد، ولم يعلن ثورته على القدماء ثورة واضحة، وهو فى الأدب يؤمن بالملاءمة بين العلم والأدب، وبين تراث الشرق وحضارة الغرب، وبين الأحياء والبعث من ناحية، والنقل والترجمة من ناحية أخرى.

اتصل منذ شبابه الباكر بالجريدة وتتلمذ على خاله لطفى السيد، وعاش فى هذا الجو الجديد، فلما عاد من أوروبا، ونشأت الأحزاب، كانت «السياسة» هى مدرسة التجديد التى جمعت طه وهيكل وعزمى وعبد الرازق.

وكان لونها الواضح وثقافتها الظاهرة، الفرنسية فى أبرز معالمها، وكان منهاجا مخالفا لمنهاج المدرسة الأخرى التى أطلقت على نفسها المذهب الجديد والتى كانت أشد ثورة وهدما، وأكثر اتصالا بالثقافة الإنجليزية، وأكثر حربا لحافظ وشوقى وهى مدرسة «الديوان» وعلى رأسها العقاد والمازنى وشكرى.

وبعد فقد كان الأدب أبرز مظاهر حياة «هيكل» وقد ترك فيه آثارا باقية، هى جزء من الأدب العربى المعاصر، لا شك فى جودته وقوته، وإن كان قد انصرف بعد عن الأدب إلى الحياة التى أحبها وأوغل فيها - حياة السياسة والقانون - وضرب فيها بسهم وافر، فإن مراحل حياة «هيكل» بدت متشابكة مترابطة وهى فى مجموعها صورة واضحة لحياة مفكر.

وجدى، محمد فريد

١٨٧٨ - ١٩٥٤م

صاحب دائرة المعارف

نحن بإزاء شخصية خصبة، غاية الخصوبة، عميقة غاية العمق، شخصية مفكر وفيلسوف وباحث متجرد لفكرة واحدة عاش لها حياته كلها، وما أطولها، بعيدا عن مجالات الشهرة والتألق، أو أحداث الدوى، كأنما هو زاهد لا يتطلع إلى أى شىء فى هذه الحياة، غير أمر واحد، هو أن يقول كلمته. إنه من النماذج القلائل التى تظهر فى تاريخ الفكر الإنسانى، بين آن وآخر، لتكون مهيأة بالعقل والقلم على أداء دور كبير ليس على مسرح الحياة وإنما فى أعماقها. من أولئك القادرين على استيعاب مفاهيم عصرهم من أجل الدفاع عن دعوة إنسانية رفيعة يحملون لواءها مدى حياتهم. لا يصيبهم إليأس ولا التحول، ولا تزيدهم الأيام والأحداث إلا قوة على الاستمرار، فكأنما هذه الحياة عندهم مجرى طويل ممتد، يبدأ أول أمره عادياً لا يلفت النظر ثم لا يلبث أن يزداد عمقا وما يزال يمتد ويتسع حتى إذا أوفى على الغاية اكتمل وتضخم وأحال كل ما حوله خصباً وحياة.

كذلك كانت حياة «فريد وجدى» فى مطالعها قبل أن ينتهى القرن التاسع عشر بخمس سنوات. شاب فى العشرين من عمره، ولد فى الإسكندرية وتنقل بينها وبين دمياط ثم استقر فى السويس مع والده الذى كان يشغل منصب وكيل المحافظة بها. قد أكمل تعليمه فى مكتبة والده متفوقا فى اللغة الفرنسية، وقارئا بها، مازجاً

ذلك بثقافة عربية إسلامية أصيلة قوامها دراسات فى الأدب والعلوم والفقة والتاريخ والسُّنة والشرائع والقرآن، موجهاً قلمه إلى قضية عصره: مواجهة تحديات الفلسفة المادية داعياً إلى الإيمان بالأديان، مقدما إلى أهل عصره عصارة الثقافات القديمة والمستحدثة الشرقية والغربية على السواء، من أجل بناء ثقافة عربية إسلامية عصرية. وكان قمة عمله فى هذا «دائرة معارف القرن العشرين».

وتجرى حياة فريد وجدى الطويلة العميقة التى أمتدت قريب الثمانين عاما على أرجح الأقوال فى أربع مراحل كبرى:

أما فى المرحلة الأولى فقد أخذ فريد وجدى يكتب رسائله التي تتناول الكون وإثبات وجود الله، وتطبيق الديانة الإسلامية على النواميس الحديثة. وفى هذه المرحلة أصدر عددا من المؤلفات، كما أصدر (مجلة الحياة) التى كان يضمنها هذه الأبحاث على هيئة مقالات ثم يعود فيصدرها فى مؤلفات.

وتتسم هذه المرحلة بوضوح الفكرة وعذوبة الأسلوب والقدرة على الاداء فى مجال الدراسات الروحية والدينية والإسلامية على نحو عصرى، يختلف اختلافا واضحا عما كان عليه أسلوب الكتاب فى اللغة العربية فى هذه المجالات.

ثم لم يلبث فريد وجدى أن انتقل إلى المرحلة الثانية وهى العمل الصحفى وذلك بإنشائه عام ١٩٠٧ جريدة «الدستور» التى عاشت بضع سنوات وكانت مدرسة جديدة فى الصحافة إليومية من ناحيتين: من ناحية كرامة الكلمة وارتفاعها عن السجال الهدام والجدل المغرق فى الهجاء، ومحاولة إدخال شذرات مختلفة من الصحف العالمية عن الحضارة وتطور العلم والمذاهب والأفكار الحادثة فى الغرب بأسلوب سهل مبسط يقربها للقارئ.

ولم يلبث فريد وجدى أن أوقف صحيفته، حيث لم تطاول نفسيته - السمحة المطبوعة على الدراسات العلمية - العمل الصحفى فى اضطرابه ومشاقه وأساليبه المختلفة، وعاد إلى فطرته فى العمل الموسوعى والعلمى بعد أن كسب من وراء العمل الصحفى إليومى شهرة واسعة فى العالم الإسلامى كله. كانت فى ذاتها تعميقا لعمله الفكرى وامتدادا له. ولم يلبث بعد أن واصل أيامه فى مشروعه الضخم

«دائرة معارف القرن الرابع عشر الهجرى والعشرين الميلادى» فانتهى منها عام ١٩١٨. ثم أعاد طبعها بعد ذلك عام ١٩٢٣، مما أكد مدى أهميتها فى هذه الفترة كمرجع سريع منوع لثقافات العصر والسلف ممتزجة مرتبطة من وجهة نظم عربية تؤمن ببناء الفكر العربى الحديث على أساس من قيمه ومفاهيمه مع انفتاحه لتقبل كل جديد وحادث فى مجريات النهضة وتطور الحضارة الإنسانية.

وفى هذه المرحلة ملأ فريد وجدى الدنيا وشغل الناس، فقد كتب فى مختلف الصحف اليومية والأسبوعية والشهرية وفى مقدمتها «الأهرام» و«المقتطف» و«الهلال» وعالج عشرات من القضايا، وواجه مختلف تطورات العصر الفكرية والسياسية والاجتماعية ودخل كثيرا من المساجلات والمعارك فى اعتزاز بالعلم وترفع عن الكلمة النابية، وكان خط فكره فى مختلف كتاباته «تغليب العلم والعقل وفق مفهوم الإسلام على ما سواهما».

وفى عام ١٩٣٣ بدأت المرحلة الرابعة من حياته وهى إشرافه على تحرير مجلة «الأزهر». وكانت تسمى (نور الإسلام) ثم أبدلت باسم مجلة «الازهر» وقد امتدت هذه المرحلة حتى عام ١٩٥٢ ظل خلالها دائباً على العمل فى ذلك المجرى الذى يتصل بدراسته وفكره. وقد قدم فى هذه المرحلة ما يقرب من خمسمائة بحث وأبرز أعمال هذه المرحلة هى اهتمامه بموالاة كل ما يكتب عن الثقافة العربية والإسلام والشرق والروحية فى صحف الغرب، وفى مؤلفات كتّابه، فيعرض له وينتفع به فى مجال دعوته إلى الروحية ومقاومة الفلسفة المادية أو يرد على ما فيه من شبهه أو خطأ.

وفى خلال هذه الحياة الفكرية العقلية لفريد وجدى التي بدأت عام ١٨٩٦ بكتابة «الفلسفة الحقة فى بدائع الأكوان» وانتهت عام ١٩٥٢ بآخر مقال له فى مجلة «الأزهر» تبدو صورة باهرة لعمل ضخم امتد خلال سبعة وخمسين عاما لم يتوقف ولم يفتر من أجل رسالة التنوير واليقظة وبناء الفكر العربى الإسلامى المعاصر على أساس العلم والعقل. ومقاومة الجمود من ناحية ومقاومة المادية من ناحية أخرى، ورد هذا الفكر إلى مقوماته الأساسية التى تمتزج فيها الروح والمادية والعقل والقلب.

ولم تكن مؤلفات فريد وجدى المنشورة باسمه وهى تربو على عشرين كتاباً هى كل آثاره وإنتاجه بل إن آثاره المطمورة فى بطون الصحف والدوريات لتزيد على هذا القدر. ولعلها أكثر أهمية وخطراً. فقد اتصلت بالقضايا الفكرية واليومية التى دارت فى العالم الإسلامى خلال هذه الفترة من حياته، فقد شهد حربين عالميتين وتابع تطور الفكر الإنسانى فيما قبل القرن العشرين وخلال نصفه الأول متابعة راشدة يقظى، من خلال زاويته الإنسانية الروحية، المدافعة عن الدين، المشدودة إلى حاجة البشرية إليه، المتخذة من سلاح العلم والعقل وسيلتها إلى كل رأى تراه، أو وجهة نظر تصل إليه.

فإذا أضيف إلى هذا موسوعته (دائرة معارف القرن العشرين) التى صدرت فى ٨٤١٦ صفحة فى عشرة مجلدات وضمت آلاف المواد فى العلوم النقلية والعقلية والكونية وتاريخ المذاهب والتفسير والحديث والتاريخ العام وتراجم مشهورى الشرق والغرب والجغرافيا الطبيعية والسياسية والكيمياء والفلك والفلسفة والعلوم الاجتماعية والاقتصادية والروحية والطب والعلاج وقانون الصحة والفوائد المنزلية وخصائص العقاقير والإحصاءات، تبين مدى هذا الجهد الضخم، الذى استطاع به باحث فرد دون معونة من أى نوع أن يقدم هذا العمل للفكر العربى المعاصر فى أوائل العقد الثانى من القرن الماضى. ومازالت هذه الموسوعة مرجعاً حيا نافعا إلى اليوم.

كان «فريد وجدى» ولا شك رائد مدرسة فكرية عصرية، تجمع بين القديم والجديد والشرق والغرب، والحضارة والدين وتحاول ان تزاوج بينهما على منهج جديد يختلف عن منهج الباحثين من رجال الدين أو العلم على السواء ويمكن أن يقال إن كتابات الدكتور محمد حسين هيكل وعباس محمود العقاد ومحمد احمد الغمراوى ومحب الدين الخطيب فى هذا المجال هى امتداد لمنهجه واستمرار لفكرته.



المراجـــع

١ ـ مصابيح على الطريق — **محمود الشرقاوى**

٢ ـ عصاميون عظماء — **بأقلام نخبة من الشرق والغرب**

٣ ـ من أعلام الفكر والأدب — **أنور الجندى**

٤ ـ شاعرات عربيات — **روحية القللينى**

٥ ـ قصه الأدب فى العالم — **أحمد أمين**

٦ ـ الكُتاب المعاصرون — **أنور الجندى**

٧ ـ الرؤوس — **مارون عبود**

٨ ـ أعلام الأدب الإنجليزى — **كامل عبدالمجيد**

٩ ـ أعلام الأدب الفرنسى — **د. جلال حسن صادق**

١٠ ـ أعلام الأدب الأوروبى — **على كامل**

١١ ـ المائة الأوائل — **د. سهيل زكار**

١٢ ـ شعراء الوطنية — **عبدالرحمن الرافعى**

١٣ ـ زعماء الإصلاح فى العصر الحديث — **أحمد أمين**

١٤ ـ أعلام التربية — **انطوان م. الخورى**

١٥ ـ أعلام الفكر الإسلامى — **أحمد تيمور**

١٦ ـ شخصيات تاريخية — **على ادهم**

١٧ ـ أعلام من الشرق والغرب — **محمد عبدالغنى حسن**

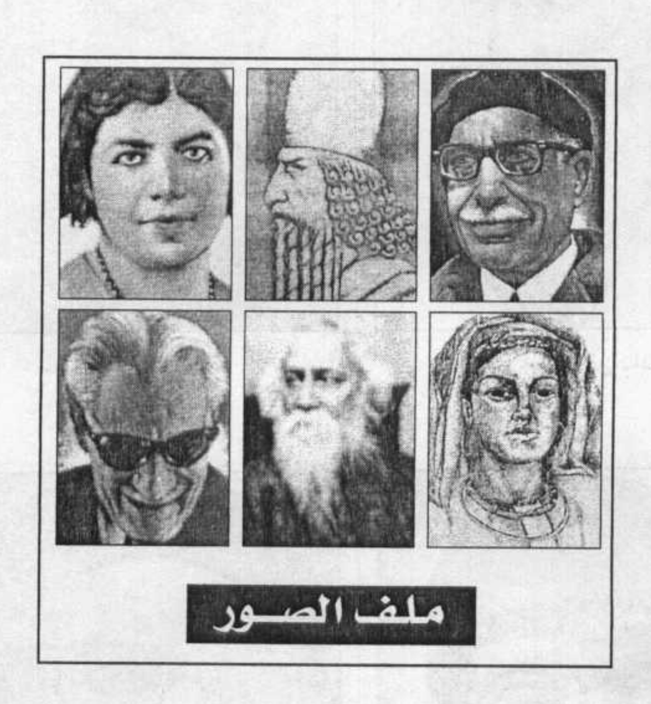
١٨ ـ عشر روايات خالدة	**سومرست موم**
١٩ ـ خطباء صنعوا التاريخ	**أنور أحمد**
٢٠ ـ قدماء ومعاصرون	**سامى الدهان**
٢١ ـ مناهج التأليف عند العلماء العرب	**د. مصطفى الشكعة**
٢٢ ـ من أعلام المسرح العالمى	**محمد حمودة**
٢٣ ـ فلاسفة من الشرق	**أ.و. ف. توملين**
٢٤ ـ صحائف من تاريخ الأدب العربى	**يوسف فهمى أحمد**
٢٥ ـ أعلام الفن القصصى	**هنرى توماس**
٢٦ ـ مشاهير رجال الطب المعاصرين	**كارولين شاندلر**
٢٧ ـ محمود سامى البارودى	**عمر الدسوقى**
٢٨ ـ قمم أدبية	**نعمات أحمد فؤاد**
٢٩ ـ أعلام القرن الرابع عشر الهجرى	**أنور الجندى**
٣٠ ـ حديقة الأدباء	**طاهر الطناحى**
٣١ ـ شهيرات النساء فى العالم الإسلامى	**قدريه حسين**
٣٢ ـ من رواد الفن الحديث	**نعيم عطية**
٣٣ ـ تراجم الأعلام المعاصرين	**أنور الجندى**
٣٤ ـ على فراش الموت	**طاهر الطناحى**
٣٥ ـ حسان بن ثابت	**محمد إبراهيم جمعة**
٣٦ ـ شعراء ثلاثة	**نعمات أحمد فؤاد**
٣٧ ـ معجم الأطباء	**أحمد عيسى بك**
٣٨ ـ أدب وأدباء	**محمود تيمور**

٣٩ ـ خليل مطران شاعر الحرية	**محمود بن الشريف**
٤٠ ـ ارنست هيمنجواى	**على محمد على**
٤١ ـ عبدالرحمن الكواكبى	**سامى الدهان**
٤٢ ـ الطب والأطباء	**محمود دياب**
٤٣ ـ أعلام الفكر القومى	**د. نبيل راغب**
٤٤ ـ أعلام الفكر الإسلامى	**أحمد تيمور**
٤٥ ـ أدباء القرن العشرين	**د. نبيل راغب**
٤٦ ـ برتراند راسل	**رمسيس عوض**
٤٧ ـ ارنولد توينبى	**لمعى المطيعى**
٤٨ ـ السجل الذهبى للعظماء الخالدين	**دار الرأى العام**
٤٩ ـ جون ديوى	**أحمد فؤاد الأهوانى**
٥٠ ـ شخصيات من الأدب اليونانى المعاصر	**نعيم عطية**



فهرس المحتويات




ملف الصور



حافظ ابراهيم



حسان بن ثابت



توفيق الحكيم

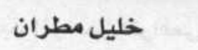


حمورابى



الخليل بن أحمد





خليل مطران



الخنساء (تماضر بنت عمرو بن الحارث)



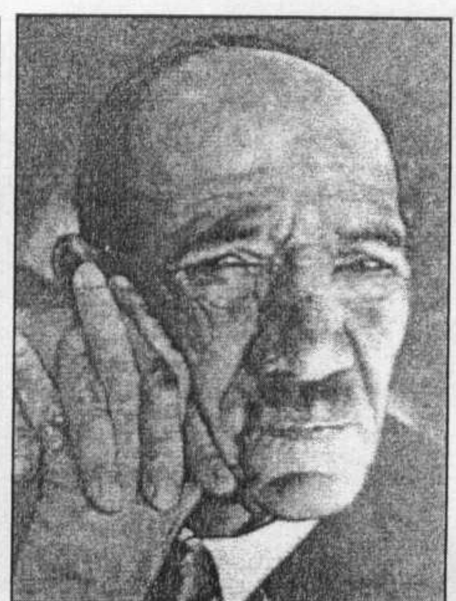
الخوارزمى



عبد الرحمن الرافعى



مصطفى صادق الرافعى



احمد رامى



رشيد رضا



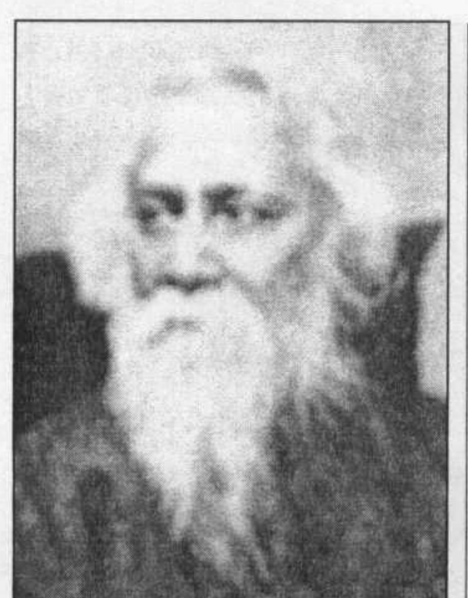
زارادشت

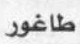


الشافعى

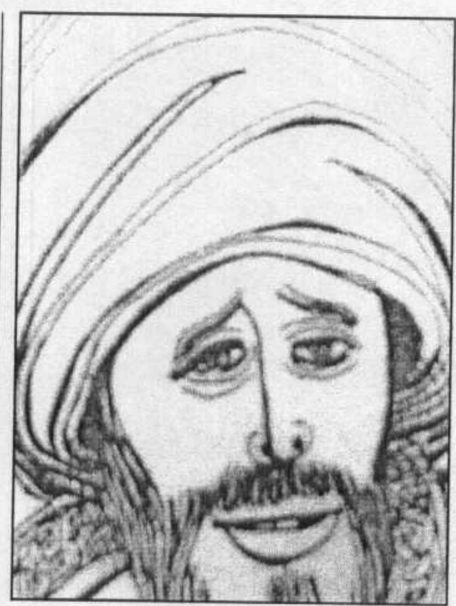


شكيب أرسلان

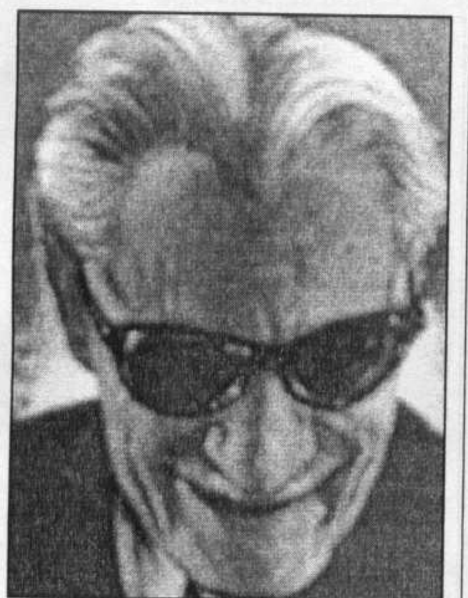




طاغور



الطبرى



طه حسين



رفاعة رافع الطهطاوى



عائشة عبد الرحمن



عباس محمود العقاد



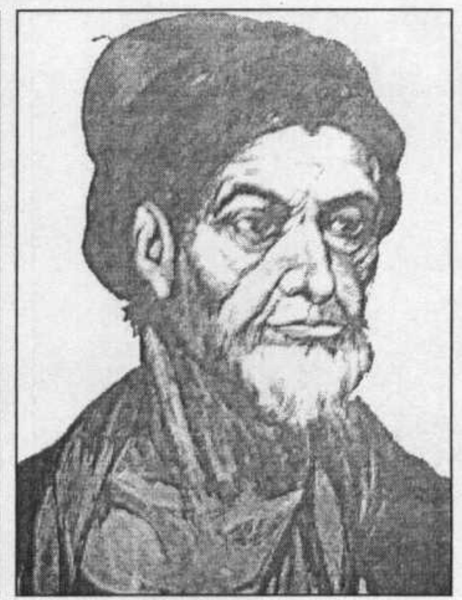
صفحة من صفحات عمر الخيام



عنترة بن شداد



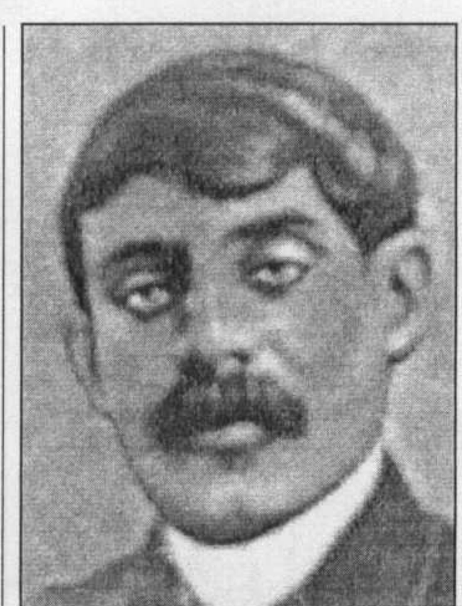
الغزالى



الفارابى



فريد أبو حديد



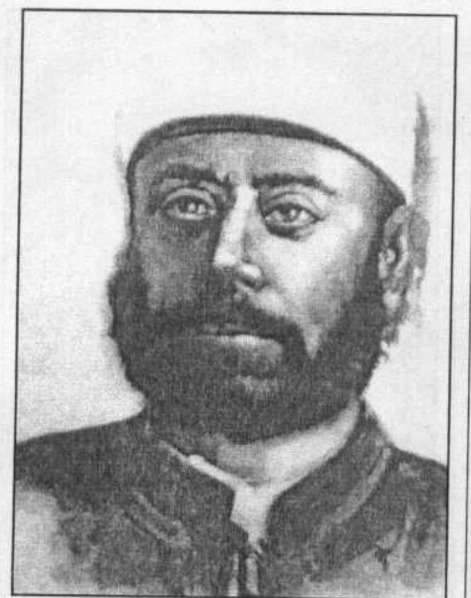
قاسم أمين



الكندى



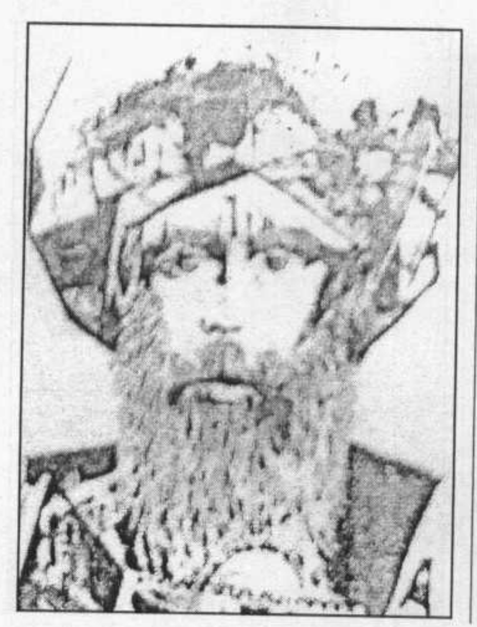
كنفوشيوس



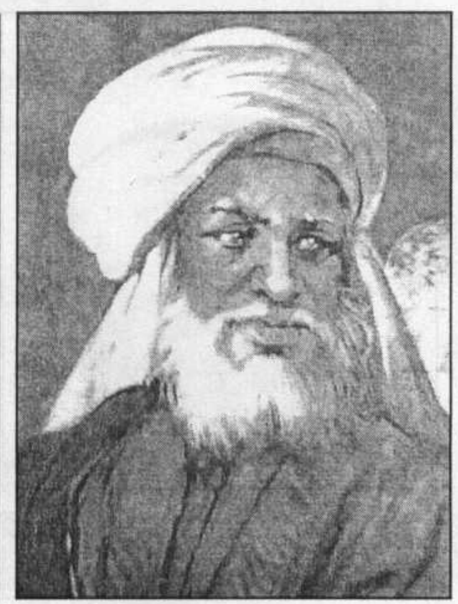
عبد الرحمن الكواكبى



إبراهيم عبد القادر المازنى

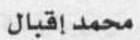


مالك بن أنس

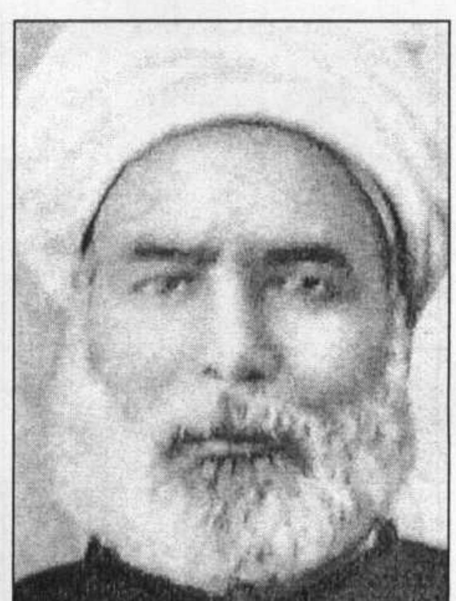


المتنبى





محمد إقبال



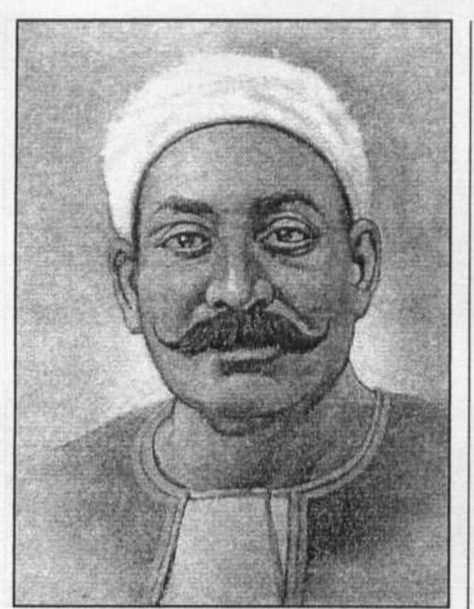
الإمام محمد عبده



مصطفى لطفى المنفلوطى



ملك حفنى ناصف



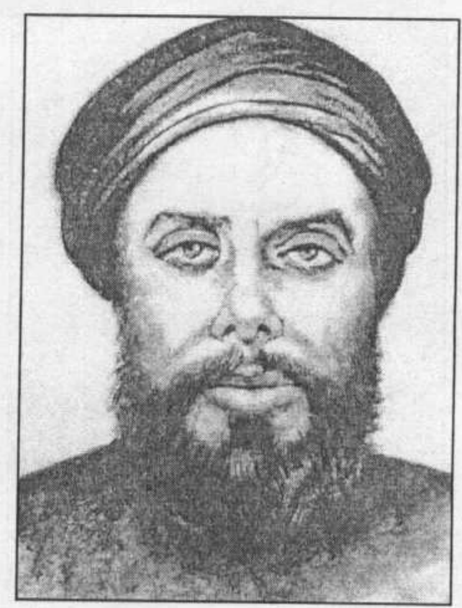
مصطفى لطفى المنفلوطى



مى زيادة



نجيب محفوظ



عبد الله النديم



الهمذانى



محمد حسنين هيكل



محمد فريد وجدى








دار القبس
للطباعة وفصل الألوان
٣٦٤٠٨٣٥ (٠٢+٢٠)
٥٢٤٣٣١٤ (٠٢+٢٠)